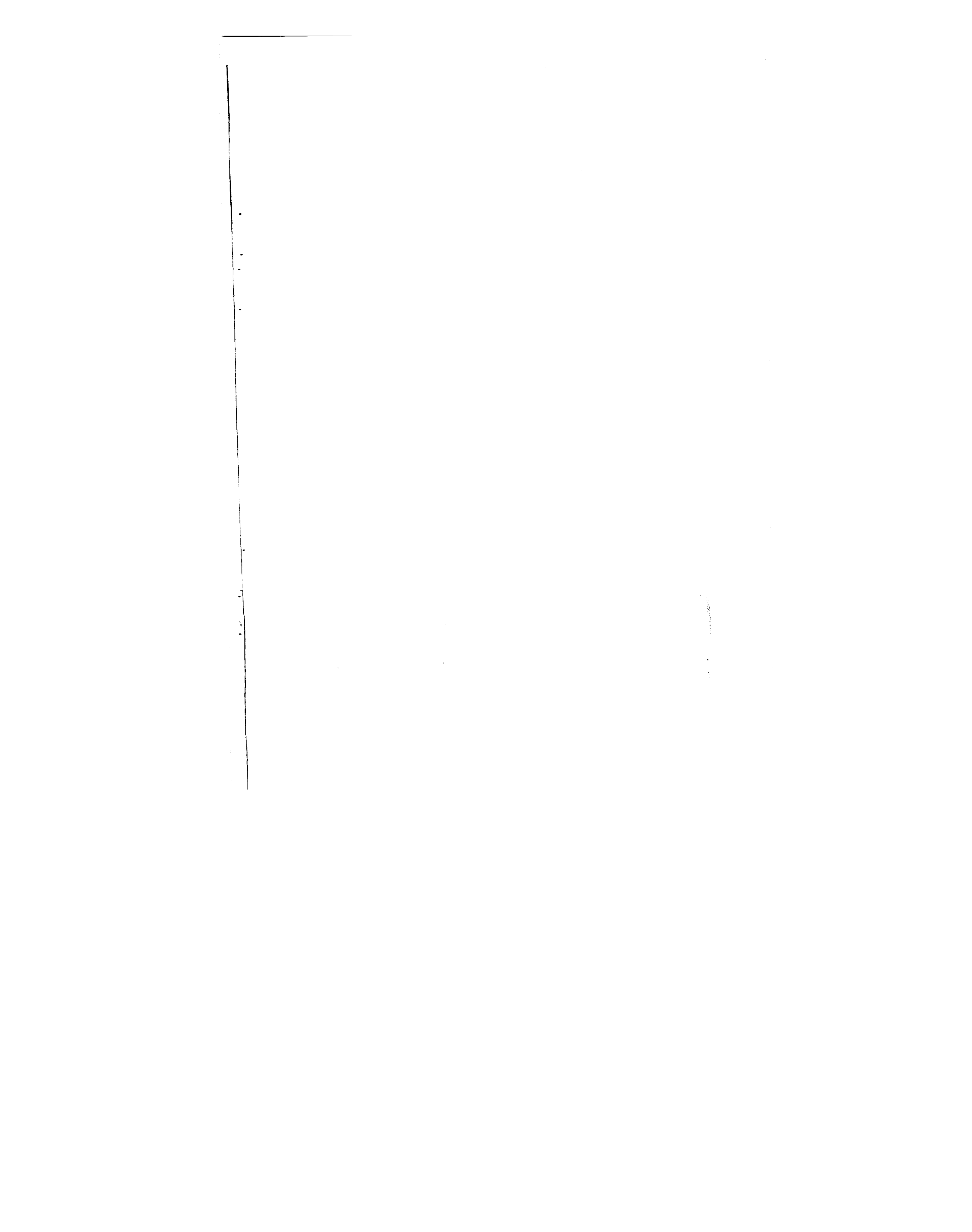
دكتور
عبد الجواد محمد محمد طبق
أستاذ البلاغة والنقد
في جامعة الأزهر

دراسات بلاغية
في
علمي المعاني والبديع
مع التطبيق على الفاصلة القرآنية

الطبعة الثانية
١٤١٨ - ١٩٩٧



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى شرف العربية بالقرآن ، وشرف العرب بالنبى العدنان الذى آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، كما شرف المسلمين جميعا بالإسلام الذى جعل العربية لسانه ، والقرآن الكريم دستوره واللغة العربية بيانه .

وبعد

فهذه دراسة بلاغية فى بعض قضايا البلاغة العربية التى مازالت بحاجة إلى دراسة جديدة لأن قضايا البلاغة بصفة عامة ليس فيها قول فصل ، أو نهاية مطاف ، وإنما ستظل دائما بحاجة إلى رؤى جديدة ، وابتكارات مفيدة تبرز خصائص أسرارها، ودقائق مسائلها ، وبخاصة فى الجوانب التطبيقية ، وبالأخص إذا كانت على أفصح الكلام ، وهو القرآن الكريم .

وقد اخترت لهذه الدراسة بعض القضايا البلاغية التى رأيتها – من وجهه نظرى – بحاجة إلى دراسة جديدة مع كثرة الكتابات فيها ، وذلك كالتقديم والتأخير ، وكثير من ألوان البديع .

وقد جاءت هذه الدراسة فى ثلاثة أقسام ، تناولت فى القسم الأول التقديم والتأخير ، وفى القسم الثانى المحسنات البديعية المعنوية واللفظية ، وأما القسم الثالث فقد تناولت جانبا تطبيقيا فى قضية مهمة من قضايا المحسنات البديعية اللفظية ، وهى السجع .

أما عن الأسس العامة لهذه الدراسة والمحاور التى ارتكزت عليها والمنهج الذى سلكته فيتضح مما يلى :–

١- فيما يتعلق بادراج قضية التقديم والتأخير فى هذه الدراسة ، فقد رأيت أن كثيرا من جوانبها مازال فى حاجة إلى دراسة وتحقيق ، كما أن حديث الإمام عبدالقاهر عنها مازال فى كثير من جوانبه بحاجة إلى ايضاح وتعقيب ، فضلا عن أهمية ومنزلة التقديم والتأخير بصفة عامة فى البلاغة العربية ، كمان كان الحديث هنا مستفيضا وشاملا لكل أنواع التقديم فى الاستفهام والخبر ، وقد اعتمدت الدراسة بصفة أساسية على حديث الإمام عبدالقاهر حول هذه الظاهرة ، كما اعتمدت أيضا على بعض الشروح والتعليقات حولها ، وكان لهذه الدراسة بعض النظرات الجديدة فيها فضلا عن التوضيح والكشف عن غوامضها وملابساتها .

٢- أما فيما يتعلق بالمحسنات البديعية فقد اتخذت الدراسة كتاب الإيضاح للخطيب القزوينى محورا تدور حوله مع البعد عن بعض المسائل المنطقية أو الفلسفية التى تجافى الذوق البلاغى كما توقفت الدراسة عند بعض النقاط التى تحتاج إلى توقف ، ورجعت إلى بعض الشروح والحواشى فى توضيح بعض القضايا البلاغية ، وأبرزت كثيرا من القيم البلاغية لبعض المحسنات التى يظن بها التحسين اللفظى دون ما وراءه من معنى يواكب هذا التحسين ، وقد حاولت الدراسة جمع النظير إلى النظير والابتعاد عن الاستطرادات التى ليست لها قيمة بلاغية تستحق الذكر .

٣- أما فيما يتعلق بالجانب التطبيقى فكان من أهم معالم الدراسة فيه أنها اختارت للتطبيق محسنا لفظيا كثيرا ما تجهت الأنظار نحوه إلى الناحية اللفظية أو الشكلية وهو السجع ، حيث إنه من المحسنات اللفظية ، كما أن جانبا كبيرا منه ورد متكلفا ممقوتا ، ولذلك حرص

الإمام عبدالقاهر على التركيز بصفة أساسية على التأكيد على القيمة المعنوية للسجع والجناس ، وأفردهما بحديث مطول فى صدر أسرار البلاغة ٠

ولذا كان الهدف من هذه الدراسة التطبيقة تحقيق ما دعـا إليه الإمام من استدعاء المعانى للسجع أولا قبل استدعاء الحسن اللفظى ، وذلك ببيان الأغراض المعنوية التى استدعت الانفاق فى أواخر مقاطع الكلام واختارت للتطبيق أفصح الكلام وهو القرآن الكريم ، كما اختارت نماذج التطبيق من الفواصل التى جاء بناؤها على خلاف مقتضى الظاهر من العبارة ، لأنها هى التى يظن بها أن هذا البناء غير المتوقع كان من أجل رعاية الفاصلة كما ذهب إليه بعض المفسرين والمشتغلين بعلوم القرآن كالزركشى والسيوطى والألوسى وغيرهم ، وقد ابرزت الدراسة التطبيقية من خلال ذلك معانى دقيقة وجليلة كانت وراء بناء الفاصلة قبل اعتبار الموافقة فى الفواصل ، وبذلك أبرزت جانبا مهما من جوانب الاعجاز البلاغى للقرآن الكريم وقد آثرت الدراسة إطلاق رعاية الفاصلة دون السجع على الفواصل المتفقة لما يشعر به لفظ السجع من أمور لا تتفق مع جلال القرآن الكريم كأصل معنى السجع أو تكلف بعض صوره ، أو ما لحق به من ذم كسجع الكهان ٠٠٠ إلى غير ذلك من الاعتبارات ٠
آمل أن تكون هذه الدراسة قد حققت الهدف المنشود كما آمل أن يكون فيها جديد لمن تشغلهم قضايا البلاغة العربية ، والله وحده الموفق للصواب ٠

الزقازيق فى : ٢٣من جمادى الأولى ١٤١٧ هـ
٦ /١٩٩٦/١٠ ٠

أ ٠ د/عبدالجواد محمد محمد طبق

****

القسم الأول

التقديم والتأخير

عن منزلة التقديم والتأخير فى البلاغة العربية يقول عبدالقاهر الجرجانى :

" هو باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف ، لا يزال يفتر لك عن بديعه ، ويفضى بك إلى لطيفة ، ولا يزال ترى شعرا يروقك ،ويلطف لديك ثم تنظر فتجد سبب ذلك أن قدم فيه شئ ، وحول اللفظ من مكان إلى مكان "[١] .

وسنحاول فيما يلى ابراز هذه القيمة من خلال حديث الإمام أيضا ، ومن خلال الشواهد التى أوردها فى ذلك ، ومن خلال بعض ما كتب حول ذلك أيضا [٢] .

ذكر الشيخ عبدالقاهر فى صدر حديثه نوعين من التقديم ، أحدهما تقديم على نية التأخير كتقديم الخبر على المبتدأ ، وتقديم المفعول على الفاعل أو على الفعل ، وتقديم الجار والمجرور على متعلقة وغير ذلك مما يتحتم القول فيه بالتقديم ، ولا يصلح المقدم فيه أن يقر فى موضعه على أنه أصيل فيه .

---

[١] دلائل الاعجاز ١٤٢ .

[٢] انظر المرجع السابق ١٢٤ ومابعدها ، وانظر أيضا دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبدالقاهر ١٣٢ وما بعدها للشيخ عبدالهادى العدل ودراسات فى علم المعانى فى ضوء النظم القرانى ٧٦ للمؤلف .

أما النوع الثانى فهو تقديم ليس على نية التأخير ، لأن المقدم فيه يمكن أن يحتل الصدارة ، ويعرب إعرابا أصيلا فى موقعه ، فإذا قلت مثلا : منطلق محمد ، فإن (منطلق) مقدمة من تأخير ، والأصل فى التعبير : محمد منطلق ، فهو تقديم على نية التأخير فهو من النوع الأول ، ولا يسوغ أن تعتبر المقدم ثابتا فى موضعه لأنه نكرة ، ولا يسوغ الابتداء بالنكرة ، أما اذا قلت : المنطلق محمد، فهو تقديم من النوع الثانى ، لأن أصله : محمد المنطلق ، لكن هذا التقديم ليس على نية التأخير ، لأن المتكلم بالعبارة عندما قدم (المنطلق) قصد بها معنى غير (محمد المنطلق) ومادام المقدم معرفة فإنه يصلح أن يحتل موقع محمد فى التقديم ، ومن هنا قالوا : إن المبتدأ والخبر اذا كانا معرفتين فأيهما قدمته كان هو المبتدأ وأيهما أخرته كان هو الخبر ، وهذا وإن كان صحيحا نحوا لكن لا يستوى المعنى بينهما فى التقديم والتأخير بلاغة ، وانما يرجع ذلك الى غرض المتكلم ، فيقدم الذى يريد الحكم عليه ، ويؤخر الذى يريد الحكم به ، فإذا كان المخاطب مثلا يعرف شخصا يسمى محمدا ، ويعرف أيضا أن هناك انطلاقا معينا فى الخارج ، ويستشرف الحكم على محمد ووصفه بصفة معينة فقل له : محمد المنطلق ، أما إذا رأى منطلقا فى الخارج وكان يعرف محمدا ، ولكن لا يعرف من هو المنطلق ويستشرف الى معرفته فقل له : المنطلق محمد ، لأنه يتطلع إلى معرفة من هو المنطلق ...

وكذلك الحال فى قولك : محمد أخوك أو أخوك محمد ، فالمعلوم الذى يطلب المخاطب الحكم عليه ، ويتطلع لأن يحدثه المتكلم عنه يقدم ، كأن يريد مثلا أن تحدثه عن محمد فتقول له محمد المنطلق ، أو محمد أخوك ، أما إذا كان يتطلع إلى أن تحدثه عن المنطلق أو عن أخيه تقول له :المنطلق محمد ، أو أخوك

محمد ، والمفروض أن كلا من طرفى الاسناد معروفان لدى المخاطب .

والحديث الآتى بعد ذلك يتناول التقديم فى كلا النوعين ، حيث تحدث عبدالقاهر عن تقديم الفاعل ، وهو من التقديم الذى ليس على نية التأخير ، وتقديم المفعول ، وهو من التقديم الذى هو على نية التأخير .

هذا وقد عاب عبدالقاهر على بعض المتقدمين عدم اهتمامهم بأمر التقديم على الوجه الذى ذكره هو، إذ إنهم كانوا يكتفون بتعليله بالأهمية دون بيان وجه هذه الأهمية ، انطلاقا من عبارة سيبويه : "وانما يقدمون الذى بيانه هو أهم لهم ، وهم بشأنه أعنى ، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم " مع أن سيبويه لا يقصد عموم هذا التعليل لأنه لا قيمة له فى ذاته ، وإنما تظهر قيمته ببيان وجه هذا الاهتمام كما صنعوا فى مثال الخارجى المشهور فى قولهم: قتل الخارجى فلان ، أو قتل فلان الخارجى ، حيث ذكروا فى الأول أنه إذا كان الذى يعنى الناس ويشغل بالهم هو القتل الواقع على الخارجى يقدم الخارجى مع أنه مفعول به ، لأن الناس لا يعينهم من أمر قاتله ما يعنيهم من أمر المقتول ، لكن اذا كان القتل قد وقع من شخص لا يأبه له ، ولا يلتفت لأمره لجبنه وخموله اللذين اشتهر بين الناس بهما ، لكنهم فوجئوا بقتله فلانا مثلا فالعبارة الصحيحة بلاغة هى : قتل خالد فلانا إذا كان اسمه خالدا ... وهكذا .

كما ينعى عبدالقاهر على من يهتمون بيان نوع الأهمية فى التقديم تارة ، ولا يهتمون ببيانها أخرى لأنه إذا ثبت أنه يفيد أهمية خاصة فى موقع فلابد أن يفيدها فى موقع أخر ، كما لم يرقه من

يكتفون بعلة لفظية فى بيان أمر التقديم كاستقامة السجعة للناثر أو الوزن للشاعر ، وكل هذا لا يتفق مع جلال بلاغة أمر التقديم ، وبخاصة فى القرآن الكريم ومع تأكيده على ذلك وجدنا بعض اللاحقين له كابن الأثير يرى فى بعض الشواهد أن النكتة اللفظية كالمحافظة على السجعة أهم فى التقديم من النكتة المعنوية كما فى قوله تعالى :" إياك نعبد وإياك نستعين" وقوله سبحانه :" خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ، وقد تابعه فى ذلك بعض اللاحقين كالسعد فى المطول والعلوى فى الطراز وغيرهما .

ومن هنا كان اهتمام عبدالقاهر بالحديث عن اسرار التقديم فى النوعين ، وفى الاستفهام والخبر ، وسنحاول فيما يلى ايجاز حديثه وبيانه عن كلا النوعين ، ويلاحظ أ نه بدأ حديثه فى بيان مسائل التقديم بذكر مالايشك أحد فى أن دافع التقديم فيها كان غرضا معنويا ، لا لفظيا ، حيث لم يورد فيها شيئا من الشعر أو النثر المسجوع وقد دار حديثه فيها حول :-

١- الاستفهام بأنواعه : الحقيقى والتقريرى والإنكارى .
٢- الخبر مثبتا أو منفيا ، ويدخل فيه حديثه عن التقديم فى مثل وغير ، وسنوجز هذا الحديث فيما يلى :-

تمهيد حول الاستفهام بالهمزة

نبدأ الحديث عن هذا النوع من التقديم بمقدمة ضرورية للتذكير بما هو معلوم فى باب الإنشاء عن الاستفهام ، والاستفهام كما هو معروف : طلب الفهم بإحدى أدواته والمستفهم عنه ضربان: تصديق وتصور ، فإذا كان المطلوب بالاستفهام إثبات حكم

أو نفيه كان ذلك تصديقا كما فى قولك : أتسافر غدا ؟ أعندك محمد ؟ ويكون الجواب نعم أو لا • واذا كان المطلوب الاستفهام عن أحد طرفى النسبة أو بعض متعلقاتها كان تصورا كما فى قولك : أمحمد عندك أم على ؟ أعندك محمد أم عند صديقك ؟ أراكبا جئت أم ماشيا ؟ ويكون الجواب بتعيين المستفهم عنه •

وأدوات الاستفهام إحدى عشرة أداة ، هى الهمزة وهل ، وهما حرفان ، ومن وما ومتى وأيان وأين وأنى وكيف وكم وأى ، وهى أسماء ، والهمزة يطلب بها التصور أو التصديق ، وأما هل فهى خاصة بطلب التصديق ، وبقية الاسماء لطلب التصور فقط •

وقد خص الشيخ حديثه هنا عن الاستفهام بالهمزة فقط ، لأنها هى التى يظهر فيها الفرق بين التقديم والتأخير بصورة واضحة •

ومن أمثلة طلب التصديق بالهمزة فى الاثبات أو النفى : أأنت متزوج ؟ ألك ولد؟أفهمت المسألة ؟ أبنيت الدار التى كنت على أن تبنيها ؟ أقلت الشعر الذى كان فى نفسك أن تقوله ؟ أفرغت من الكتاب الذى كنت تكتبه ؟

ومن الواضح أن السؤال هنا عن ثبوت النسبة أو نفيها ، ومن الأمثلة تتضح معالم وخصائص همزة التصديق ، حيث لم يذكر لها معادل لفظا أو تقديرا ، كما أن جواب الاستفهام يكون بنعم أو لا•

أما اذا كانت لطلب التصور فإن النسبة تكون معلومة لدى المستفهم ، ولكن المطلوب بها تصور أحد طرفيها أو بعض متعلقاتها كما أشرنا إلى ذلك من قبل •

ومن طلب تصور المسند قولك : أأكرمت محمدا أم أهنته ؟ أشتريت الكتاب أم استعرته ؟ أشاعر أنت أم كاتب ؟ ومن طلب تصور المسند اليه : أأنت أكرمت محمدا أم أخوك ؟ أأنت بنيت هذه الدار أم أبوك ؟ ومن طلب تصور بعض المتعلقات : أمحمدا أكرمت أم عليا ؟ أراكبا جئت أم ماشيا ؟ أيوم الخميس حضرت أم يوم الجمعة ؟ ومن الواضح فى كل هذه الأمثلة أن النسبة معلومة للسائل ولكنه يسأل عن طرفيها أو بعض متعلقاتها ، ويتضح من هذه الأمثلة أن همزة التصور يذكر معها المعادل لفظا أو تقديرا مع تحقيق الدليل عليه كما فى قولك : أأنت قلت هذا الشعر ؟ لأن الاشارة إلى الشعر تشعر بأنه مقول ، ولكن المطلوب تعيين القائل وكأنك قلت : أأنت قلت هذا الشعر أم أخوك ، وجواب الاستفهام هنا يكون بتعيين المستفهم عنه ، ولا يكون بنعم أو لا كما هوالحال فى طلب التصديق .

هذا وينبغى أن نشير إلى بعض الركائز المهمة هنا حول الاستفهام بالهمزة وهى :-

١- اذا ذكر مع الهمزة معادل بأم المتصلة لفظا فهى لطلب التصور قطعا .

٢- إذا لم يقع بعدها الفعل فىالجملة الفعلية كما فى قولك : أمحمدا أكرمت ؟ أفى المنزل استرحت ؟ كانت لطلب التصور قطعا سواء ذكر المعادل أم لم يذكر ، ويكون مقدرا فى الحالة الأخيرة .

٣- إذا وقع بعدها جملة فعلية ووليها الفعل مباشرة ولم يذكر معادل كانت لطلب التصديق إلا اذا قامت قرينة على طلب التصور كأن قال لك قائل : إنى سأشترى كتاب كذا أو استعيره ، ثم رآه معك بعد ذلك فقال لك : أشتريت الكتاب ؟ بدون ذكر المعادل ، إذ التقدير أم

استعرته ؟ فالمعادل مقدر ، ويكون الجواب حينئذ بالتعيين كما هو الشأن في طلب التصور ٠

٤ – إذا وقع بعدها جملة اسمية بدون ذكر معادل كما فى قولك : أمحمد عندك ؟ كانت لطلب التصديق ، إلا اذا قامت قرينة على طلب التصور فتكون للتصور كما إذا علم المستفهم من المخاطب أن محمدا أو عليا سيكون عنده فى وقت معين ، ثم قابله فى هذا الوقت فقال له : ذلك ، فيكون المعادل مقدرا ، أى أمحمد عندك أم على؟ ويكون الجواب فى التصديق بنعم أو لا وفى التصور بتعيين المسئول عنه ، ومن الواضح أن النسبة مجهوله فى الحالة الأولى دون الثانية ٠

٥ – إذا كان المطلوب بالهمزة التصور وجب أن يليها المسئول عنه بها كما هو ظاهر من الأمثلة السابقة فى التصور ، وكما فى قولك : أمحمد فى الكلية أم على ؟ أو أفى الكلية محمد أم فى المنزل ؟ ٠٠٠٠الخ ٠

هذا ومما ينبغى أن يعلم أن إيلاء الهمزة المسئول عنه لا يتحقق إلا اذا كانت لطلب التصور فقط دون التصديق ، أما إذا كانت لطلب التصديق فإن الجملة يؤتى بها على ما هو الأصل فيها قبل الاستفهام ، فتقول مثلا : أعندك رجل ؟ أمحمد عندك ؟ أقلت شعرا ؟ وهكذا ٠

وبعد هذا التمهيد حول الاستفهام بالهمزة ننتقل إلى بيان التقديم والتأخير المتعلق بالاستفهام بها فى أحواله الثلاث ، وهى الاستفهام الحقيقى أو التقريرى أو الإنكارى ٠

أولا : الاستفهام الحقيقى

الحالة الأولى :

إذا وليهاالفعل **كان** الشك فيه على أحد وجهين :

أولهما : الشك فى ثبوته للفاعل أو نفيه ، وبذلك تكون لطلب التصديق كما فى قولك : أبنيت الدار التى كنت على أن تبنيها ؟ أفرغت من الكتاب الذى كنت تكتبه ؟ أقلت الشعر الذى كان فى نفسك أن تقوله ؟ والجواب حينئذ فى الإثبات بنعم ، وفى النفى بلا ، والشك هنا فى النسبة من حيث الثبوت أو النفى .

وثانيهما : الشك فى ثبوته أو ثبوت غيره للفاعل إذا كان المطلوب بها تصور المسند كما فى قولك : اشتريت الكتاب أم استعرته ؟ أأكرمت فلانا أم أهنته؟ والجواب حينئذ بالتعيين .

الحالة الثانية : إذا وليها الاسم مع ذكر المعادل له لفظا أو تقديرا كانت أيضا للتصور كما فى قولك : أأنت بنيت هذه الدار أم أخوك ؟ أأنت قلت هذا الشعر أم على ؟ أزيدا رأيت أم محمدا ؟ أيوم الخميس سافرت أم يوم الجمعة ؟ ولاشك أن النسبة معلومة فى كل هذه الأمثلة ، وانما المطلوب بالهمزة تصور أحد جزئيها أو أحد متعلقاتها .

ويجوز حذف المعادل معها لقيام الدليل عليه كما فى بعض الأمثلة السابقة فى قولك : أأنت بنيت هذه الدار ؟ دون ذكر المعادل ، لان الاشارة إلى الدار تشعر بأنها مبنية ، والمطلوب معرفة من بناها ، فليس هناك شك فى النسبة ، وكذلك قولك : أأنت قلت هذا الشعر؟ ؟ وهكذا .

وبهذا نعلم أن وضع الاسم موضع الفعل أو العكس بعد الهمزة يكون فاسدا ، كأن يكون الشك فى الفعل فتبدأ بالاسم ، أو يكون الشك فى الاسم فتبدأ بالفعل بعد الهمزة ، ومن هنا يظهر فساد قولك : أأنت بنيت الدار التى كنت على أن تبنيها ؟ لأن الشك فى الفعل فكان هو الأحق بأن يلى الهمزة ، وفساد قولك : أأنت جرحت فلانا أم قتلته ؟ لأن الشك فى الفعل أيضا ، وفساد قولك : أقلت هذا الشعر؟ لأن الشك هنا ليس فى الفعل وهو قول الشعر ، لأن الشعر مقول بدليل الاشارة إليه ، وانما الشك فى الفاعل والعبارة الصحيحة : أأنت قلت هذا الشعر؟ وكذلك يظهر فساد قولك : أبنيت هذه الدار ؟ لأن الدار مبنية بدليل الاشارة إليها ، فليس هناك شك فى الفعل وأنما الشك فى الفاعل ، والصحيح أن نقول : أأنت بنيت هذه الدار ؟

<u>والدليل على ثبوت الفرق بين التقديم والتأخير هنا</u> : أنه يصح تقديم الفعل مع المفعول العام الذى ليس له فعل خاص ، كأن تقول أرأيت اليوم إنسانا ؟ أشربت ماء؟أأكلت طعاما ؟ فإذا قدمت الاسم على الفعل فى مثل ذلك لا يصح ، كأن تقول : أأنت رأيت اليوم إنسانا؟ لأن المفعول العام الذى يقع من أى واحد لا يسأل عن فاعل خاص له ، إذ لا يختص الفاعل الخاص حينئذ برؤية إنسان على الإطلاق أو شرب ماء على الإطلاق ، أو أكل طعام على الإطلاق ، لأنه يستوى فيه وقوعه من كل واحد على السواء ، ولو كان تقديم الفعل أو الأسم متساويا لوجب أن تصح هذه الأمثلة بتقديم الاسم كما صحت بتقديم الفعل ، ومن الواضح أن الأفعال العامة لا يطلب تعيين فاعليها كالأفعال الخاصة ، فلا تقل : من رأى اليوم إنسانا ؟ ومن زار أحدا من الناس ؟ ومن بنى دارا؟ ومن ركب سيارة ؟ ومن الواضح أيضا أن قولك : أأنت رأيت اليوم إنسانا ؟ وما يشبهه له

معادل مقدر ، وهو أم غيرك ، وهذا يشعر بأنك تسأل عن فاعل خاص لمفعول يقع من كل واحد ، وبذلك ظهر البطلان كما سبق ، لكن إذا قلت : أأنت رأيت اليوم محمدا ؟ أأنت بنيت هذه الدار ؟ أأنت قلت هذا الشعر كان صحيحا لأنك تسأل عن فاعل خاص لمفعول خاص ٠

هذا ولا ينبغى أن يقال : أنه يجوز أن يكون التقديم هنا المفعول العام للتقوية لا للاختصاص ، وبذلك يكون السؤال فى الأصل عن الفعل لا الفاعل ، فتصح هذه الأمثلة ، لأنا نقول : إن المقام هنا للاستفهام الحقيقى القائم على الشك فى النسبة ، فلا محل للتقوية هنا ، ولذلك يجب أن يلى الفعل الهمزة ٠

هذا وظاهر كلام النحاة أنه يجوز أن يلى الهمزة غير المسئول عنه إذا قامت قرينة على ذلك كما فى قولك : أجاءك محمد أم على ؟ أمحمد نجح فى الامتحان أم رسب ؟ ولكن جوازهم هذا مبنى على الصحة النحوية لا الذوق البلاغى ، وكم من كلام صحيح نحويا لكنه فاسد بلاغيا ، كما أن التراكيب الواردة فى أفصح الكلام تؤيد وجهة نظر البلاغيين ، ومنها قوله تعالى :" أقريب أم بعيد ما توعدون " " أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون " " أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامه " وقول الشاعر : –

وما أدرى ولست إخال أدرى

أقوم آل حصن أم نساء

ثانيا : الاستفهام التقريرى

التقرير ضربان : –

أحدهما : أن يكون بمعنى التحقيق ، والتثبيت ، ولا يطلب لـه جـواب ولكن المقصود إثبات الحقيقة فى ذاتها كما فى قوله تعالى "ألم نربـك فينا وليدا ولبثت فينـا مـن عمـرك سـنين " بمعنـى قدربينـاك ٠٠٠٠ " وهكذا وهو انشاء لفظا خبر معنى ٠

وثانيهما : "ان يطلـب إقـرار المخـاطب وتسـليمه بمـا يقـول المقـرر ، وحينذ يطلب له جواب ، ويكون إنشاء لفظا ومعنـى كمـا فـى قولـه سبحانه :" ألست بربكم ٠٠٠٠"؟ قالوا بلى ؟ ومنه قول جرير :–

ألستم خير من ركب المطايا

وأندى العالمين بطون راح

والضرب الثانى هو ما يقصده عبدالقاهر هنا ، والتقرير أحد المعـانى التى يخرج إليها الاستفهام عن حقيقته التى تعنى جهـل المسـتفهم بمـا يستفهم عنه ، وهذا ليـس قائمـا فـى التقريـر ، لأن غايتـه إمـا تحقيـق الأمر فى ذاته ، أو طلب الاقرار من المخاطب بما يريـده المسـتفهم لغرض من الأغراض كالحكم عليه باقراره أو التشهير به أو اظهاره للناس ، وقد يقرر بأمر ممدوح إظهارا للنعمـة علـى المقرر أو رفعـا لشأنه ، وبذلك يكون استعمال الاستفهام فى التقرير من قبيـل المجـاز المرسل أو منمستتبعات التراكيب ٠

أما عن موقـع المقـرر بـه فـى الاسـتفهام بـالهمزة فهـو بعدهـا مباشرة كما هو الشأن فى الاستفهام الحقيقى فتقول مثـلا لمـن تقـرره بالسـرقة : أسـرقت ؟ ولمـن تقـرره بالاهمـال فــى الواجـب : أفــى الواجب أهملت ؟ ومنه الآية الكريمة التى أوردها الشيخ فيه : " قالوا أأنت فعلت هـذا بالهتنـا يـاإبراهيم " لأن الغـرض التقريـر بالفـاعل لا

بالفعل ، لأن الفعل وهو تكسير الأصنام ظاهر موجود ، وإنما هم يريدون أن يقرروه بأنه الفاعل لا بالفعل وهم يعلمون أنه هو الفاعل بدليل قول بعضهم : سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم " جوابا عمن قال : من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين " وبدليل تهديد إبراهيم عليه السلام بتكسير الأصنام إن لم يستجيبوا لدعوته ، وذلك فى قوله :" وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين " وبهذا ظهر وجه كون الاستفهام هنا تقريريا ، لا حقيقيا كما ذهب إليه الخطيب القزوينى فى الايضاح [١] .

هذا وهناك فرق جوهرى بين تقديم الفاعل فى الآية الكريمة السابقة ، وتقديم الفعل فى غيرها فإذا قالوا مثلا : أفعلت هذا بآلهتنا ؟ كان الشك فى الفعل مع أن الفعل موجود مشاهد ولذلك قالوا أأنت فعلت ..." للدلالة على أن غرضهم التقريربأنه الفاعل لا التقرير بالفعل كما سبق ، وقس على هذا قولك لمن تقرره : أذكرتنى بسوء فى حضرة فلان ؟ وقولك : أأنت ذكرتنى بسوء فى حضرة فلان ؟ لأن الأول يعنى : التقرير بذكر السوء بعد العلم به سواء أكان من المخاطب أم من غيره ، وأما الثانى فيعنى التقرير بأنه هو لا غيره الذى ذكره بالسوء مع التسليم بحدوث ذكر السوء فى المجلس .... وهكذا .

ويلاحظ فى الآية الكريمة السابقة مخالفة الجواب للسؤال من حيث تقديم الفعل فى الجواب "بل فعله" وتقديم الفاعل فى السؤال " أأنت فعلت هذا " ولعل ذلك راجع إلى أن تقديم الفاعل فى الجواب ليطابق التقديم فى السؤال لا يجوز ، لأنه سيفيد إما التخصيص وإما التقوي ، وكلاهما غير مواد ، لان فاعل التكسير الحقيقى هو

---

[١] انظر بغية الايضاح ٤٥/٢ .

إبراهيم عليه السلام ، وإنما نسبه إلى كبيرهم تهكما به وبالمخاطبين أيضا ليلفت نظرهم إلى حماقتهم فيما يعبدون ، والله أعلم .

والتقرير قد يكون بالماضى كما سبق ، وقد يكون بالحال كقولك للمتلبس بالفعل : أتفعل كذا ؟ أو أأنت تفعل كذا ، وليس هناك ما يمنع من التقرير بالمستقبل كقولك لمن ينوى فعل شىء فى المستقبل : أتفعل كذا ؟

هذا وقد عدل بعضهم عن القول بأن المقرر به هو ما يلى الهمزة إلى القول بأن المقرر به هو ما يعلمه المتكلم ، سواء أكان واليا للهمزة أم لا ، لأن هناك أمورا مقررا بها لم تل الهمزة كما فى دخولها على النفى فى " ألست بربكم " ألم نشرح لك صدرك " ألم نربك فينا وليدا " وقول جرير السابق : ألستم خير من ركب المطايا .." وقد يقال إن الهمزة هنا داخله على النفى ، وهى أيضا للنفى ونفى النفى إثبات ، وبذلك تكون داخله على المقرر به وهو الإثبات لكن هناك استفهام تقريرى آخر لم يدخل على نفى ولا على المقرر به ، بل قد يكون المقرر به غير موجود فى الكلام أصلا ، كما فو قوله تعالى : " أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله قال سبحانك " والمقرر به هنا هو مقولة النصارى المذكورة لا قول عيسى عليه السلام ، وهذه المقولة وان كانت مذكورة فى الآية لكن نسبتها الصريحة إلى النصارى غير مذكورة ، وبذلك دخلت همزة التقرير على غير المقرر به ، فضلا عن كونه مذكورا فى الآية الكريمة ، وهذا يخالف القاعدة المشهورة فى إيلاء المقرر به الهمزة ، وبذلك تكون القاعدة أغلبية .

ولكنا نقول : إن الهمزة هنا وإن لم تدخل على المقرر بـه ، لكنها دخلت على مـا لـه أسـاس فـى فهـم المقـرر بـه ، وهـو ضـمير عيسى عليه السلام للدلالة علـى نفـى هـذا القـول عنـه بطريـق أبلـغ وأكد وما أشبهها فى ذلـك بدخولهـا – وهـى للإنكـار كمـا سـيأتى – على غير المنكر فى قوله تعالى :" قل آلذكرين حرم أم الأنثيين ٠٠" وقوله : " قل الله آذن لكم " كما سيأتى أيضا ، ذلك أن اتخـاذ عيسـى وأمه إلهين من دون الله ، مقولة ثابتة ، والمطلوب الاقرار بقائلها ، لأنه ليس هناك فعل بدون فاعل ، والفـاعل هنـا مـتردد بيـن عيسـى عليه السلام وبين النصارى ، فإذا قرر به عيسى عليـه السـلام فنفـاه على الوجه المذكور فى الآية ثبت هذا القول للنصارى بطريق أبلغ وآكد ، لانه يلزم مـن نفـى الإقـرار بقـول واقـع مـن مقرمعيـن ثبوتـه لغيره على وجه مؤكد ، لأن فاعل القول المقرر به متردد بين اثنيـن لا ثالث لهما ، فإذا نفاه أحدهما ثبت للآخر بطريـق اللـزوم ، وبذلـك كانت همزة التقرير هنا داخلة على ما له أساس فـى الإقـرار وإن لـم يكن هو المقرر به فى الحقيقة ٠ والله أعلم ٠

ثالثا : الاستفهام الإنكارى

والاسـتفهام الإنكـارى أيضـا مـن المعـانى التـى يخـرج إليهـا الاستفهام ، وهو ضربان :-
إنكارى تكذيبى وإنكارى توبيخى ، وكلاهما بمعنى النفى ، ولكنه إذا كان تكذيبيا كان بمعنى لم يكن فـى المـاضى ، وبمعنـى لا يكـون فـى المضارع ، وإذا كان توبيخيا كان بمعنى ما كان ينبغى أن يكون ذلك فى الماضى، أو لا يبنغى أن يكون فى المضارع ، وكثيرا ما يراد مع التقرير الانكار والتوبيخ ، ولذلك قال عبدالقاهر فى بعض الشواهد : إن الهمزة فيما مضى تقرير بفعل قد كان وإنكار لـه وتوبيـخ لفاعلـه

عليه ، وهذا كما فى قوله تعالى : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم " والأستفهام الإنكارى إنشاء لفظا خبر معنى ، واستعماله فى الإنكار مجاز مرسل ، أو من مستتبعات التراكيب .

أما عن موقع المنكر فى الاستفهام الإنكارى فإنه يلى همزة الإنكار فى الضربين ، أعنى التكذيبى والتوبيخى ، وسواء أكان المنكر الفعل أم الفاعل أم المفعول أم غير ذلك كما هوالشأن فى الاستفهام الحقيقى والتقريرى .

ومن شواهد الإنكار التكذيبى فى الماضى : أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا " بمعنى لم يكن ذلك ومنه فى المضارع قول امرئ القيس : –

أيقتلنى والمشر فى مضاجعى

ومسنونة زرق كأنياب أغوال

بمعنى لا يكون ذلك ، ومنه أيضا : أيرضى عنك فلان وأنت له معاند ؟ وقوله جل شأنه : " قل أرأيتم إن كنت على بينى من ربى وآتانى رحمة، من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون " والمنكر فى هذه الامثلة كلها هو الفعل ، ولذلك قدم ، أما إذا أريد إنكار الفاعل فإنه يقدم ليقع بعد الهمزة كما فى قولك : أأنت قلت هذا الشعر ؟ أى كذبت لأنك لا تستطيع أن تقوله ، وقولك : أأنت تمنعنى حقى ؟ تريد أن غيرك هوالذى يمنعنى حقى ، والمعنى فى المثال الأول : لم يكن ، لأنه فى الماضى ، وفىالثانى لا يكون لانه فى المضارع ، بمعنى أن غيرك هو الذى يستطيع ذلك .

لماذا يوجه الإنكار إلى الفاعل ؟

يوجه الانكار إلى الفاعل لأسباب ، منها :-
١- أن يكون عاجزا عن الفعل كما فى المثالين السابقين ٠
٢ - أن يكون أبعدهمة وأعلى شأنا من أن يفعل ذلك كما فى قولـك : أهو يرتشى ؟ أهو يسأل فلانا ؟ أهو يمنع الناس حقوقهم ؟ ٠
٣ - أن يكون أصغر همة من أن يفعل الفعل كقولـك : أهـو يسـمح بمثل ذلك ، أهو يرتاح للجميل ؟ أهو يعطـف علـى المسـاكين ؟ أهـو يبنى مدرسة ؟ أى هو أقل وأدنى من ذلك ٠

وتقول فى إنكار المفعول : أإيـاى تخدع ؟ أزيـدا تضـرب ، " أغير الله أتخذوليا " ؟ " أغير الله تدعون " ؟

إشكال وجوابه :

وههنا إشكال فى إيلاء المنكر همزة الإنكار فى " أغير الله أتخذ وليا " و " أغير الله تدعون " وأمثالهما مما ولى همزة الانكار كلمـة غير ، ذلك أن الانكار يتوجـه إلـى اختصـاص غير اللـه بالولايـة ، واختصاص غير الله بالدعـاء لان التقديم يفيد الاختصـاص ، وهـذا يعنى جواز الجمع بين الله وغيره فـى الولايـة ، وجـواز الجمـع بيـن الله وغيره فى الدعاء ، وكلاهما محظور ، ولذلـك ينبغـى أن يقـدر دخول همزة الانكار على الجملة قبـل التقديـم ، فيكـون المنكـر اتخـاذ غير الله وليا ، ودعوة غير الله ، ثم يقدر التقديم للاختصـاص بعـد ذلك فيكـون المـراد تخصيـص الانكـار باتخـاذ غـير اللـه وليـا ، وتخصيص الانكار بدعاء غير الله ، وعلى ذلك يكون هذا التعبير وما يماثله من تخصيص الانكار بشىء معين لامن إنكـار التخصـص بشىء معين ، كما ذكر السيد الشريف الجرجانى رحمه الله فى مثل ذلك ٠

ولاشك أن تقديم الفعل فى مثل هذه الاساليب يجعل المعنى مختلفا

ومن تقديم المفعول أيضا قوله تعالى " أبشرا منا واحد نتبعه " أى أن المنكر عندهم ليس هو الاتباع فى ذاته ، وإنما المنكر أن يكون المتبع بشرا بدليل قولهم فى موطن آخر :" إن أنتم إلا بشر مثلنا " وقولهم :" ما هذا إلا بشر مثلكم يريد إن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ".

صورة أخرى لإنكار الفعل بعد الهمزة :-

ما سبق كان إحدى صورتين لإنكار الفعل بعد الهمزة إنكارا تكذيبيا ، وهى التى ولى الفعل المنكر فيها الهمزة ، وهناك صورة أخرى لذلك لم يأت الفعل المراد إنكاره بعد الهمزة مباشرة ، وهى أبلغ من الأولى ، وضابطها : أن ينحصر فاعل الفعل المنكر أو مفعوله أو غيرهما من متعلقاته ، فى واحد أو أكثر فيؤتى به عقب الهمزة ليتسلط الإنكار عليه ويعطف عليه بأم إن كان له معادل فيدل ذلك على إنكار الفعل من باب أولى ، لأنه لو وجد فلن يكون له فاعل أو متعلق غير المذكور ، وبما أن ما ولى الهمزة لاعلاقة له بالفعل الذى ليس له فاعل أو متعلق سواه فإن الفعل ينتفى من باب أولى ، فإذا ادعى شخص أنه مبعوث لك من قبل محمد صديقك ، وأنت تعلم كذبه ، لأن محمدا صديقك لم يبعثه ، وليس هناك من يبعثه سواك فلك أن تنكر هذا البعث بقولك : أبعثك محمد إلى ؟ فتأتى بالفعل عقب همزة الإنكار مباشرة ، وهذه هى الصورة الأولى المعروفة ، أما الصورة الثانية وهى أبلغ منها فهى أن تقدم الفاعل ، فتقول : أمحمد بعثك إلى " فتأتى بها فى صورة التسليم بالفعل مع إنكار الفاعل ، وإذا توجه الانكار الى الفاعل الوحيد للفعل توجه الإنكار إلى الفعل من باب أولى ، لانه لا يوجد فعل من غير فاعل ،

ويكون الإنكار هنا من باب الكناية على طريق اللزوم وهى أبلغ من الحقيقة كما هو معروف ، لأنها تعطى المعنى مع الدليل عليه .

وكذلك أيضا إذا ادعى شخص زيارتك أمس ، وأنت تنكر ذلك عليه مكذبا فلك أن تقول أزرتنى أمس ؟ وهذه هى الصورة الأولى والأبلغ منها أن تقول أليلا زرتنى أم نهارا ؟ لأن الزيارة إذا وقعت فليس لها وقت إلا فى الليل أو فى النهار ، وإذا أنكرتها فيهما أنكرت وقوعها من باب أولى وبالدليل ، لأنه يستحيل أن يقع فعل فى غير زمن .

ومن هذا القبيل إنكار الفعل فى قوله تعالى " قل أرأيتهم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون " ومن الواضح أن الإنكار هنا متوجه إلى الفاعل لا الفعل ، وكأن المعنى أن هناك إذنا ، لكنه وقع من غير الله ، مع أنه ليس هناك إذن من أصله ، وانما سلك النظم الكريم هذه الصورة من التعبير ليدل على نفى الإذن بالطريق الأولى ، لأنه إذا كان هناك إذن فلن يكون إلا من الله ، وإذا كان الله لم يأذن ينتفى الإذن من أصله ، حيث يلزم من عدم صدور إذن من الله انتفاء الإذن من أصله ، لأنه لا فاعل له إلا الله .

ومن إنكار المفعول على هذه الطريقة أيضا قوله تعلى :" قل آلذ كرين حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين " لأنهم كانوا يحرمون أحيانا ذكور الأنعام وأحيانا إناثها ، وأحيانا ما فى بطون الاناث ذكورا أم إناثا أم مختلفة ، وينسبون ذلك الى الله ، مع أن الله سبحانه لم يحرم أيا منها ، ولذلك أنكر عليهم هذا التحريم بصورة أبلغ ، لأنه لو كان هناك تحريم فلن يكون إلا من الله سبحانه

، لأنه الفاعل الوحيد له ، وبما أن الله سبحانه لم يحرم أيا منها ، فيبقى التحريم بدون فاعل حقيقى ، وليس هناك فعل بدون فاعل ولذلك ينتفى التحريم من باب أولى ، وعلى طريق اللزوم فى الكناية أيضا .

وقس على ذلك فى نفى الفعل قولك : أأذنت لك ؟ أو أأنا أذنت لك ؟ إذا لم يكن هناك فاعل للإذن غيرك ، إلى غير ذلك من الأمثلة والشواهد المناظرة .

هذا وقد يقول قائل عن الإنكار التكذيبى فى قول امرئ القيس السابق :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى

ومسنونة زرق كأنياب أغوال

إن المقصود هنا إنكار الفاعل لا الفعل بدليل قوله قبل ذلك :

يغط غطيط البكر شد خناقه

ليقتلنى والمرء ليس بقتال[1]

وبذلك يكون قد ولى الهمزة فى الإنكار التكذيبى غير المنكر ، لكن هذا مردود لأن المقصود هو إنكار الفعل بدليل قول امرئ القيس فى البيت نفسه "والمشرفى مضاجعى ومسنونة رزق .." الخ ، وهذا يدل على أنه محصن بادوات القتال من القتل ، أى أن القتل غير ممكن ، وهو كاذب فيه لا أن المراد إنكار وقوع القتل من المتحدث عنه خاصة ، فيكون القتل ممكنا فى ذاته من غيره .

هذا ما يتعلق بشواهد وأمثلة الإنكار التكذيبى .

وأما الإنكار التوبيخى فكقولك فى الماضى : أقطعت رحمك؟ أعصيت ربك ؟ بمعنى ما كان ينبغى أن يكون ذلك ، لأنك توبخه فى

---

[1] غط البعير :هدر ، والبكر : الناقة أو الفتى منها

فعل قد وقع فى الماضى ، وكقولك فى المضارع : أتغرر بنفسك ؟ أتنسى قديم إحسان فلان ؟ أتذهب فى غير الطريق السوى ؟ بمعنى لا ينبغى أن يكون ذلك ، ولما كان الفعل هو المنكر هنا رايناه واقعا بعد الهمزة ، وأما إذا كان الانكار موجها إلى الفاعل أو أحد معلقات الفعل فإنه يقع بعد الهمزة كقولك : أأنت تظلم الناس ؟ أأباك تعق ؟ أفى الدرس تلهو؟ أفى المسجد تعبث ؟ .

هذا ومما تجدر الإشارة إليه أن التوبيخ يكون على فعل قد وقع ، أو على وشك الوقوع ، و"أما التكذيب فيكون لفعل لم يقع فى الماضى ، أو ادعى وقوعه فىالمستقبل مع أنه لن يقع .

واذا كان الاستفهام الانكارى بشقيه التكذيب والتوبيخ بمعنى النفى فهناك فرق كبير بين النفى الصريح والنفى الوارد على طريق الاستفهام الإنكارى ، لأنك فى الحالة الأخيرة لم تفد الغرض المقصود وهو التكذيب أو التوبيخ بالنص الصريح ، بل بالاستفهام الذى يستدعى جوابا من المخاطب فى الاصل ، فإذا رجع إلى نفسه ليجيب تنبه إلى كذبه أو إلى خطئه فيما ذهب اليه ، وكأنك بطريق الاستفهام قد انتزعت منه اعترافا بكذبه ، أو اعترافا بأحقيته للتوبيخ بخلاف ما إذا كذبتة أنت أو وبخته صراحة" ، ففى قولك مثلا لمن ادعى قول شعر معين : أأنت قلت هذا الشعر؟ فإذا سمع ذلك منك رجع إلى نفسه ، وعلم أنه كاذب فى ادعائه قول الشعر ، بخلاف ما لو قلت له صراحة : أنت لم تقل هذا الشعر ، لأنه من الممكن أن يجادل ويناور ، لكنك بالاستفهام تركته إلى نفسه يراجعها فى ذلك .

وكذلك إذا قلت لعاص ربه:ما كان ينبغى لك أن تعصى ربك ، لأن ذلك لا يؤثر فى توبيخه مثل التأثير بالاستفهام فى قولك : أعصيت ربك ؟ حيث يرجع إلى نفسه فيجده عاصيا ربه فيحس

التوبيخ والتأنيب ، وكأنك بذلك تنتزع منه اعترافا بذلك ، ولا شك أن الاتهام المباشر يكون مدعاة للإنكار والمراوغة بخلاف الاتهام غير المباشر الذى يوكل فيه المتهم إلى نفسه ، وعندما يراجعها يحس ما كان المستفهم يريده منه " وهكذا .

وفى هذا الاسلوب ، أعنى أسلوب الاستفهام مزية أخرى على النفى الصريح ، هى اشعاره بثقة المستفهم فى نفسه ، وأنه لن يجد تكذيبا أو ردا من المخاطب ، لأن كلامه وإن كان واردا فى صورة الاستفهام لكن المخاطب لن يجد جوابا فى نفسه عنه إلا الاعتراف بما يريده المستفهم من تكذيب أو توبيخ ، لأنك اذا قلت للمخاطب مباشرة : أنت لم تقل هذا الشعر ، أو ينبغى ألا تنسى قديم إحسان فلان أفدت غرضك من أول وهله ، مع أنه محل للجدال وعدم التسليم بما تقول ، لكنك إذا أتيت بالاستفهام أشعرت المخاطب بالخجل من نفسه ، لأنه عندما يرجع إليها سيصل بنفسه إلى ما تقول ، وبذلك كان أسلوب الاستفهام باعثا على ثقة المستفهم من الوصول إلى الغرض المقصود دون سواه من المخاطب ، فضلا عما يستشعره من خجل لما هو فيه .

<u>فرق أخر بين النفى بالاستفهام والنفى الصريح</u>

ذهب الإمام عبدالقاهر إلى أن هناك فرقا آخر بين النفى فى كلا النوعين ، ذلك أن النفى الصريح لا يقع فى المستحيلات ، وفيما لا يقول به عاقل ، فلا تقول مثلا لمن يحاول المستحيل فى فعل شئ : أنت لا تنقل الجبال ، ولكنك تقول بالاستفهام : أتنقل الجبال ؟ ولا تقول أيضا : أنت لا تصعد الى السماء ؟ لمن يحاول غير الممكن ، ولكنك تقول فى الاستفهام : أتصعد إلى السماء ؟ وهكذا .

وإنكار المستحيل فى النفى بالاستفهام يأتى على طريقة الاستعارة التمثيلية كمافى قوله سبحانه ": أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين " ولكن المتتبع للأساليب العربية يجد أن النفى الصريح والنفى بالاسفهام كليهما يأتيان فى المستحيلات دون فرق ، من ذلك فى النفى الصريح : إنك لا تجنى من الشوك العنب ، وقوله سبحانه :" وما أنت بمسمع من فى القبور "." إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء " .. هذا ، وكل هذه التراكيب واردة على سبيل الاستعارة التمثيلية فى النفى الصريح والنفى بالاستفهام دون فرق ، لأنه ما دام الأسلوب مجازا فليس هناك ما يمنع من أن يرد فى المستحيلات على سبيل التمثيل .

هذا ما يتعلق بأمر التقديم فى الاستفهام وقبل أن نطوى صفحته نشير إلى ما ذكره عبدالقاهر عن فضل أسلوب الاستفهام المستعمل فى غير معناه على المعنى المراد منه سواء أكان للتقرير أم للإنكار أم لغيرهما ، وهو ما يحمله معنى الاستفهام من التنبيه للمعنى المراد ، وأما المعنى المراد المتولد من الاستفهام فيفهم من السياق بطريق المجاز أو مستتبعات التراكيب .

ونتناول فيما يلى التقديم والتأخير فى الخبر ، وبالله التوفيق .

****

حكم التقديم فى الخبر

المسائل التى عرضها عبدالقاهر فى هذا الموضوع وردت على النحو التالى :-

المسألة الأولى :

الفرق بين تقديم الاسم الذى هو فاعل فى المعنى على الفعل ، وتقديم الفعل عليه ، وله ثلاث صور :

أ – أن يكون المسند إليه المقدم معرفة ضميرا أو علما مسبوقا بنفى كما فى قولك : ما أنا فعلت كذا **أو ما زيد** فعل كذا .

ب – أن يكون المسند إليه المقدم ضميرا أو علما ليس مسبوقا بنفى ولا ملحوقا به كما فى قولك : أنا فعلت **كذا** – زيد فعل كذا .

جـ – أن يتأخر النفى عن المسند إليه المتقدم كما فى قولك : أنت لا تحسن كذا – أنا لا أفعل كذا ، أو زيد لا يفعل كذا .

المسألة الثانية : تقديم المفعول أو سائر المتعلقات على الفعل ، أو تقديم الفعل عليها .

المسألة الثالثة : التقديم فى مثل وغير .

وفيما يلى خلاصة لهذه المسائل :-

المسألة الأولى (أ)

اذا قلت : ما أنا فعلت كذا ، أو ما أنا ضربت محمدا أفاد التقديم الاختصاص قطعا عند عبدالقاهر بمعنى قصر نفى الفعل على الضمير المتقدم وإثباته لغيره للرد على من أثبته للمتكلم دون غيره فيكون قصر قلب ، أو جعل المتكلم شريكا لغيره فيه فيكون قصر إفراد ، أو ردد نفى الفعل بينهما فيكو قصر تعيين على حسب المقام الذى يقال فيه ، ومنه قول الشاعر :

وما أنا أسقمت جسمى به

ولا أنا أضرمت فى القلب نارا

وقول الآخر : وما أنا وحدى قلت ذا الشعر كله

ولكن لشعرى فيك من نفسه شعر

لكن إذا قدمت الفعل فى مثل ذلك فقلت : ما قلت أنا هذا أو ما فعلت أنا كذا لم يفد هذا التركيب القصر ، وإنما أفاد مجرد نفى الفعل عن المتكلم دون تعرض لغيره باثبات أو نفى ، والدليل على الفرق فى المعنى بين تقديم الفاعل أو تقديم الفعل ما يلى : -

١ - يجوز أن تقول : ما قلت شعرا - ما أكلت اليوم شيئا ، ما رأيت اليوم أحدا،ولا يجوز أن تقول ذلك مع التقديم لافضائه الى المحال ، لأنك اذا قلت : ما أنا قلت شعرا أو ما "انا أكلت اليوم شيئا ، أو ما أنا رأيت اليوم أحدا كان الإثبات المقابل للنفى على طريق التخصيص أن هناك من قال كل الشعر ، أو أكل كل ما يؤكل ، أو رأى كل واحد فىالدينا ، وهذا محال ، ولا يخفى أن هذه النكرات فى الأمثلة الثلاثة واقعة فى سياق النفى فتفيد العموم ، ويكون إثباتها للغير على الوجه الذى نفيت عليه عن المتكلم ، ومن المعلوم أن طبيعة اسلوب القصرأن يتضمن نفيا وإثباتا ، فاذا صرح فيه بالنفى

كان الاثبات متضمنا ، وإذا صرح فيه بالاثبات دون النفى كأسلوب التقديم كان النفى متضمنا أيضا.

٢ – يصح لك أن تقول فى غير تقديم المسند إليه الذى هو فاعل فى المعنى : ما قلت هذا ولا قاله أحد من الناس ، كما يصح أن تقول : ما ضربت زيدا ولا ضربه أحد غيرى ، ولكن لا يصح فى تقديم الفاعل هذين المثالين لأن نفى القول فى الأول عن التكلم خاصة يعنى ثبوته لغيره فيكون فى قوله بعد ذلك : ولا قاله أحد من الناس تناقض ، وكذلك الحال فى المثال الثانى .

كذلك يلزم على التقديم بثوت فعل من غير فاعل فى المثالين ، لأن تقديم المسند إليه يعنى أن القول أو الضرب ثابتان ، فاذا نفاه المتكلم عن نفسه ثبت لغيره ، فاذا نفاه عن الغير أيضا كان هناك قول ثابت أو ضرب ثابت دون أن يكون هناك قائل أو ضارب ، وهذا محال .

٣– يصح ما ضربت إلا زيدا ولا يصح ما أنا ضربت إلا زيدا لوجهين : أولهما أن الاختصاص بالتقديم فى الثانى علىالنحو المذكور يقتضى أن هناك إنسانا آخر غير المتكلم قد ضرب كل الناس ما عدا زيدا ، وهذا محال ، أما الوجه الثانى فهو أن التقديم فى قولك : ما أنا ضربت يشعر بنفى الضرب عن المتكلم خاصة، وقولك (إلا زيدا) يشعر بثبوت الضرب ، وهذا تناقض .

وبذلك أثبت الشيخ الفرق الجوهرى بين تقديم المسند إليه الذى هو فاعل فىالمعنى على المسند إذا كان مسبوقا بنفى وبين تأخيره ، وأن كانت هذه قاعدة أغلبية ، لأنه ورد فى القرآن الكريم المسند إليه مقدما على النحو السابق دون إفادة القصر كما فى قوله تعالى :" لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوهم النار ولا عن

ظهورهم ولاهم يستعتبون" بل تاتيهم بغته فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون " لأن عدم الانظار ليس مقصورا عليهم دون سواهم ، إذ لا أحد يُنظَر عند قيام الساعة .

المسألة الأولي (ب)

أما إذا تقدم المسند إليه على الخبر الفعلى دون أن يسبقه أو يلحقه نفى فإن التقديم هنا يفيد الاهتمام على وجهين :-

أحدهما : القصر وثانيهما : تقوية الحكم ، والذى يرجح أحدهما دون الآخر هو المقام ، ومن القصر بالتقديم على هذا الوجه قولك : أنا كتبت فى معنى فلان ، أو أنا سعيت فى حاجتك ، اذا أردت أنه لم يصنع ذلك سواك ردا على من اعتقد ذلك أو اعتقد الشركة . أو ردد الأمر بينه وبينك ليكون قصر قلب أو افراد أو تعيين كما سبق ، ومن إفادة التقوية بهذا الأسلوب قولك : هو يعطى الجزيل ، هو يحب الثناء ، ومنه قول الشاعر : -

هم يفرشون اللبد كل طمرة
وأجرد سباح يبذ المغاليا [١]

وقوله : -

هم يضربون الكبش يبرق ببضه
على وجهه من الدماء سبائب [٢]

---

[١] اللبد : المتلبد من الصوف أو الشعر ، والطمرة : الفرس الكريمة ، والأجرد : قصير الشعر ، والسباح الذى يشبه مشبه السباحة فى اللين والسلاسة ، والمغالى : المبالغ فى عدوه ، ويبذ : يسبق

[٢] الكبش : رئيس القوم ، والبيضة : الخوذة ، والسبائب : الطرائق .

وقوله :-

سليمى أزمعت بينا ٠٠ فأين تقولها أينا

وقوله :-

هما يلسان المجد أحسن لبسة

شحيحان ما اسطاعا عليه كلاهما

وقوله جل شأنه : واتخذوا من دون الله آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون " وقوله أيضا : " وإذا جاءوكم قالو أمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به " والمتأمل لتقديم المسند اليه على الخبر الفعلى فى هذه الشواهد يجده لتقوية الحكم وتوكيده لاستدعاء المقام ذلك دون القصر ٠

السر في إفادة التوكيد في هذه الصورة :

أن الاسم عندما يذكر فى البداية معرى عن العوامل لا يأتى كذلك إلا والقصد إلى حديث نوى إسناده إليه ، كما أنه بهذه الصورة يهيئ الأذهان لما سيذكر بعده ، فإذا ما ذكر بعده ما يصلح أن يسند إليه صرفه إلى نفسه ، فيستقر فى الذهن تمام الاستقرار ، كما هو الحال فى الاضمار قبل التفسير فى قوله تعالى :" إنه لا يفلح الكافرون " وقوله جل شأنه " فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور " ٠

لكن قد يعترض على هذا التعليل بأنه ينطبق عليه الإخبار عن المبتدأ بخير ليس فعليا كقولك مثلا : زيد إنسان ، لأنك تهيئ الذهن بقولك : زيد أولا قبل ذكر إنسان إلى ما سيذكر بعده ، فأذا ما ذكر صرفه المبتدأ إليه علىالنحو السابق ٠

فهذه علة عامة يمكن أن يشترك فيها خبر ليس فعليا كما سبق ولكن التعليل الخاص هنا للتقوية والتوكيد يتحقق فى الخبر الفعلى كما فى قولك : زيد قام مثلا ، لأنه فضلاعن العلة السابقة

نجد فيه أيضا تكريرا للإسناد ، وذلك باسناد القيام أولا إلى زيد المذكور مقدما باعتباره خبرا عنه ، ثم إسناده مرة أخرى إلى ضميره المستتر ، وكأنك قلت : قام زيد قام زيد ، وبذلك ينصرف الخبر إلى المبتدأ مرتين ، مرة باعتباره خبرا ، ومرة باعتبار اشتماله على ضمير المبتدأ ٠

هذا التعليل الذى ذكره عبدالقاهر مستقى مما ذكره صاحب الكتاب فى تقديم المفعول ، ثم رفعه لشغل العامل فيه من بعده بضميره كما فى قولك : عبدالله ضربته ، يقول الإمام :" وهذا الذى ذكرت من أن تقديم المحدث عنه يفيد التنبيه له قد ذكره صاحب الكتاب فىالمفعول إذا قدم فرفع بالابتداء ، وبنى الفعل الذى كان ناصبا له عليه ، وعدى إلى ضميره فشغل به كقولنا فى : ضربت عبدالله: عبدالله ضربته ، وإنما قلت : عبدالله .. فنبهته له ، ثم بنيت عليه الفعل ورفعته بالابتداء ."[1]

ثم استدل الشيخ بعد ذلك على إفادة مثل هذا التركيب التقوية بالمقامات التى تستدعيه ، وهى كلها تقتضى توكيد الحكم ، وقد ذكر منها سبعة هى : -

١- سبق إنكار منكر كما فى قوله تعالى :" ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون " لأن الكاذب لا يعترف بأنه كاذب ولا سيما فى الدين ، ولذلك يمتنع عن الاعتراف بالعلم بأنه كاذب ، ومن هنا كان توكيد العلم بكذبه ٠

٢- فيما عرض فيه شك كأن تقول لآخر : كأنك لا تدرى بما صنع فلان ، فيقول : أنا أعلم بما صنع ، فيمحو شكك فى علمك به عن طريق هذا التقديم ٠

---

[1] دلائل الإعجاز ١٦٧ ٠

٣- فى تكذيب مدع كما فى قوله تعالى :" واذا جاءوكم قالوا آمنا ، وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به لأن قولهم : آمنا يفيد أنهم لم يخرجوا بالكفر كما دخلوا به ، ولكن الواقع أنهم خرجوا به كما دخلوا به .

٤ – فيما يقتضى الدليل ألا يكون كما فى قوله تعالى :" والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون " لتوكيد الدلالة على خلقهم المقتضى لنفى الألوهية عنهم .

٥ – فيما يستغرب أمره كقولك : ألا تعجب من فلان ؟ يدعى الأمر الخطير ، وهو يعيا باليسير ، أو ألا تعجب من فلان يدعى أنه يصرع الأسد ، وهو يخاف من الهرة مثلا ، وكما فى قول النحاة : بقرة تكلمت .

٦ – فى الوعد والضمان كما فى قولك لمن سألك : أنا أعطيك ، أنا أكفيك ، لأن من شأن الموعود بشئ أن يعترضه شك فى الوفاء بالموعود به .

٧ – فى المدح والفخر ، كما فى قولك : هو يعطى الجزيل وقول الشاعر :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى
لا ترى الآدب فينا ينتقر [١]

كما استدل الامام على إفادة مثل هذا الأسلوب للتوكيد أنه فى غير التوكيد يؤتى بالفعل مقدما كما فى قولك : قد خرج دون هو خرج ، وتقول : ركب دون هو ركب .

المسألة الأولى(حـ)

وهى تقديم المسند إليه المعرفة على الخبر الفعلى مع تأخير النفى عن المسند إليه كما فى قولك أنت لا تحسن كذا ، أو محمد لا

[١] انظر دلائل الاعجاز ١٦٧ شرح وتعليق محمد عبالمنعم خفاجى ، ودراسات فى علم المعانى للمؤلف ٨٢ .

يحسن كـذا ، وهـى تحتمـل وجهيـن ، كسـابقتها : القصـر أو التوكيـد والتقوية حسب المقام وقولك : أنت لا تحسن كذا أشد لنفـى الاحسـان من قولك : لا تحسن كـذا ، ومـن قولـك أيضـا : لا تحسـن أنـت كـذا لتكرر الاسناد فى الاول دون الأخيرين ، أما ذكر الضمير فى الثالث فهو لتوكيد المسند إليه المستتر فى الفعل ، لا لتوكيد الإسناد ، ولذلـك لا يقال الأسلوب الأول إلا فى معرض الرد علـى المغـرور بنفسـه ، ومن شواهد إفادته التقوية والتوكيد قوله تعالى :" والذين هـم بربهـم لا يشركون " ولقد حق القول على أكـثرهم فهـم لا يؤمنـون " فعميـت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون" " ان شر الدواب عند الله الذيـن كفروا فهم لا يؤمنون " ٠

<u>المسألة الثانية :-</u>

تقديم المفعول ونحوه :

يفيد هذا التقديم القصر غالبا كما فـى قولـك : زيـدا ضربـت ، ومثـل هذا التركيب يفيد ثلاثة أمور :-

١- وقوع الضرب وثبوته ٠

٢- وقوعه على زيد وحده ٠

٣- نفيه عن غيره ٠

ولذلك لا يصح أن تقول : زيدا ضربت وغيره لتناقضـه مـع مقتضى القصر ، لكن يصح أن تقول : ضربـت زيـدا وغيره بـدون تقديم ، وإذا قلت : مازيدا ضربت أفاد أيضا ثلاثة أمور :-

١ - ثبوت ضرب واقع ٠

٢ - نفيه عن زيد وحده

٣ - وقوعه على غيره ٠

ولذلك لا يصح أن تقول : مازيدا ضربت ولا غـيره لتناقضـه مع مقتضى القصر ، لأن تقديم المفعول فى النفى يفيد نفـى الضـرب

عن زيد وثبوته لغيره ، وقولك : ولا غيره يتناقض مع ذلك ، ويصح هذا التركيب بدون تقديم فى قولك : ماضربت زيدا ولا غيره ، لصحة أن تنفى الضرب عن زيد وعن غيره بدون اختصاص .

ومثل المفعول فى ذلك سائر المتعلقات من حيث إفادتها القصر غالبا عند التقديم ، فتقول فى الاثبات مثلا : بهذا أمرتك ، ويوم الجمعة قدمت وفى المسجد صليت ، وراكبا قدمت واحتراما لأستاذى وقفت .. وهكذا وكل مثال من ذلك يفيد ثلاثة أمور على النحو السابق .

وتقول فى النفى : ما بهذا أمرتك ، فيفيد قصر النفى على المأمور به وهو المشار اليه دون سواه ، أى أنه حدث منك أمر ، وارتبط هذا الأمر بمشار إليه معين ، ونفى عن المشار إليه المذكور دون سواه والمقصود من التركيب أن المتكلم أمر المخاطب بأمر معين ، لكن المخاطب فعل سواه ، ونفى الأمر عن المشار اليه المذكور يفيد ثبوته لغيره ، ولذلك لا يصح أن تقول : ما بهذا أمرتك ولا بغيره ، ولكن يصح مع عدم التقديم فتقول : ما أمرتك بهذا ولا بغيره .

هذا وقد يفيد تقديم المفعول أو غيره من المتعلقات غير القصر كالمحافظة على الوزن أو السجع ، أو لعدم اقتضاء المقام ذلك كما فى قوله تعالى :" وإن عليكم لحافظين "

المسألة الثالثة

التقديم فى مثل وغير

تأتى مثل وغير فى الأساليب على وجهين :-

أحدهما :

القصد إلى المعنى الظاهر من العبارة ، وهو الحكم على المماثل أو المغاير لما أضيف أليه كل منهما كما فى قول الموظف الذى يشعر

بالغبن فى مرتبة الشهرى إذا ما قيس بنظيره : مثلى يتقاضى مرتبا مقداره كذا ، وكقول امرئ القيس :-

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع
فألهيتها عن ذى تمائم محول [١]

لأنه يريد امرأة حقيقية أخرى مماثلة لها
وكقول النابغة فى (غير) :-

غيرى جنى وأنا المعاقب فيكم
فكأننى سبابة المتندم
لكلفتنى ذنب امرئ وتركته
كذى العر يكوى غيره وهو راتع

والمقصود هنا إثبات جناية غيره مع وقوع عقاب الجناية عليه هو دون ذلك الغير، وهذا الوجه ليس هو المقصود هنا فى التقديم والتأخير •

ثانيهما : ألا يراد بهما هذا المعنى الحقيقى الظاهر ، وإنما يراد بهما إثبات الحكم لما أضيف إليه كل منهما لا غيره ولا مماثله كما فى الوجه الأول ، ويكون ذلك بطريق الكناية كما فى قولك ما دحا لمخاطبك : مثلك يرعى الود والحرمة ، تريده هو لا مماثلا له ، ولذلك يقول المتنبى : -

ولم أقل مثلك أعنى به   سواك يافردا بلامشبه

ومنه قولهم :

مثلك لا يبخل ، وغيرك لا يجود ، والمراد نفى البخل عن المخاطب ، ونفى الجود عن غيره ليثبت له الجود بطريق أبلغ •
ومن هذا القبيل قول الشاعر :-

---

[١] المحول : من أكمل الحول •

مثلك يثنى الحزن عن صوبه

ويسترد الدمع عن غربه[1]

ومنه قول القبعثرى لما قال له الحجاج متوعدا : لاحملنك على الأدهم ،: مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب ، على طريق الأسلوب الحكيم ، ومن الواضح أنه يريد به الحجاج نفسه ومنه فى غير قول المتنبى :-

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع

إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

وقول أبى تمام :-

وغيرى يأكل المعروف سحتا

وتشحب عنده بيض الأيادى

هذا ويجب تقديم مثل وغير فى العبارة اذا قصد بهما المعنى الكنائى ، وهوإثبات الحكم لما أضيف اليه كل منهما بطريق أبلغ ، وهو الكناية ، ووجه ذلك فى غير أنه اذا أثبت لغيره حكما فإنه ينفيه عن نفسه بطريق اللزوم ، فاذا قلت : غيرى ينخدع ، فقد نفيت الخداع عن نفسك ، لأن الخداع صفة وجودية متحققة فى الخارج ويلزم من إثباتها لغيرك نفيها عن نفسك ، وإذا قلت : مثلك لا يبخل ، فقد نفيت البخل عن المخاطب أيضا بطريق اللزوم لأنه إذا كان من هو على أخص صفاتك ، وهو المماثل لك لا يبخل ، فأنت لا تبخل من باب أولى ، والكناية هنا كناية عن نسبة لأنها قائمة على إثبات الحكم أو نفيه عن المخاطب ، وانما جعل تقديمهما هنا كاللازم ، وليس بلازم ، لأن تأخيرهما تجيزه القواعد النحوية ، وإن كان يجافيه الذوق البلاغى ، ولذلك كان التقديم لازما بلاغة وكاللازم صناعة .

---

[1] الصوب : القصد ، والغرب : مجرى الدمع .

اعتراض وجوابه :

قد يقال : إن المعنى الكنائى الذى قامت عليه بلاغة هذا الأسلوب حاصل أيضا بالتأخير كما فى قولك : يرعى الود مثلك ، ولا يجود غيرك ، لكن هذا مردود من وجهين : أولهما : أن مبنى الطباع ، وما هو مركوز فيها على استعمال هذين اللفظين إذا أريد بهما المعنى الكنائى مقدمين ، وثانيهما : أن التقديم فيه تقوية الحكم وتأكيده ، لانه تقديم على الخبر الفعلى الذى يقتضى إسناد الفعل الى الفاعل مرتين كما سبق ، ومن أجل اختصاص مثل وغير ببعض الخصوصيات فى التقديم أفردهما الإمام بالذكر كما هو واضح مما سبق .

هذا وقد أكد الشيخ عبدالقاهر على أن تقديم الاسم على الفعل فى الخبر يختلف عن تقديم الفعل على الاسم فيه كما اختلف أيضا فى الاستفهام ، فاذا كان المستفهم عنه مجرد بثوت الفعل للفاعل أو نفيه عنه قلت : أقام زيد ؟ واذا كان المستفهم عنه اختصاص زيد بالقيام دون سواه قدمت الاسم فقلت : أزيد قام ؟ ولا يصلح فى الجواب فى الحالين إلا ما يكون على وفق السؤال ، لأن الاستفهام استخبار ، أى طلب خبر يوافق السؤال ، ومن هنا كان من اللازم مطابقة الجواب للسؤال ، فإذا قيل أزيد قام ؟ كان المطلوب بالسؤال تعيين من ثبت له القيام دون سواه ، واذا كان الجواب : زيد قام لا يفيد اختصاص زيد بالقيام دون سواه ، كان الجواب غير مطابق للسؤال ، ولذا كان الخبر مفيدا ما أفاده الاستفهام من حيث مجرد إثبات الفعل للفاعل أو نفيه عنه عند تقديم الفعل فى الخبر كالاستفهام فى مثل قولك : أقام زيد ؟ وقام زيد ، وقصر الفعل على الفاعل دون

سواه فى الاستفهام والخبر فى قولك : أزيد قام ؟ وزيد قام ، فدل هذا على أن التقديم فى الخبر كالتقديم فى الاستفهام .

التقديم والتأخير فى النكرة

أما تقديم النكرة على الفعل أو تأخيرها عنه فى الاستفهام والخبر فإن الأمر لا يختلف كثيرا عما سبق سوى ما يرتبط بطبيعة دلاله النكرة فى بعض المسائل ، كما سنوضح فيما يلى :-

أولا : فى الاستفهام : إذا قلت : أجاءك رجل ؟ بتقديم الفعل كان المشكوك فيه هو الفعل لا الفاعل على نحو ما سبق فى تقديم الفعل مع المعرفة ، وكذلك إذا قدمت النكرة فقلت : أرجل جاءك ؟ حيث يفيد تقديم النكرة الشك فى الجائى دون المجئ فى ذاته ، ولا تختلف النكرة عن المعرفة فى هذا ، لكن هناك فرقا من جهة أخرى بينهما ، وهو أن قولك : فى المعرفة : أزيد جاءك ؟ يكون الاستفهام فيه عن اختصاص زيد بالمجئ دون سواه ، وأما فى النكرة فلعدم دلالتها على معين لا يصح فيها هذا المعنى ، وانما يكون الاختصاص هنا مرتبطا بطبيعة دلالتها على الجنس والعدد ولذلك كان الاستفهام فى : أرجل جاءك ؟ عن اختصاص واحد من الرجال دون سواه بالمجئ ، أو اختصاص رجل بالمجئ دون امرأة .

ثانيا : كذلك الحال فى الخبر ، فاذا قلت جاءنى رجل دل ذلك على ثبوت الفعل للفاعل ، واذا قلت رجل جاءنى دل ذلك على قصر المجئ على رجل ، فالنكرة والمعرفة سواء فى هذا التقديم والتأخير ، والفرق بينهما فى طبيعة الاختصاص فقط ، وهو أن قولك : زيد جاءنى يدل على قصر المجئ على زيد دون سواه ، وأما قولك : رجل جاءنى فيدل على قصر المجئ على رجل دون رجلين أو ثلاثه ، أو قصر المجئ على رجل دون امرأة كما سبق فى بيان طبيعة

دلالة النكرة من أن المقصود بها الدلالة على الجنس أو العدد واحدا أو اثنين أو ثلاثة ٠

ومن شواهد القصر على الجنس قولهم: شر أهر ذاناب "لأن المقصود قصر هرير ذى الناب على الشر دون الخير ، فهو بمعنى : ما أهر ذا ناب الا شر ، ولما كان معنى القصر ملحوظا فى المبتدأ النكرة ساغ الابتداء بها ، لأن القصر من مسوغات الابتداء بالنكرة ، ولا يسوغ أن يراد بالنكرة هنا العدد بأن يقال أن الذى أهر ذاناب هو شر لاشران ، لأن ذلك يضعف من قيمة الشر اذا لوحظ فيه العدد لأنه مادام شرا واحدا أهر ذاناب فلا يستحق احتفالا كبيرا بدفعه ، مع أن المثل يراد به التهويل منه لأخذ الحيطة والحذر تجاهه ٠

وقد اعترض السكاكى على عبدالقاهر فى اعتبار هذا المثال من قصر الجنس ، بمعنى أن المهر لذى الناب شر لا خير لأنه لا يكون إلا شرا فكيف يقال : إنه شر لا خير ؟ وبذلك يكون القصر لا قيمة له ، حيث لم يرد على منكر ، ولذلك يرى أن المسوغ للابتداء بالنكرة هنا هو الوصف الملحوظ من التنكير ، وهو التفظيع ، وكأنه قيل : شر مهول أو شر فظيع أهر ذاناب ، فالتخصيص نوعى لاجنسى باعتبار الصفة الملحوظة من التنوين ٠

وبعد

فهذه خلاصة لما أورده الشيخ عبدالقاهر فى التقديم والتأخير ، وما فصله من بعده بعض الشراح ، آمل أن تفى بالغرض من هذا الباب الجليل من أبواب البلاغة ٠

والله الموفــــق ،،،

القســــم الثــــانـــى

علــــم البـــديــــع

مقـــدمــــــة:

البديع ثالث علوم البلاغة بعد علمى المعانى والبيان ، وكان البديع منذ نشأته الأولى غير محدد المصطلحات والمعالم فى أشعار الشعراء وكتابات الكتاب كشأن غيره من المباحث الأولى فى علمى المعانى والبيان ولايعنى عدم وضع مصطلحات له عدم عناية الشعراء به ، بل نجده قد ورد كثيرا عند الشعراء ، وبخاصةشعراء العصر العباسى كبشار وأبى نواس ومسلم بن الوليد وغيرهم ، ولم يكن هذا النوع من الفن البلاغىجديدا عليهم لانه ورد فى شعر القدماء أيضا ونثرهم فى العصر الجاهلى ومـاتلاه ، كما وردت منه أنواع كثيرة فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف.

وكان للجاحظ دور كبير فى إبراز بعض الألوان البديعية ، وخاصة السجع فى كتابيه إعجاز القرآن والبيان والتبين ، فأبرز المستحسن منه والمستكره ثم توالى من بعده الأدباء والكتاب الذين توفروا على مباحث البديع على نحو ماورد فى القرآن الكريم ، وإن اختلطت هذه المباحث عندهم بمباحث بلاغية أخرى فى علمى المعانى والبيان ، ولذلك أطلق هذا المصطلح عندهم على بعض الألوان البديعية المعروفة وبعض المباحث البلاغية الآخرى من العلمين الآخرين ، وذلك على نحو مانجده فى كتاب البديع لابن المعتز الذى يعد أول من دون كثيرا من قواعد هذا العلم ثم توالت الكتابات فيه من بعده عند قدامة بن جعفر وأبى هلال العسكرى وابن رشيق وغيرهم ممن ازدادت الأبواب البديعية عندهم زيادات كثيرة

مما يدل على اهتمامهم بهذا الفن البلاغي ، وإن كانوا أدخلوا فيه بعض المباحث الأخرى التى لم تدخل عند المتأخرين فى مباحث البديع كالتشبيه والاستعارة وغيرهما.

أما انفصال هذه العلوم الثلاثة عن بعضها فقد تم على أيدى بعض المتأخرين كبدر الدين بن مالك فى كتابه المصباح ، والسكاكى فى كتابه مفتاح العلوم ، وأخذ الشراح بعد ذلك وأصحاب الحواشى والتقريرات يتناولون مباحث البديع مبحثا مبحثا بالشرح والتحليل.

وسنتناول فيما يلى مباحث هذا العلم لنقف على قضاياها من جهة ولنبرز منزلة هذا العلم فى الكلام بصفة عامة ، ومنزلتها فى حسن الأساليب بصفة خاصة ونبدأ بالتعريف بهذا العلم.وبالله التوفيق.

البديع فى اللغة : الشيء الجديد المخترع الذى ليس له مثال سابق ، تقول : فلان مبدع فى قوله أو فعله ، بمعنى أنه منفرد فيما يأتى به من قول أو فعل ومنه : بديع السموات والأرض : أى خالقهما على غير مثال سابق ، والبديع من أسماء الله تعالى : لانه ـ سبحانه ـ لانظير له ولاشبيه.

وأما المقصود به عند البلاغيين فهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال ووضوح الدلالة على المعنى المراد.

ويلاحظ فى تعريفهم لهذا العلم أن قيمة علم البديع تأتى فى المرتبة الثالثة بعد منزلة علمى المعانى والبيان ، ذلك أن علم المعانى ، هو العلم الذى يعرف به كيفية مطابقة الكلام لمقتضى الحال وأما علم البيان ، فهو العلم الذى يعرف به كيفية ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه ، وهذا يعنى أن تحسين الكلام بأى وجه من وجوه التحسين الواردة فى علم البديع لايكون مقبولا الابعد أن يكون الكلام أصلا مطابقا لمقتضى الحال ، أى موافقا

للغرض الذى استدعاه مع فصاحته ، ولذلك لايكون هذا الحسن مقبولا إلابعد أن يكون الكلام واضح الدلالة على المعنى المراد ، سواء أكانت الدلالة بطريق التشبيه أم الاستعارة أم الكناية أما اذا كان الكلام غير مطابق لمقتضى الحال الذى استدعاه ، أو كان غير واضح الدلالة على المعنى المراد فإن المحسن البديعى بعد ذلك لايكون مقبولا ، ولذلك شبهه البلاغيون بمعلق در على خنزير.

ولايعنى هذا أن هناك فصلا حادا بين العلوم الثلاثة ، لأنها تتكامل جميعا في الوفاءبالغرض من الكلام ، فالنص الواحد مثلا قد يشتمل على بعض مباحث علم المعانى التى يطابق بها مقتضى الحال كما قد يتخلل هذه المباحث بعض أساليب التشبيه أو المجاز أو الكناية لتحقيق الغرض المقصود من النص ، ويتعاون مع هذين العلمين فى الوفاء بالغرض اشتماله على بعض المحسنات البديعية التى تكسبه حسنا وبهاء يجعله أقوى تأثيرا وأدعى قبولا وأكثر ارتياحا فى النفس.

بل إن الوفاء بالغرض من الكلام قد يتوقف تحقيقه على محسن بديعى معين لايتم بدونه كالطباق مثلا فى قوله جل شأنه : **(قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير)** والمقام هنا الذى استدعى هذا التعبير هو إبراز طلاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى فى الخلق ، فيؤتى وينزع ، ويعز ويذل ، ولاشك أن للطباق الوارد فى الآية دورا أساسيا ومهما فى الوفاء بهذا الغرض.

وخذ أيضا شاهدا آخر على دور المحسن البديعى فى الوفاء بالغرض المقصود وليكن من أسلوب التقسيم ، وذلك فى قوله تعالى **(لله ملك السموات والأرض يخلق مايشاء يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء**

عقيما انه عليم قدير) ذلك أن الغرض بيان حال العباد بالنسبة للانجاب وعدمه ، والذى يدل على ملكية الحق لكل مافى السموات والأرض ، ولذلك كانت قدرته مطلقة فى خلق مايشاء على النحو الوارد فى الآية الكريمة التى استوفت أحوال العباد فى هذه الظاهرة ، فهى لاتخلو من إنجاب أو عدم إنجاب ، والمولود إما أن يكون أنثى ، وإما أن يكون ذكرا ، فقد يخص الله تعالى بعض خلقه بإنجاب الاناث فقط ، ويخص البعض الآخر بإنجاب الذكور فقط ، وقد يخص البعض الثالث بإنجاب الذكور والاناث ، وفى مقابل ذلك يجعل من يشاء عقيما ، ولايخلو حال الناس فىالانجاب من هذه الأحوال التى ذكرتها الآية ، واستوفى بها التقسيم هذه الأحوال الدالة على الملكية المطلقة فى الخلق المرتبط بهذه الظاهرة ، ومن الواضح أن أسلوب التقسيم قد وفى بالغرض المقصود على الوجه الأمثل ولايغنى أسلوب آخر سواه فى تحقيق المراد، وكل ذلك من منطلق علم الله الشامل بما يصلح خلقه ، وقدرته البالغة فى تحقيق المراد على وفق هذا العلم ، ولذلك ختمت الآية الثانية **بقوله سبحانه (انه عليم قدير)** .

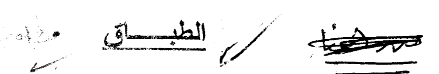
وهكذا من يتدبر مواقع مباحث البديع يجد لها أثرا واضحا ـ فى الأعم الأغلب ـ فوق تحسين الكلام ، حتى ان المحسنات اللفظية التى يرتبط التحسين فيها أولا وبالذات بالألفاظ لاتخلو من علاقة وثيقة بالوفاء بالمقام ، كما سيأتى فى بعض التطبيقات للسجع أو الفاصلة القرآنية

ونبدأ الآن فى عرض طائفة من ألوان البديع فى المحسنات المعنوية أو اللفظية لنقف على آثارها فى الأساليب بعد التصور لمفاهيمها ونبدأ حديثنا بالمحسنات المعنوية ،

وبالله التوفيق

المحسنات المعنوية

المقصود بالمحسنات المعنوية هو مايرجع التحسين فيها الى المعنى أولا ، وإن كان ذلك لايخلو من تحسين اللفظ أيضا كالطباق فى : (**يعلم مايسرون ومايعلنون**) والدليل على أن الحسن فى الأصل راجع الىالمعنى أنك لو غيرت أحد اللفظين وأتيت بمرادفه مثلا لايتغير أصل الحسن كما فى قولك مثلا : يعلم مايخفون ومايعلنون ، أو يعلم مايسرون ومايظهرون ، أما المحسنات اللفظية فهى مايكون التحسين فيها راجعا الى اللفظ .أولا : وبالذات ، وان كان ذلك قد يؤثر أحيانا فى تحسين المعنى ، وذلك كالجناس فى **قوله تعالى : (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة)** وضابطه أيضا أنك لوغيرت اللفظ الى مابرادفه اختل الحسن اللفظى كقولك مثلا : (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير زمن قليل)[1] ومن المحسنات المعنوية:



الطبـــاق

ويسمى أيضا المطابقة والتضاد ، وهو فى اللغة الجمع بين الشيئين ، أو الموافقة بينهما ، وفى الاصطلاح الجمع بين المتضادين ، ووجه المناسبة بين المعنى اللغوى والاصطلاحى أن الجمع بين المتضادين فيه نوع من المطابقة بينهما والموافقة ، والمراد بالمتضادين مطلق التقابل فى الجملة فيشمل تقابل القدم والحدوث والاحياء والامانة والبياض والسواد والعمى والبصر ، سواء أكان ذلك واردا على سبيل الحقيقة أم المجاوز كما سيأتى

---

(١) انظر علام البلاغة للشيخ أحمد مصطفى المراغى ٣٣٠ المكتبة المحمودية التجارية

ويتنوع الطباق من حيث نوع اللفظ الى طباق بين اسمين كما في **قوله تعالى : (وتحسبهم أيقاظا وهم رقود) وقوله سبحانه: (لايملكون لأنفسهم ضرا ولانفعا)** (**فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات**) أو بين فعلين كما في .(**تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشساء وتعز من تشاء وتذل من تشاء**) (**وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا**) ومنه قوله عليه الصلاة والسلام للأنصار (**إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع**) وقول أبى صخر الهذلي:

أما والذى أبكى وأضحك والذى أمات وأحيا والذى أمره الأمر

وقول بشار:

إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها عمرا ثم نم

وقد يكون الطباق بين حرفين كما فى قوله تعالى :(**لها ماكسبت وعليها ماكتسبت**)

وكما فى قول الشاعر:

على أننى راض بأن أحمل الهوى.. وأخلص منه لاعلى ولاليا

وقول الأخر:

ركبنا فى الهوى خطرا فإما لنا ماقد ركبنا أو علينا

وقد يكون الطباق بين لفظين من نوعين لانوع واحد ، ومن شواهد الاختلاف بين لفظين من نوعين لانوع واحد بين الاسمية والفعلية (أو من كان ميتا فأحييناه) (وأحيى الموتى بإذن الله)

وقول طفيل فى الفرس:

بساهم الوجه لم تقطع أباجله . يصان وهو ليوم الروع مبذول

وقول الاخر:

قد كان يدعي لابس الصبر حازما
فأصبح يدعي حازما حين يجزع

والتقابل في الطباق بين اللفظين قد يكون ظاهرا كما سبق من الشواهد،وقد يكون خفيا كما فى قوله تعالى :
(أشداء على الكفار رحماء بينهم) فليست هناك مقابلة مباشرة بين الشدة والرحمة ، لكن الرحمة تستلزم اللين المقابل للشدة . ومنه أيضا المقابلة بين (هاتا وتلك) فى قول الشاعر:

مها الوحش إلا أن هاتا أوانس
قنا الخط الا أن تلك ذوابل

لما فى (هاتا) من الدلالة على القرب ، ومافى (تلك) من الدلالة على البعد.

طباق الايجاب والسلب:

هذا وقد تكون المقابلة فى الطباق قائمة على الايجاب والسلب ، أما الايجاب فكما سبق من الامثلة ،وأما السلب فهو أن يجمع بين فعلى مصدر واحد ، أحدهما موجب والآخر منفى أو أحدهما أمر والآخر نهى، فالأول كما فى قوله تعالى : **(ولكن أكثر الناس لايعلمون يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا)** وأما الثانى فكما فى قوله تعالى : **(فلاتخشوا الناس واخشون)** ومن طباق الايجاب والسلب الشواهد التالية:

وننكر إن شئنا على الناس قولهم
ولاينكرون القول حين نقول

يقيض لى من حيث لاأعلم النوى
ويسرى الى الشوق من حيث أعلم

ولقد عرفت وماعرفت حقيقة
ولقد جهلت وماجهلت خمولا

خلقوا وماخلقوا لمكرمة
فكأنهم خلقوا وما خلقوا

رزقوا ومارزقوا سماح يـــــــد
فكأنهم رزقوا ومارزقـــــــــــوا

هذا وليس من هذا النوع من الطباق قوله تعـالى : (**لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون**)لان نفى العصيان يعنى الطاعـة ، وهى لاتضاد فعلهم مايؤمرون به ،كما أن مصدرى الفعلين (يعصون - يفعلون) مختلف ، بسوغ اعتبار الآية من الطباق باعتبار الزمن ، أى لايعصون الله فى الحـال ، ويفعلـون مايؤمرون فى المستقبل لعدم تحقيق ضابط الطباق فيهما مـن جهـة واختلاف مصدرى الفعلين من جهة اخرى.

وتأمل الشواهد التالية فإنها من لطيف الطباق:

يقول ابن رشيق:

وقد أطفئوا شمس النهار وأوقدوا
نجوم العوالى فى سماء عجاج

ويقول القاضى الأرجانى:

ولقد نزلتُ من الملوك بما جد
فقر الرجال اليه مفتاح الغنى

ويقول الغرزدق:

لعن الله بنى كليب انهـــــــم
لايغدرون ولايفون لجـــــار
يستيقظون الى نهيق حمارهم
وتنام أعينهم عن الأوتـــــار

وقد جمع الشاعر مع الطباق فى البيت الأول من هذين البيتين نوعين من الاطناب هما التكميل فـى قولـه: (ولايفـون لجـار) والإيغـال فـى قوله (لجار).

التدبيج فى الطباق:

هنا نوع من الطباق أطلق بعضهم عليه تدبيجا ، وهو من قولهم : دبج الأرض أى زينها ،ويقصدون به : أن يذكر فى معنى كالمدح أو غيره ألوان بقصد الكناية أو التورية. ومن تدبيج الكناية قول أبى تمام فى الرثاء:

تردى ثياب الموت حمرا فمادجا
لها الليل إلاوهى من سندس خضر

فقوله : تردى ثياب الموت حمرا : كناية عن القتل ، وقوله :من سندس خضر كناية عن دخوله الجنة ،وجمع بين الحمرة والخضرة على سبيل الطباق.

ومن تدبيج التورية : قول الحريرى : قد ازور محبوبى الأصفر ، واغبر عيشى الأخضر واسود يومى الأبيض وابيض فودى الأسود ، حتى رثى لى العدو الأزرق ، فياحبذا الموت الأحمر" فقد جمع الحريرى بين عدة ألوان على سبيل الطباق ، منها ماجاء على طريقة الكناية كما فى : أغبر عيشى الأخضر واسود يومى الأبيض .... الخ ومنها ماجاء على سبيل التورية كما فى قوله : ازور محبوبى الأصفر) لأن المعنى القريب غير المراد إنسان ذو صفرة فى لونه، وأما المعنى البعيد المراد فهو الذهب.

مايلحق بالطباق:

يلحق بالطباق شيئان : أحدهما الجمع بين معنيين غير متقابلين ، لكن عبر عنهما بلفظين متقابلين كقول دعبل الخزاعى :

لاتعجبى ياسلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

لأن المراد بضحك المشيب ظهوره وانتشاره فى الرأس، وهذا المعنى ليس مقابلا للبكاء بمعناه الحقيقى ، ولكن عبر عن

المعنى الأول بلفظ الضحك المقابل للبكاء وهذا مايسمى ايهام التضـاد ، ومنه أيضا قول أبى تمام فى الشيب :

له منظر فى العين أبيض ناصع ٠٠ ولكنه فى القلب أسود أسفع

حيث استعار الأسود الأسفع لما يحدثه الشـيب فـى القلـب مـن الهم والحزن ، ولامقابلة بين هذا المعنى المجازى والأبيـض النـاصع ، وانما تقع المقابلة بين الأبيـض والأسـود فـى المعنـى الحقيقـى لكـل منهما.

وثانيهما : أن يجمع بين معنيين لايتنافيان ، فى ذاتهما ، ولكن يتعلـق أحدهما بما ينافى الآخر كما فى قوله تعـالى : **(أشـداء علـى الكفـار رحماء بينهم)** لأن الرحمة تستلزم اللين المقـابل للشـدة كمـا سـبق ، وكما فى قوله تعالى : **(ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله)** ، لأن ابتغاء الفضل يستلزم الحركة المقابلـة للسكون ، ومن بلاغة القرآن الكريم العدول عن لفظ الحركة المقـابل للسـكون مباشـرة ، لأن الحركـة نوعـان : حركـة لمصلحـة وحركـة لمفسدة ، والمراد الأولى ، لأنها هى المناسبة لابتغاء فضل الله.

وأما قول أبى الطيب المتنبى:

لمن تطلب الدنيا اذا لم ترد بها ٠٠ سرور محب أو إساءة مجرم

فهو فاسد ، لأن المحب لايقابله المجـرم ، وإنمـا يقابلـه المبغـض، إلا أن يقـال : ان الاجـرام يسـتلزم البغـض وعلـى ذلـك يتـم التقـابل بيـن المحب والمجرم

المقابلة

ومن المطابقة نـوع يسـمى المقابلـة ، وهـى أن يؤتـى بمعنيـن متوافقيـن أو معـان متوافقـة ثـم يؤتـى بمـا يقابلهـا علـى الـترتيب ، والمراد بالتوافق هنا ماليس تقابلا كما سبق فـى الطبـاق ، وإنمـا هـو توافق لابالمقابلة كما هو الشأن فى الطباق ، ولابالمناسـبة المعروفـة فى مراعاة النظير كما سيأتى ، لان التناسب فى المقابلة بين المعـانى المجتمعة ان كان على نحو ماسبق فـى الطبـاق دخلـت المقابلـة فيـه

فتكون طباقا ، وان كان التناسب بين هذه المعاني قائما على نحو ماسيأتى فى مراعاة النظير كانت المقابلة داخلة فيه ، فإذا اشترطنافى الجمع بين المعانى في المقابلة عدم تحقق معنى التقابل فى الطباق ومعنى التناسب فى مراعاة النظر بقيت المقابلة المقصودة هنا منفردة عنهما

ومن شواهد التقاء الطباق بالمقابلة بالجمع بين معنيين ثم مقابلتهما بمعنيين آخرين قوله تعالى:(**فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا**) أما الطباق فهو فى مقابلة: الضحك بالبكاء والقلة بالكثرة ، وأما المقابلة فهى الجمع بين الضحك القليل والبكاء الكثير.

ومن مقابلة اثنين باثنين أيضا قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الرفق لايكون فى شئ إلا زانه ، ولاينزع من شئ إلا شانه " وقول النابغة الذبياني:

فتى تم فيه مايسر صديقه   على أن فيه مايسوء الأعاديا

ومن مقابلة ثلاثة بثلاثة قول أبى دلامة:

ماأحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا   وأقبح الكفر والافلاس بالرجل

وقول أبى الطيب:

فلا الجود يفنى المال والجد مقبل

ولاالبخل يبقى المال والجد مدبر

ومن مقابلة أربعة بأربعة قوله تعالى : (**فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى**) ويلاحظ هنا أن الاستغناء مقابل للاتقاء فى الآية الكريمة لأن الاستغناء يعنى الزهد فيما عند الله ، فكأنه استغنى عنه ، أو أستغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة فلم يتق.

وجعل بعضهم من مقابلة خمسة بخمسة قول أبى الطيب

أزورهم وسواد الليل يشفع لى

وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

ووجه المقابلة بين هذه الخمسة هنا أن : أزورهم فى مقابلة : أنثنى وسواد فى مقابلة بياض ، والليل فى مقابلة : الصبح ، ويشفع فى مقابلة يغرى ، ولى فى مقابلة بى.

ولكن الأدق أن البيت يدخل فى مقابلة أربعة بأربعة ، لأن المقابلة الخامسة بين الحرفيين (لى وبى) ليست مستقلة لأن كلاً من الحرفين من تمام الفعل السابق عليهما ، وهو متعلقهما ، وهذا بخلاف المقابلة بين لها وعليها فى قوله تعالى : **(لها ماكسبت وعليها مااكتسبت)** لاستقلال الحرفين فضلا عن أن (لى) و (بى) ليست بينهما مقابلة مثل (لها وعليها) فى الآية الكريمة.

مقارنة بين بيتين فى المقابلة:

البيت الأول قول أبى دلامة السابق فى مقابلة ثلاثة بثلاثة.

ماأحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا

وأقبح الكفر والافلاس بالرجل

والبيت الثانى بيت أبى الطيب السابق فى مقابلة أربعة بأربعة،وهو

أزورهم وسواد الليل يشفع لى

وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

وجه المقارنة : ترجيح بيت أبى الطيب بكثرة المقابلة ، لانها بين أربعة وأربعة مع سهولة النظم ، وتمكن القافية فى أداء المعنى المقصود ، أما بيت أبى دلامة فإن قافيته مستجلبة لامتمكنة ، لأن قبح الكفر والافلاس لايخص الرجال وحدهم ، لكن بيت أبى دلامة يرجح بيت أبى الطيب بجودة المقابلة بين المعانى الثلاثة ، بخلاف بيت أبى الطيب فإنه وإن جمع فى المقابلة بين أربعة معان وأربعة لكن المقابلة فى إحداها غير دقيقة ، لان الليل لايقابله الصبح وإنما يقابله النهار.

هذا ومن لطيف المقابلة ماحكى عن محمد بن عمران الطلحى اذ قال لـه المنصـور : (بلغنـى أنـك بخيـل) فقـال: يـاأمير المؤمنيـن : (ماأجمد فى حق ، ولاأذوب فى باطل)

ومن مقابلة ستة بستة قول الشاعر : (عنترة بن شداد)

على رأس عبد تاج عز يزينه ۞ وفى رجل حر قيد ذل يشينه

مراعاة النظير

ومـن المحسـنات المعنويـة : مراعـاة النظـير ، وتسـمى أيضـا التناسب والائتلاف والتوافق والمقصود بها أن يجمع فـى الكـلام بيـن أمرأوأمور ومايناسبها لابالتضاد ، وبالقيد الأخير خـرج الطبـاق لان المناسبة فيه بالتضاد.

ومـن الجمـع بيـن أمريـن متناسـبين قولـه تعـالى : **(الشـمس والقمربحسبان)**

ومن الجمع بيـن ثلاثـة قـول البحـترى فـى وصـف الإبـل الأنضـاء :

كالقسى المعطفات بل الأسهم مبرية بل الاوتـــــــــار[1]

ومـن الجمـع بيـن أربعـة قـول بعضهـم للمهلبـى الوزيـر : أنـت أيهـا الوزير اسماعيلى الوعد ، شعيبى التوفيق ، يوسفى العفو ، محمـدى الخلق .

ومن الجمع بين أكثر من أربعة قول ابن رشيق:

أصح وأقوى ماسمعناه فى الندى ۞ من الخبر المأثور منذ قديم

أحاديث ترويها السيول عن الحيا ۞ عن البحر عن كف الأمير تميم

---

[1] القسى جمع قوس ، والأوتار جمع وتر ، وهو الخيط الجامع بين طرفى القوس ، والأنضاء المهازيل ، والإضراب فى البيت للترقى .

والملاحظ فى التناسب هنا أنه جمع بين الصحة والقوة ، والسماع والخبرفى البيت الأول ، والأحاديث والرواية ، والسيول والحيا (والمطر) وكف الأمير تميم فى البيت الثانى. **وما زاد فى حسن** المناسبة فى البيت الثانى صحة الترتيب فى العنعنة، اذ جعلها متدرجة من صاغر عن كابزالى ان وصلت الى الأصل، وهو كف الأمير تميم ، اذ جعله أصلا لعطاء كل من السيول والمطر والبحر ، وذلك على سبيل المبالغة .

تشابه الأطراف

هذا ومن التناسب أيضا مايطلق عليه البعض تشابه الأطراف ، وهو أن يختتم الكلام بما يناسب أوله فى المعنى كقوله تعالى : **(لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير)** فإن قوله سبحانه اللطيف يناسب قوله السابق : لاتدركه الأبصار ، لان اللطف فى الأصل دقة الشئ والشى إذا دق خفى ، ومنه قولنا هذا شئ دقيق أو مسألة دقيقة ، ولذلك كان عدم الادراك بالأبصار مناسبا له ، وأما قوله : الخبير فهو مناسب لقوله : وهو يدرك الأبصار ، لأن من يدرك شيئا يكون خبيرا به.

ومن تشابه الأطراف أيضا قوله سبحانه : **(له مافى السموات وما فى الأرض وإن الله لهو الغنى الحميد)**لأن ملكيته سبحانه لما فى السموات ومافى الأرض ليست لحاجة اليهما ، فهو غنى عن كل مافيهما ، لكنه يجود بما يملك على غيره فيستحق الحمد على ذلك من المنعم عليهم.

ومن دقيق هذا النوع فى تشابه الأطراف قوله تعالى : **(ان تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم)** ووجه دقة التناسب هنا أن ختام الآية المنتظر كان ينبغى أن يكون : " وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم " لكن هذا التناسب الظاهرى

خولف الى ماهو أدق منه وأحكم فى الوفاء المراد ، ذلك أنـه لايقدر على العفو عن المسئ إلا عزيز غالب لايسأل عما يفعل ، فليس فوقه أحد يرد حكمـه ، أو يعقب عليـه ، ولمـا كـانت هـذه العـزة غـير المسئولة ربما توهم مطلق التصرف الخـالى عن الحكمـة كما يفعل الجبابرة الطغاة من البشر كان من المهم أن يعقب صفة العزة صفة الحكمة للدلالة على أن كـل فعل لـه سبحانه لايخلـو مـن حكمـه وإن خفيت أحيانا عن البشر ، ومن ذلك العفـو عمـن يستحقون العذاب ، لأنه عفو القادر الحكيم في كل مايصدر منه.

ويلحق بمراعاة النظير مايسمى ايهام التناسب ، والمقصود به أن يجمع بين أمور متناسبة لفظا ، مع عدم التناسب معنى فـى بعضهـا ، ولذلك عدت من قبيل ايهام التناسب لاالتناسب ، ومن ذلك قوله تعالى **(الشمس والقمر بحسبان والنجـم والشـجر يسـجدان)** فالشـمس والقمر والنجم متناسبة من حيث الألفاظ ، لكن النجم يختلف عنها فـى المعنـى ، لأن المقصـود بـه هنـا : النبـات الـذى ينجـم مـن الأرض ولاساق له ، وهذا هـو المعنـى المقصـود وهـو غـير مناسـب لمعنـى الشمس والقمر ، أما إذا قصدت به الكوكب المشهور فيكون التناسـب بينها فى الألفاظ والمعانى ، لكن النجم بمعنى الكوكـب غـير مقصـود هنا كما سبق.

ويلاحظ أيضا أن النجم بمعنى النبات الذى لاساق لـه مناسـب لما ذكر بعده وهو الشجر ، من حيث المعنى فقط ، لامن حيث اللفـظ ، وبذلك كان النجم مناسبا لما قبله لفظا لامعنى ولذلك كان مـن إيهـام التناسب ومناسبا لما بعده معنى لالفظا فهو من مراعاة النظير ، وهذا من دقائق التناسب فى القرآن الكريم.

الارصاد أو التسهيم

الارصاد فى اللغة نصب الرقيب فـى الطريـق ، كأنـه يرصـد المرور عليه ، وأما التسهيم فى اللغة فهو جعل البرد ذا خطوط كأنها

فيه سهام ، وأما المراد به عند البلاغيين فهو أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت مايدل على العجز إذا عرف حرف الروى ، وكأن المتكلم بالشعر أو النثر يجعل الدليل على ختام كلامه مرصودا من السامع أو القارئ من خلال هذا الدليل ، أو جعل هذا الدليل بمثابة الخطوط فى النسج لتدل عليه.

ومن شواهده فى النثر قوله تعالى : (**وماكان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**) لأن نفى ظلم الله لهم يشعر بكونه منهم على أنفسهم قبل النطق بعجز الفقرة " ولكن كانوا أنفسهم يظلمون" بعد أن تأكد وقوع الظلم على أنفسهم ، فإذا نفى عن الله ثبت وقوعه منهم ، وكذلك منه قوله تعالى : (**وماكان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما كانوا فيه يختلفون**) والارصاد أو التسهيم هنا فى كلمة (فاختلفوا) وختم الآيات يستدل عليه من الآيات السابقة. ومنه أيضا : " **ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور** " والارصاد فى (كفروا)

وأما فى الشعر فمنه قول زهير:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حولا لا أبا لك يسأم

والاسهام هنا فى(سئمت [1]) وقول الآخر:

إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه الى ماتستطيع

والارصاد فى (لم تستطع)

ومنه أيضا:

أحلت دمى من غير جرم وحرمت
بلا سبب يوا اللقاء كلامى
فليس الذى حللته بمحلـــــــل
وليس الذى حرمته بحــــرام

---

[1] ويعرف الروى فى (يسأم) من الأبيات السابقة .

والارصاد هنا فى (حرمته) والقافية تعرف من البيت السابق.

المشاكلـــــة

هى فى اللغة المماثلة ، وأما فـى اصطـلاح البلاغيين فـالمقصود بها ذكر الشئ بلفظ غيره لوقوعــه فـى صحبـة ذلـك الغير تحقيقـا أو تقديرا ، ومن شواهد الأول فى القرآن الكريـم قولـه تعـالى (**وجزاء سيئة سيئة مثلها**) حيث سمى رد السيئة بمثلها سـيئة مـع أنـه جـزاء على السيئة ، ولكن حسن ذلك وقـوع هـذا الجـزاء فـى صحبـة ذكـر السيئة ، وعلى نمطه كان قوله تعالى : (**ومكـروا ومكـر اللـه واللـه خير الماكرين**) حيث عبر عن إبطـال مكرهـم وإحباطــه بـالمكر لوقوعـه فـى صحبتـه ، وكذلـك قولـه تعـالى : (**تعلـم مـافى نفسـى ولاأعلم مافى نفسك**) حيث أطلق على الـذات العلية نفسـا لورودهـا فى صحبة النفس المذكورة ، ومنها فى الحديث الشريف "لايمـل اللـه حتى تملوا " فقد عبر عن عدم قطع الثواب بالدعـاء بالملل لوقوعـه فى صحبة الملل الحقيقى فى قولـه : "حتـى تملـوا" وأمـا فـى الشـعر فمنها قول الشاعر:

قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخه .. قلت اطبخوا لى جبه وقميصا

فعبر عن خياطة الجبة والقميص بالطبخ لوقوعه فى صحبتـه وقـول أبى تمام:

من مبلغ أفناء يعرب كلهم أنى بنيت الجار قبل المنزل

حيث عبر ببناء الجار عن اختباره لوقوعه فـى صحبـة بنـاء المـنزل المفهوم من الكلام .

وأما الثانى فمن شواهده قوله تعـالى : (**صبغـة اللـه ومـن أحسـن من الله صبغة**) والمعنى الأصلى المراد من صبغة الله هو الايمـان باللـه لأنـه يطـهر النفـوس ، والحديـث السـابق كـان عـن ايمـان أهـل الكتاب بمثل ماآمن بــه المسلمون ، وذلـك فـى قولـه سبحانه : (**فـإن آمنوا بمثل ماآمنتم به فقد اهتـدوا وإن تولـوا فإنمـا هـم فـى شـقاق**

فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) والتعبير عن الايمان بالصبغة لوروده فى صحبة الصبغة المقدرة للنصارى إذ كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمونه المعمودية ، ويقولون : هو تطهير لهم ، وقد فهم ذلك من قرينة الحال ، وهو سبب النزول ، فأمر المسلمون أن يقولوا لهم :قولوا آمنا بالله وصبغنا الله بالايمان صبغة لامثل صبغتكم، وطهرنا تطهيرا لامثل تطهيركم، أو يقول المسلمون : صبغنا الله بالايمان صبغته ولم يصبغ صبغتكم ولذلك جئ بلفظ الصبغة فى الآية للمشاكلة مع الصبغة المقدرة كما ذكرت[1]

العكس والتبديل

المقصود به أن تقدم فى الكلام جزءا ثم تعكس فتؤخر ماقدمت ، وتقدم ماأخرت ، ويأتى على وجوه منها:

١ـ أن يقع بين أحد طرفى جملة وماأضيف اليه ذلك الطرف كقولهم : عادات السادات سادات العادات ، ومن ذلك قول بعضهم لاخر لم لاتفهم مايقال ؟، فأجاب : لأنك لم تقل مايفهم ومن ذلك قول القائل : لاسرف فى الخير ردا على من قال : لاخير فى السرف.

٢ـ أن يقع بين متعلقى فعلين فى جملتين نحو :**(يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى)** وقول الحماسى:

رمى الحدثان نسوة آل حرب بأمر قد سمدن له سمودا
فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا

٣ـ أن يقع بين لفظين فى طرفى جملتين كقوله تعالى : **(هن لباس لكم وأنتم لباس لهن)** وقوله : **(لاهن حل لهم ولاهم يحلون لهن)** وقوله : **(ماعليك من حسابهم من شئ ومامن حسابك عليهم من**

---

(١) انظر الإيضاح للخطيب القزوينى مع بغية الإيضاح ٢٤/٤ .

شئ) وقول الحسن البصرى : " ان من خوفك حتى تلقى الأمن خير ممن أمنك حتى تلقى الخوف".

وقول أبى تمام.

فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله ولامال فى الدنيا لمن قل مجده

وقول الآخر:

ان الليالى للأنام مناهـــــل نطوى وتنشر دونها الأعمار
فقصارهن مع الهموم طويله وطوالهن مع السرور قصار

التوريـــــــة

التورية فى اللغة مصدر ورى بالخبر إذا ستره وأظهر غيره وعند البلاغيين: أن يذكر لفظ له معنيان : أحدهما قريب غير مراد ، والأخر بعيد مراد ، ومن ذلك قول الصلاح الصفدى:

وصاحب لما أتاه الغنـــــى تاه ونفس المرء طماحة
وقيل : هل أبصرت منه يدا تشكرها قلت ولاراحــة

والشاهد فى قوله (راحة) لأن المعنى القريب غير المراد باطن الكف من اليد ، بدليل ذكر اليد قبل ذلك ولكن المعنى البعيد المراد هو الراحة التى هى ضد التعب ، وعلى هذا النحو قولهم : دعوه يأكل عيشه بجبنه ومنها أيضا قوله تعالى : (**الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان**) لأن المعنى القريب للنجم هو الكوكب المعروف بدليل عطفه على الشمس والقمر ، وهذا غير مراد وإنما المراد المعنى البعيد ، وهو النبات الذى لاساق له بدليل عطف الشجر عليه كما سبق ، ومنها أيضا قول الشاعر:

أيها المعرض عنا حسبك الله تعالى

والشاهد فى قوله (تعالى) لأن المعنى القريب غير المراد هو السمو والارتفاع، وهو غير مقصود هنا، وإنما المقصود هو الإقبال وهو المعنى البعيد المراد

وهى على ثلاثى أضرب:

(١) مجردة وهى التى لم يذكر فيها لازم المعنى القريب غير المراد كما فى قوله تعالى : (**الرحمن على العرش استوى**) لأن المعنى القريب غير المراد : هو الجلوس على العرش ، وهذا مستحيل بالنسبة لله تعالى ولم يذكر فى العبارة مايلائمه ، وأما المعنى البعيد المراد فهو الاستيلاء على العرش.

(٢) مرشحة : وهى التى ذكر فيها لازم المعنى القريب المورى به عن المعنى البعيد ، فيزيد ذلك من خفاء المعنى البعيد ، لان ذكر لازم المعنى القريب يقوى من ايهام قصده دون المعنى البعيد ، وذكر اللازم قد يأتى قبل التورية ، كما فى قوله سبحانه : (والسماء بنيناها بأيد) والتورية فى (أيد) لأن معناها القريب الجارحة المعروفة ، والمعنى البعيد القدرة ، والمعنى البعيد هنا **هو المراد** لاستحالة الجارحة على الله تعالى ، وقد رشح المعنى القريب بذكر (بنيناها) لأنه من ملائمات المورى به ، وهو اليد بمعنى الجارحة ، والملائم مذكور قبل التورية ، وقد يكون الملائم مذكورا بعد التورية كما فى قول الشاعر:

أقلعت عن رشف الطلا ... واللثم فى خد الحبب[1]
وقلت هذه راحـــــة ... تسوق للقب التعـب

والشاهد فى قوله : (راحة) لأن معناها القريب الراحة ضد التعب ، ورشح هذا المعنى ذكر التعب بعد ذلك وليس هذا هو المراد ، ولكن المراد المعنى البعيد وهو الخمر ، ويقصد بذلك أن الخمر تجلب للقلب التعب فينبغى أن يقلع عن شربها.

(٣) مبينة : وهى ماقرنت بما يلائم المعنى البعيد كقول ابن سنان الملك:

أما والله لولا خوف سخطك ... لهان على ماألقى برهطـــك
ملكت الخافقين فتهت عجبـــا ... وليس هما سوى قلبى وقرطك

---

[1] الطلا : ما طبخ من عصير العنب ، والحبب : الفقاقيع التى تعلو الكأس .

فالمعنى القريب للخافقين المشرق والمغرب ، وهو غير مراد ، وأما المعنى البعيد المراد فهو القلب والقرط ، وقد بينهما بالتصريح بهما في آخر البيت .[1]

التجـــريـــد

يقال جردت فلانا من كذا إذا أزلته عنه ، وعند البلاغيين : أن ينزع من أمر ذى صفة أو أكثر أمر آخر أو أكثر مثله فى تلك الصفة مبالغة فى كمالها فيه والتجريد أقسام نوجزها فيما يلى :-

١- مايكون بمن التجريدية كقولهم : لى من فلان صديق حميم ، وهذا يعنى أن فلانا المتحدث عنه بلغ من الصداقة مبلغا عظيما يصح أن ينتزع منه صديق آخر ، وهذا القسم لايفيد تشبيها .

٢- مايكون بالباء التجريدية الداخلة على المنتزع منه نحو : لئن سألت فلانا لتسألن به البحر ، فقد بالغ فى اتصاف فلان بالكرم حتى انتزع منه بحرا ، وكأنه أصل للبحر فى الكرم ، وهذا القسم يفيد المبالغة فى التشبيه

٣- مايكون بدخول باء المعية على المنتزع كقول الشاعر :

وشوهاء تعدو بى إلى صارخ الوغى
بمستلئم مثل الفنيق المرحل[2]

يقصد أن الفرس تعدو به ، ومعه من نفسه مستلئم ، يريد به نفسه لبيان كمال استعدادها فى الحرب ، والباء فى قوله (بى) باء المصاحبة . وفى البيت تشبيه الفرس بالبعير الذى أزعج من مكانه فى القوة والعلو وعدم القدرة على المصادمة

---

[1] أنظر علوم البلاغة للشيخ المراغى ٣٤٠ .

[2] الشوهاء : فرس قبيحة المنظر لسعة أشداقها ، وهى مستحسنة فى الحرب والمستلئم : لابس اللأمة وهى الدرع ، والفنيق : الفحل المكرم ، والمرحل : المرسل غير المقيد ، وصارخ الوغى : المستغيث فى الحرب .

٤ـ مايكون بدخول • (فى) على المنتزع منه كما فى قوله تعالى (لهم فيها دار الخلد) وجهنم هى دار الخلد لكنه جعلها موطنا لانتزاع دار خلد أخرى للمبالغة فى كمال اتصافها بالهول والشدة على الكفار ، والآية بتمامها (ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا يعملون) •

٥ـ مايكون بدون توسيط حرف نحو قول الشاعر:

فلئن بقيت لأرحلن بغزوة   تحوى الغنائم أو يموت كريم

والشاعر هنا يريد بالكريم نفسه ، لكنه انتزع منها كريما للمبالغة فى اتصافه بالكرم.

٦ـ مايكون بطريق الكناية كقول الشاعر:

ياخير من ركب المطى ولا   يشرب كأسا بكف من بخلا

ووجه الكناية هنا أنه انتزع من الممدوح كريما ، لأنه إذا نفى عنه الشرب بكف البخيل ، فقد أثبت له الشرب بكف الكريم ، ولما كان الانسان غالبا لايشرب إلابكفه فقد وصف الممدوح بالكرم على سبيل المبالغة حيث جرد من نفسه جوادا كريما يشرب الممدوح بكفه.

٧ـ مايكون بمخاطبة الانسان نفسه ، حيث يجرد منها شخصا آخر فيخاطبه كما فى قول الأعشى

ودع هريرة إن الركب مرتحل

وهل تطيق وداعا أيها الرجل

وقد يجرد الشاعر من نفسه شخصين فيخاطبهما كما فى قول امرئ القيس:

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وللتجريد على هذا النحو قيمة نفسية كبيرة فى تجويد الخطاب ، والحرص على بلوغ الغاية فى التعبير أما عن الفائدة العامة لهذا الضرب فى الكلام فترجع الى أمرين:

احدهما : التمكن من اجراء الأوصاف المقصودة مـن مـدح أو غـير ، لأنه يوجه خطابه الى غيره ، فيكون حـرا فـى أن يصفـه بمـا شـاء ، بخـلاف مـالو أجراها علـى نفسـه بطريـق مباشـر ، حيـث لايشـعر بالحرية المطلقة.

وثانيهما : التوسع فى الكلام ، والتفنن فيه على ضروب مختلفـة كما رأينا فى أنواع التجريد ، وذلك يتفق مع سعة العربية ، وسعة أفـانين القول فيها.

المبالغـــــة

وأما المبالغة فهى ادعاء بلوغ وصـف فـى الشـدة أو الضعـف حدا مستحيلا أو مستبعدا لئلا يظن أنه غير متناه فيهما ، وللعلماء فى قبولها أو رفضها آراء ثلاثة:

الرأى الأول : الرفض مطلقا ، لان خير الكلام مانهج منهـج الحـق ، ونحا نحو الصدق من غير إفراط ولاتفريط ، وهذا على نحـو ماقـال حسان:

وإنما الشعر لب المرء يَعرضه
على المجالس إن كيسا وان حمقا
فإن أشعر بيت أنت قائلـــــه
بيت يقال إذا أنشدته صدقـــــا

الرأى الثانى : القبول مطلقا ، لأن حسـن الكـلام قـائم علـى المبالغـة والتخييل ، ولذلك قالوا إن خير الشعر أكذبه أو أصدق الشعر أكذبه.

الرأى الثالث : التوسـط بيـن الأمريـن ، فيقبـل منهـا مـاتضمن حسـنا وارتكز على منهاج الاعتـدال دون إغـراق أو غلـو ، ويرفـض منهـا مالايقبله عقل ولاعادة كما لوحـظ فـى أشـعار كثير مـن العباسـيين ، وهذا هو الـرأى وقـد وردت لـه شـواهد مـن القـرآن الكريـم والكـلام العربى الفصيح كما سيأتى.

أقسام المبالغة:

تنقسم المبالغة الى ثلاثة أقسام : تبليغ وإغراق وغلو ، لان المدعى للوصف من الشدة أو الضعف إما أن يكون ممكنا في نفسه أو غير ممكن والثانى هو الغلو ، وأما الأول فإن كان ممكنا عقلا وعادة فهو التبليغ وان كان ممكنا عقلا لاعادة فهو الاغراق ، وكل مالايمكن عقلا لايمكن عادة ، أما الممكن عقلا فقد يكون ممكنا عادة وقد لايكون ، ونفصل فيما يلى الأنواع الثلاثة على هذا الأساس.

التبليغ : هو مايكون الوصف المدعى فيه ممكنا عقلا وعادة كقول امرئ القيس:

فعادى عداء بين ثور ونعجة دراكا فلم ينضح بماء فيغسل

يريد أن فرسه والى فى صيده بين ثور ونعجة فأدركهما فى مضمار واحد دون أن يسيل منه عرق يستحق الغسل ، وهذا الوصف كما هو واضح ممكن عقلا وعادة ، ومثله قول أبى الطيب:

وأصرع أى الوحش قفيته به وأنزل عنه مثله حين أركب

يقول إن نشاط الفرس بعد انتهاء مشقة الصيد يكون مثله حين ركبه دون تأثر بما بذله من جهد وتعب فى صرع الوحش ، وهذا أيضا ممكن عقلا وعادة.

الاغراق : هو مايكون الوصف المدعى فيه ممكنا عقلا لاعادة كقول الشاعر:

ونكرم جارنا مادام فينا •• ونتبعه الكرامة حيث مالا

والوصف المدعى هنا هو إكرام الضيف مادام عندهم ، ومتابعة هذا الاكرام فى أى مكان نزل به ، وهذا أمر ممكن عقلا ، ولكنه ممتنع عادة ، إذ ام تجر العادة بذلك. ومن هنا رأينا أن التبليغ والاغراق مقبولان لارتكاز كل منهما على مرتكز صحيح وهو العقل والعادة أو العقل فقط ، ولايضر التفاوت فى هذا القبول ، وإن كانت تتفاوت درجته بتفاوت الأساس الذئ ارتكز عليه.

هذا وهناك نوع حسن من الاغراق ، وهو أقرب قبولا مما ورد فى البيت السابق ، أما وجه حسنه عنه فهو أن يقترن بالوصف المدعى مايقربه من القبول كلو ولولا وكاد ونحوها ، وبها يظهر حسنه فيزداد قبولا ، من ذلك قول امرئ القيس فى وصفه صاحبته :

X لما فيه من إيحاء عدم الوقوع

من القاصرات الطرف لو دب محول

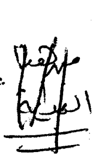
من النمل فوق الإتب منها لاثرا [1]

يصف صاحبته بالرقة ونعومة الجسم ، وذلك بتأثير النمل فوق الثياب على الجسم ، وقربت دعواه بذكر (لو) فى البيت ، وهى تقوم على الافتراض ، لأنها حرف امتناع لامتناع كما هو معروف.

ومثله قول المتنبى:

كفى بجسمى نحولا أننى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وقد حسن وصفه وقربه بذكر (لولا) فى البيت كما هو واضح



الغلو : وأما الغلو فهو مايكون فيه الوصف المدعى غير ممكن عقلا وعادة ، وبذلك لايرتكز على مرتكز صحيح يسوغ له القبول ، وهو نوعان : مقبول ومردود ، والمقبول منه أنواع:

أحدها : أن يقترن به مايقربه الى الصحة مثل لفظة (كاد) فى قوله تعالى : (يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار) وقول الشاعر:

ويكاد يخرج سرعة من ظله لو كان يرغب فى فراق رفيق

وهناك فرق واضح بين أن يجعل الشئ المبالغ فى وقوعه واقعا دون تقريب ، وبين أن يقربه بلفظ (كاد) فى الآية الكريمة والبيت كما هو واضح.

وثانيها : أن يتضمن نوعا حسنا من تخييل الصحة ، لأن حسن التخيل يقربه من الامكان ، كقول أبى الطيب

عقدت سنابكها عليها عثيرا لو تبتغى عنقا عليه لأمكنا [2]

---

[1] المحول : ما أتى عليه حول ، والإتب : درع المرأة وما تقصر من الثياب ، والقميص بلاكمين .

(٢) السنابك : حوافر الخيل والعثير : الغبار ، والعنق : السير السريع ، والضمير فى (عليها) يعود إلى الخيل.

ادعى الشاعر فى البيت أن الغبار الكثير والكثيف المثار من حوافر الخيل صار كأنه لكثافته طريق أو أرض يمكن السير عليها ، وهذا وإن كان غير ممكن عقلا ولاعادة ، لكن الذى حسنه ادعاء كثرة الغبار الذى صار فى خياله كأنه جبل أو طريق متماسك.

وقد اجتمع التخييل الصريح مع التخييل المفهوم من العبارة فى قول القاضى الأرجانى:

يخيل لى أن سمر الشهب فى الدجى ... وشدت بأهدابى إليهن أجفانى

أما الخيال الصريح فهو فى لفظ (يخيل) وأما المفهوم فهو ادعاؤه أن الشهب قد سمرت فى الدجى ، ثم ربط هذا الخيال بخيال آخر هو أن أجفانه مشدودة بأهدابه الى هذه الشهب التى تسمرت وتحجرت فى مكانها فلاتتحرك ، بل ثبتت ثبات الشهب الموثقة بالحبال والمسامير ، وفى هذا دليل على شدة المعاناه

وثالثها : ماخرج مخرج الخلاعة والهزل كقول الشاعر:

أسكر بالأمس إن عزمت على ... الشرب غدا إن ذا من العجب

وسكره على هذه الصفة محال عقلا وعادة ، لكن الذى حسنه مقام الهزل والخلاعة الذى يسوغ فيه مالا يسوغ فى مقام الجد.

وأما النوع المردود من الغلو فهو مالايرتكز على أمر من الأمور الثلاثة الماضية يجعله مقبولا ومن شواهده قول أبى نواس يمدح هارون الرشيد:

وأخفت أهل الشرك حتى إنه ... لتخافك النطف التى لم تخلق

ومنه أيضا قوله للآخر فى المدح أيضا:

ماشئت لاماشاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار

لأن تحكمه فى الأقدار لتكون رهن مشيئته ، وحكمه المطلق القائم على الوحدانية والقهر لايستسيغه عقل ، لأن هذه الأوصاف لايتصف بها إلاخالق الكون والمهيمن عليه وهو الله سبحانه الواحد القهار.

حسن التعليل

والمقصود به أن يدعى لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقى ، وذلك بادعاء علة غير معهودة له ان كانت له علة معهودة ، أو ابتكار علة له إن لم تكن له علة ، لأن الشئ معللا أوقع فى النفس منه غير معلل ، وبخاصة إذا كانت علته طريفة.

وهذا النوع من المحسن ينقسم الى أربعة أقسام ، لأن الوصف المراد بيان علته إما ثابت قصد بيان علته ، وإما غير ثابت أريد إثباته والثابت إما ألا يظهر له علة فى العادة ، أو تكون له علة غير المذكورة ، والوصف غير الثابت إما أن يكون ممكنا وإما أن يكون غير ممكن ، وفيما يلى توضيح لهذه الأقسام الأربعة بالشواهد.

الوصف الثابت الذى لا تظهر له فى العادة علة ، ومن شواهده قول ابى الطيب :-

لم تحك نائلك السحاب وإنما حمت به فصبيها الرحضاء[1]

يقول الشاعر إن السحاب عندما تمطر لم تحاول أن تحكى عطاءك لأن عطاءك لا يوازيه عطاء ، وإنما أصيبت السحاب بالحمى لعجزها عن محاكاتك فى النوال ، ولذلك كان المطر الساقط منها هو العرق المتصبب من الحمى ، ومن المعروف عادة أن المطر ليس له علة ظاهرة ، ولكن الشاعر التمس له علة لطيفة تناسب مقام المدح.

ومن ذلك قول أبى تمام :-

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى

فالسيل حرب للمكان العالى

وخلو الكريم أى رفيع القدر من الغنى أمر لا تظهر له فى العادة علة ، ولكن الشاعر قاس نفسه فى علو شأنه بالمكان العالى ، كما صور خلوه من المال بخلو الأماكن العالية من مياه المطر الساقطة ، حيث تتحدر فى مجاريها إلى الأماكن الهابطة .

ومنه قول أبى هلال فى زهرة البنفسج :-

زعم البنفسج أنه كعذاره

حسنا فسلوا من قفاه لسانه

---

[1] النائل : العطاء حمت : أصابتها الحمى ، والصبيب ماصب من المطر ، والرحضاء : عرق الحمى .

يرى الشاعر أن زهرة البنفسج التي لها بعض الأوراق النابتة إلى الخلف والتي صورها الشاعر باللسان ، يرى أن هذه الزهرة زعمت أنها في جمالها كعذار الممدوح في جمال خديه ، فعاقبوها على ذلك بسل بعض أوراقها من قفاها والتي صورها باللسان ، والواقع أن اتجاه بعض أوراق البنفسج لا تظهر له عله ، لكن الشاعر التمس له علقة غير حقيقية وهي العقوبة على محاولة التشبيه في الجمال بالممدوح ، مع أن الزهرة في الحقيقة هي الأصل في الجمال .

ومنه قول ابن نباته في وصف فرس :-

وأدهم يستمد الليل منه .. وتطلع بين عينيه الثريا
سرى خلف الصباح يطير مشيا .. ويطوي خلفه الأفلاك طيا
فلما خاف وشك الفوت منه .. تشبث بالقوائم والمحيا[1]

يبرز الشاعر صورة لطيفه من خلال تعليلات طريفه للون السواد في جسم الفرس والبياض بين عينيه وفي قوائمه مع أن ذلك لا تظهر له عله ، ولكن الشاعر بالغ في وصف سواد الفرس فجعله أصلا لسواد الليل وظلامه ، حيث استمد الليل منه ذلك ، ثم صور البياض في جبهته بضوء مجموعة النجوم التي عبر عنها بالثريا ، بل إنه جعل هذه النجوم تظهر بين عينيه ، وأما عن علة بياض قوائمه فجعلها حاصلة من السباق في السير ليلا بين الصبح الذي يسرع بنوره والفرس الذي يسرع في سيره، ولما كانت سرعة الفرس أقوى من الصبح خاف الصبح أن يفوته الفرس فتشبث بقوائمه فاكتسب منه نوره وضياءه ، وهكذا التمس الشاعر علة طريفه على طريق التشبيه المقلوب لبياض قوائم الفرس ومحياه

[1] الأدهم : الفرس الأسود ، والثريا : الكواكب ، والقوائم : الأرجل ، والمحيا : الوجه .

القسم الثانى :-

الوصف الثابت التى تظهر له فى العادة علة غير العلة الطريفة المذكورة ، ومن شواهده قول أبى الطيب :-

مابه قتل أعدائه ولكن ٠٠ يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب

من المعلوم أن قتل الملوك لأعدائهم يكون اتقاء لشرهم ليستقر ملكهم وتطمئن نفوسهم ، ولكن الشاعر أغفل هذه العلة المعروفه ، والتمس عله أخرى طريفه هى كرم الممدوح الذى فاض من البشر إلى الحيوانات التى ظهرت لها شجاعته فى انتصاره على أعدائه وأصبحت تترقب قتلاه لتطعم من جثثهم ، ومن هنا حرص الممدوح على قتل الأعداء حتى لا يخلف وعده فى إطعام الذئاب ، وتتضمن هذه العلة وصف الممدوح بالتناهى فى الشجاعة حتى ظهر ذلك للعجماوات والمحافظة على الوعد حتى مع غير البشر ، وعدم الإسراف فى القتل ، لأنه إذا حقق إطعام الذئاب فلا حاجة به إلى قتل أعدائه ٠

ومنه قول الآخر :-

مغرم بالثناء صب بكسب المجد يهتز للسماح ارتياحا

لا يذوق الإغضاء الازجاء أن يرى طيف مستميح رواحا[١]

هناك علة معروفة للنوم أو الاغفاء ، ولكن الشاعر التمس علة أخرى لذلك ، وهى حب الممدوح وشغفه بطالبى العطاء فى العشى لأنهم يحضرون اليه فى صدر النهار على عادة الملوك ، فاذا كان الرواح انصرفوا ، فهو يشتاق اليهم بعد انصرافهم ، ولذلك ينام

[١] الإغفاء : النوم الخفيف ، والمستميح : طالب المعروف ، والرواح : العش .

ليانس برؤية أطيافهم فى منامه بعدما غابت عنه شخوصهم فى يقظته .

وأصل هذا التعليل مأخوذ من قول الآخر :-

وإنى لاستغشى ومابى نعسة

لعل خيالا منك يلقى خياليا

وإن كان هذا البيت أيضا يصلح أن يكون من حسن التعليل ، لكنه لا يرقى ألى البيت السابق ، لأن المغرم المتيم قد يقصد النوم حقيقة من أجل رؤية من يحب

ومن لطيف هذا الضرب أيضا قول ابن المعتز فى تعليل شكوى عين الممدوح .

قالوا : اشتكت عينه فقلت لهم .. من كثرة القتل نالها الوصب

حمرتها من دماء من قتلت .. والدم فى النصل شاهد عجب

والعلة الحقيقية لشكوى العين هى الرمد ، ولكنه جعلها لكثرة من قتلت من العشاق ، ثم أعطى دليلا على ذلك وهو أن الحمرة فيها من دماء من قتلت ، كما أن الدم فى سهام نصله شاهد عجيب على ذلك .

وتأمل قول الآخر فإنه من هذا القسم :-

أتتنى تؤنبنى بالبكا .. فأهلا بها وبتأنيبها

تقول وفى قولها حشمة .. أتبكى بعين ترانى بها

فقلت : اذا استحسنت غيركم .. أمرت الدموع بتأديبها

وكذلك قول غيره فى زلزال وقع بمصر :-

مازلزلت مصر من كيد ألم بها .. ولكنها رقصت من عدلكم طربا

القسم الثالث :-

الوصف غير الثابت الذى أريد إثباته ، واثباته ممكن ، ومن شـواهده قول مسلم بن الوليد :-

ياواشيا حسنت فينا إساءته

نجى حذارك إنسان عينى من الغرق

من المعروف أن الوشاية غير حسـنة ، ولكن مـن الممكن أن تكـون حسنه ، وقد التمس الشاعر علة لهذا الحسن ، وهى أن الحـذر مـن الوشـاية جعلـه لا يبكـى ، فنجـا بذلـك إنسـان عينـه مـن الغـرق فـى الدموع.

القسم الرابع :-

الوصف غير الثابت الذى أريد إثباته ، وإثباته غير ممكن ، ومن شواهده :-

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته

لما رأيت عليها عقد منتطـــق

الوصف غير الثابت هنا هو إثبات الخدمة للجوزاء ، لكنه أراد إثباتـه فالتمس له علة فى النجوم التى تلتف حول الجوزاء وكأنها عقد لهـا ،ومن المعروف أن القائم بالخدمة يضع حزامـا فـى وسطه كـالعقد ، فالشاعر بذلك أثبت وصفا غير ثـابت ، ثـم التمس لـه علقة طريقـة

ما يلحق بحسن التعليل :

من شواهد هذا الملحق قول أبى تمام :-

ربى شفعت ريح الصبا لرياضها
الى المزن حتى جادها وهو هامع
كأن السحاب الغرغيين تحتهـــا
حبيبا فما ترقا لهن مدامــــــع[١]

علل الشاعر لكثرة مطـر السـحاب بتغييـب حبيـب لهـا فـى التـراب ، ولذلك تبكى عليه دائما بهطـول الأمطـار عندمـا شـفعت ريـح الصبـا لرياض الربا عند السحاب ، ومـن المعـروف أن هطـول الأمطـار لا تظهر له فى العادة علة بحسب المفاهيم القديمة ، ولذلك يعد هذا من القسم الأول ، وأنما جعل ملحقا به وليس منه لبنائه على الشك دون الجزم ، وذلك فى قوله : كأن السحاب الغر .. الخ .

وفى ختام حديثنا عن هذا المحسن البديعى نورد قصيدة اشتملت على ألوان متعددة منه بل إنها بلغت الذروة فى بعضها ، نوردها لنتأمل ما فيها من ألوان هذا المحسن ، والقصيدة مـن عيـون الشـعر العربـى ، وهى لأبى الحسن الأنبارى يرثـى أبـا طـاهر بـن بقيـة وزيـر عضـد الدولة ، لما قتل وصلب ولم يسمع بمثلها فى رثاء مصلوب حتى إن عضد الدولة الذى صلبه تمنى لو كـان هـو المصلـوب ، وقيلـت فيـه هذه القصيدة : -

١ - علو فى الحياة وفى الممات .. لحق أنت إحدى المعجزات
٢ - كأن الناس حولك حين قاموا .. وفود نداك أيام الصلات
٣ -كأنك قائم فيهم خطيبـــــا .. وكلهم قيام للصــــــلاة
٤- مددت يديك نحوهم احتفـــاء .. كمدهما إليهم بالهبــــات

[١] المزن : السحاب الأبيض ، والهامع : السائل بكثرة ، الغر : السحاب الماطرة ، ترقا : أصلها ترقأ بمعنى تسكن .

٥ – ولما ضاق بطن الأرض عن أن ٠٠ يضم علاك من بعد الوفاة
٦– أصاروا الجو قبرك واستعاضوا ٠٠ عن الأكفان ثوب السافيات
٧– لعظمك فى النفوس تبيت ترعى ٠٠ بحراس وحفاظ ثقـــــــات
٨– وتوقد حولك النيران ليلا ٠٠ كذلك كنت أيام الحياة
٩ – ركبت مطية من قبل زيد ٠٠ علاها فى السنين الماضيات
١٠ – وتلك قضية فيها تأس ٠٠ تباعد عنك تعيير العداة
١١– ولم أرقبل جذعك قط جذعا ٠٠ تمكن من عناق المكرمات
١٢ – أسأت إلى النوائب فاستثارت ٠٠ فأنت قتيل ثأر النائبات
١٣ – وكنت تجيرنا من صرف دهر ٠٠ فعاد مطالبا لك بالترات
١٤– وصير دهرك الاحسان فيه ٠٠ إلينا من عظيم السيئات
١٥– وكنت لمعشر سعدا فلما ٠٠ مضيت تفرقوا بالمنحسات
١٦– غليل باطن لك فى فؤادى ٠٠ يخفف بالدموع الجاريات
١٧– ولو أنى قدرت على قيام ٠٠ بفرضك والحقوق الواجبات
١٨– ملأت الأرض من نظم القوافى ٠٠ ونحت بها خلاف النائحات
١٩ –ولكنى أصبر عنك نفسى ٠٠ مخافة أن أعد من الجناة
٢٠– ومالك تربة فأقول تسقى ٠٠ لأنك نصب هطل الهاطلات
٢١– عليك تحية الرحمن تترى ٠٠ برحمات غواد رائحات[١]

والقصيدة كما ترى حافلة بحشد كبير من حسن التعليل ، وبخاصة ما يتعلق بالقسم الثانى منه ، وهو الوصف الثابت الذى تظهر له علة غير العلة الطريفة المذكورة ، كما يظهر ذلك للمتأمل ٠

****

[١] انظر مجموعة النثر والنظم للحفظ والتسمبع ٧٣ المطبعة الأميرية ٠

تأكيد المدح بما يشبه الذم

يأتى هذا النوع من المحسنات البديعية على ثلاثة أضرب ، نوضحها فيما يلى :-

الضرب الأول ، وهو أبلغها : أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشئ صفة مدح بتقدير دخولها فيها ، ومن ذلك قول النابغة : -

ولاعيب فيهم غير أن سيوفهم ٠٠ بهن فلول من قراع الكتائب [١]

ووجه تأكيد المدح هنا بما يشبه الذم من جانبين ، أولهما : أنه لما نفى العيب عنهم بقوله :" ولا عيب فيهم " ثم أتى بالاستثناء بعد ذلك فى قوله :" غير أن سيوفهم بهن فلول ٠٠ " والذى يدل على تأثر السيوف من الضرب كان المعنى أن هؤلاء الشجعان ليس فيهم عيوب إلا اذا اعتبرت تأثر السيوف من الضرب عيبا ، وكأنه يقول : إن اعتبرت هذه الصفة عيبا فأثبتها لهم ، ولما كان إثباتها محالا لأنه معلق على محال ، وهو اعتبارها عيبا كان ثبوت صفة العيب لهم محالا ، وبذلك يلزم ثبوت نقيضه ، وهو عدم العيب فى الصفة التى أثبتها ، وهى تأثر حد السيوف من كثرة الضرب والطعان وبذلك ثبتت الصفة لهم بالدليل الذى لا شك فيه ، فهى كدعوى الشئ بالبينة ، وهذا كما تقول : لا أفعل كذا إلا اذا ابيض القار ، أو دخل الجمل فى سم الخياط ، فهذا أبلغ من قولك : لا أفعل كذا فقط ، لأن العبارة الأولى فيها نفى الفعل بطريق قاطع ، لأنك علقت الفعل على محال والمعلق على المحال محال ، وكذلك ما هنا [٢] .

---

[١] الفلول : جمع فل ، وهى الثلمة فى حد السيف ، أى آثار الضرب فى حده .

[٢] انظر حاشية الدسوقى على المختصر ٤/ ٣٨٨ شروح التلخيص .

وثانيهما : أنه لما نفى العيب عنهم فى قوله (ولاعيب فيهم) ثم أتى بالاستثناء الذى يعتبر الأصل فيه الاتصال ، وهذا يعنى أن ما يذكر بعد أداة الاستثناء داخل فى المستثنى منه توقع السامع قبل ذكر ما بعد أداة الاستثناء أن ما سيذكر سيكون صفة ذم مستثناة من نفى العيوب عنهم ، لكن المتكلم جعل الاستثناء منقطعا ، وفاجأ السامع بذكر صفة مدح على وجه الخصوص بعد نفى العيب عنهم ، فكان فى ذكرها تأكيد لنفى العيب السابق بما يشبه الذم حيث كان السامع متوقعا صفة ذم بعد أداة الاستثناء ، فاذا به يفاجأ بصفة مدح أخرى وكأن المتكلم لما لم يجد لهم صفة ذم اضطر إلى إثبات صفة مدح أخرى ، فكان ذلك مدحا على مدح بطريقة خلابة

الضرب الثانى : أن يثبت لشئ صفة مدح بعدها أداة استثناء تليها صفة مدح أخرى كما فى قوله صلى الله عليه وسلم :" أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش " وفى هذا الضرب من تأكيد صفة المدح الوجه الثانى من وجهى التأكيد فى الضرب الأول ، وهو مفاجأة السامع بذكر صفة مدح أخرى بعد أداة الاستثناء حيث كان متوقعا أن تليها صفة ذم لكن المتكلم لم يجد لهم صفة ذم فاضطر أن يثبت صفة مدح أخرى

والفرق بين الاستثناء فى الضرب الأول والاستثناء فى الضرب الثانى أنه وإن كان منقطعا فى الضربين ، لكنه يقدر متصلا فى الضرب الأول حتى يتحقق الوجه الأول من وجهى الأبلغية فيه ، وهى ذكر صفة عيب مستثناة من نفى العيوب فى المستثنى منه ، أى تقدير صفة ذم مستثناه من جنس المستثنى منه وأما الضرب الثانى فلا نستطيع تقدير الاستثناء فية متصلا لعدم العموم فى المستثنى منه

ومن الضرب الثانى قول النابغة الجعدى :

فتى كملت أخلاقه غير أنه ٠٠ جواد فما يبقى من المال باقيا

الضرب الثالث : وهو ما يؤتى فيه بمستثنى فيه معنى المدح ، ويكون معمولا لفعل فيه معنى الذم فيتفرغ للعمل فيه ، وبذلك يكون الاستثناء مفرغا كما فى قوله تعالى :" **وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا**"أى أنك لا تعيب منا إلا ما هو أصل للمفاخر والفضائل كلها وهو الإيمان ومنه أيضا : " **قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا باللهوما أنزل إلينا** " فالاستفهام هنا للإنكار ، والمعنى : أنكم لاتنكرون علينا إلا ما هو أصل لكل مفخرة وفضيلة ، وهو الإيمان بالله وما أنزل الينا من القرآن الكريم الذى يدعو إلى الإيمان بجمع الرسل والكتب السماوية.

ومما هو جدير بالذكر أن الاستدراك فى تأكيد المدح بما يشبه الذم يجرى مجرى الاستثناء كما فى قول الشاعر :-

هو البدر إلا أنه البحرزاخرا ٠٠ سوى أنه الضرغام لكنه الوبل

تأكيد الذم بما يشبه المدح

وهو عكس السابق ، ويأتى على ضربين :-

أولهما : أن يستثنى من صفة مدح منفية عن الشئ صفة ذم بتقدير دخولها فيها ، كما تقول مثلا : فلان لاخير فيه إلا أنه بخيل ، وهذا كالضرب الأول من النوع السابق ، لأنك نفيت عنه أولا كل خير ، ثم استثنيت صفه ، وكأنك قلت : ما عدا البخل إن كنت تعده مدحا فهى ثابتة له ، ولما كان من المحال أن تكون الصفة مدحا فقد ثبت له الذم الذى هو نقيض المدح فالإثبات كدعوى الشئ بالبينة وكذلك

أيضا عندما نفيت عنه الخير ثم أتيت بالاستثناء توقع السامع أنك ستثبت له صفة مدح لأن الاصل فى الاستثناء الاتصال ، فلما أثبت له صفة ذم أخرى كنت كمن لم يجد له صفة مدح يثبتها وبذلك كان ذما كما سبق ، ومنه قول الشاعر :-

فإن من لامنى لا خير فيه سوى ٠٠ وصفى له بأخس الناس كلهم

وثانيهما : أن تثبت للشئ صفة ذم ثم تأتى بعد الاستثناء بصفة ذم أخرى ، كما تقول فلان لئيم بيد أنه بخيل ، ومن ذلك قول الشاعر :-

ياحبيب الإله جدلى بقرب ٠٠ منك ياصفوة العزيز الرحيم

يارسولا أعداؤه أراذل النا ٠٠ س جميعا لكنهم فى الجحـــيم

هذا وقد رأينا من خلال العرض السابق فى النوعين أن تأكيد المدح بما يشبه الذم متولد في الاستثناء من المدح الذى يعقبه مدح آخر كان المتوقع فيه أن يكون ذما ، كما أن تأكيد الذم بما يشبه المدح متولد من الذم الذى كان من المتوقع أن يكون مدحا ، وقد وضح ذلك مما سبق ٠

الاستتباع

هو المدح بشئ على وجه يستتبع المدح بشئ آخر كقول المتنبى :

نهبت من الأعمار مالوحويته

لهنئت الدنيا بأنك خالد

حيث مدح المخاطب بالغاية فى الشجاعة لكثرة قتلاه ، ولو ورث كل أعمارهم لصار خالدا فى الدنيا ، وهذا المدح استتبع مدحا آخر وهو كونه سببا فى صلاح الدنيا ، لأن الدنيا لاتهنأ بخلوده فيها إلا إذا كان سببا فى صلاحها ونظامها .

وفى البيت وجهان آخران من المدح ، أحدهما أنه نهب الأعمار دون الأموال ، وفى هذا دلالة على عفته ونزاهته ، وثانيهما أنه لم يكن ظالما فى قتل من قتل ، لأنه لم يقصد بذلك إلا الاصلاح الدنيا وأهلها فهم مسرورون ببقائه ، وكل هذه المعانى مستتبعة لمدحه بالغاية فى الشجاعة .

الإدمــاج

الادماج فى اللغة الإدخال ، ومنه أدمج الشئ فى الشئ إذا أدخله فيه والمقصود به عند البلاغيين أن يضمن كلام سيق لمعنى معنى آخر وعلى ذلك يكون أعم من الاستتباع لاختصاصه بالمدح ويشترط فى المعنى المضمن شرطان : أحدهما ألا يكون مصرحا به ، وثانيهما ألا يكون فى الكلام مايشعر بأنه مسوق لأجله ، وفيما يلى توضيح لذلك من خلال الشواهد ، ونبدؤها بقول أبى الطيب . -

أقلب فيه أجفانى كأنى
أعد بها على الدهر الذنوبا

فالغرض من البيت - كما هو واضح - وصف الليل بالطول ، لكنه ضمنه الشكوى من الدهر ، حيث صور حاله وهو يقلب أجفانه فى الليل - وهذا يعنى سهره الطويل فيه - بحال من يعدد على الدهر ذنوبه ، وهذا يشعر بالشكاية منه وإن لم تكن مقصودة أولا .

ومنه أيضا قول ابن المعتز فى الخيرى ، وهو الورد الأصفر :

قد نفض العاشقون ماصنع الهجر بألوانهم على ورقه

أى أن العاشقين تغيرت ألوانهم إلى الصفرة من شدة الهجر فأسقطوها على هذا الورد الأصفر ، فالغرض الأصلى وصف لون الخيرى بالصفرة ، ولكنه أدمج فيه الغزل ، وفيه وجه آخر من الحسن ، وهو ايهام الجمع بين المتنافيين ، وهما الايجاز حيث تضمن البيت معنيين أحدهما مقصود وهو الوصف بالصفرة ، والآخر مدمج فيه وهو الغزل ، كما تضمن

البيت إطنابا أيضا ، لزيادة الألفاظ عن الدلالة على الوصف المقصود وهو الصفرة .

ومنه قول ابن نباتة :

ولابد لى من جهله فى وصاله   فمن لى بخل أودع الحلم عنده ؟

والغرض الأصلى من البيت هو الغزل الذى يشكو فيه من تباعد الحبيب ، ولكنه أدمج فى هذا المعنى الفخر بكونه حليما ، ولذلك لايستطيع أ ن يجهل على حبيبه فى الوصال إلا بنزع صفة الحلم منه وإيداعها عند خل وفى ليستطيع استردادها عندما يريد ، وقد تولد من الاستفهام الانكارى فى البيت شكوى الزمان من ندرة الأخلاء فيه كما تضمن أيضا حرصه على صفة الحلم ، لأن الودائع مستردة ، وبذلك أدمج المعنى الأصلى وهو الغزل أكثر من معنى .

وأما قول الشاعر يهنئ بعض الوزراء بالوزارة :

أبىَ دهرنا إسعافنا فى نفوسنا   وأسعفنا فيمن نحب ونكرم

فقلت له : نعماك فيهم أتمها   ودع أمرنا إن المهم المقدم

فالتهنئة بالوزارة هى الغرض الأصلى ، لكنه أدمج فيه شكوى الزمان ، هكذا ذهب بعضهم ، لكنه غير مسلم لأن المعنى المدمج مصرح به فى قوله : أبى دهرنا إسعافنا فى نفوسنا) ولذلك يمكن القول بأن عكس ماذهب إليه البعض هو الصحيح ، أى يكون الغرض الأصلى شكوى الزمان ، والمعنى المدمج هو التهنئة ، وهى غير مصرح بها ، كما أدمج أيضا معنى آخر هو مدح الوزير بجعله مستحقا للدعاء بإتمام النعمة ، وأنه الأولى بإسعاف الدهر .

التوجيه

المراد به : القول الذى يحتمل وجهين مختلفين لاترجيح لأحدهما على الآخر ، وذلك ليصل القائل الى غرضه من بلوغ المعنى منتهاه دون وقوعه فى حرج .

من ذلك ماروى أن محمد بن حزم هنأ الحسن بن سهل بتزويج بنته بوران للخليفة المأمون فحرمه الحسن من العطاء ، فبعث اليه الشاعر بقوله : إن أنت تماديت فى حرمانى قلت فيك شعرا لايعرف أمديح هو أم هجاء ، فاستحضره واستنشده فقال :

بارك الله للحسن ولبوران فى الختن[1]

ياإمام الهدى ظفر ت ولكن ببنت من ؟

ولما سأله الحسن عن هذا النوع من الشعر ، أهو من مبتكراته ؟ قال . لا ، بل نقلته عن بشار بن برد وكان كثير العبث بهذا النوع .

ولنذكر فيما يلى شاهدا أخر لبشار ، وذلك أن خياطا أعور خاط له قباء ، فقال بشار :

خاط لى عمرو قباء ليت عينيه سواء

سلوا الناس جميعا أمديح أم هجاء

ومن هذا القبيل أيضا قوله تعالى : **(اسمع غير مسمع وراعنا)** والحديث فى شأن الرسول عليه الصلاة والسلام مع غير المؤمنين والآية بتمامها : **(من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين ولو أنهم قالو سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا)** فالآيه كما هو واضح فى شأن اليهود الذى حكاه الله تعالى عنهم من تحريف الكلم عن مواضعه ، وبخاصة عندما يخاطبون النبى عليه الصلاة والسلام ، فكانوا يقولون له :(اسمع غير مسمع وراعنا) وهذا من الكلام الموجه ، لأن (غير مسمع)حال ، وتحتمل العبارة أكثر من معنى فى ذاتها ، حيث يمكن أن يراد : واسمع مدعوا عليك

---

[1] كل من كان من جهة المرأه كالأب والأخ

بلا سمعت لأنه لو أجيبت دعوتهم عليه لم يسمع ، **فكأنـه أصـم ، أى** اسمع ونحن ندعو عليك بأن تكون غير مسمع ، **فهو والأصم سواء.**
ويحتمل أن يكون فى نفى السماع عنه نفى الاجابـة لمـا يدعـو اليـه ، أى اسمع غير مجاب لما تدعو إليه ، كما تقول مثلا : كلامـك مسموع بمعنى مجاب ، أو اسمع كلامى بمعنى أجبه ، أو اسمع غير مسمع كلاما ترضاه ... وهذا كله منهم ذم ، والمقام يؤيده ، وإن كانت العبارة فى ذاتها تحتمل المدح ، ويكون التقدير : اسمع غير مسمع مكروها ، وبذلك تكون العبارة من الكلام الموجه .
وكذلك الحال فـى (وراعنـا) فتحتمـل أن تكـون مدحـا ، بمعنـى : انتبه الينا وارقبنا نكلمك ، ويحتمل أن تكون مشابهة لكلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها ، وهى (راعينا) فحرفوها الى (راعنـا) من أجل السخرية والاستهزاء بالرسول عليه الصلاة والسلام وكـانوا يلوون ألسنتهم بذلك حتى تشبه فى الظاهر الكلمة العربية .
أما جعل ذلك من بـاب التوجيـه الـذى يحتمـل المـدح والـذم مـع أنهم صرحوا بعصيـانهم فـى الآيـة (**ويقولـون سمعنا وعصينـا**) فـلأن طبيعة الكفرة جميعا المواجهه بالكفر والعصيان ، لاالسب ودعاء السوء أوأنهم كانوا يقولون ذلك فيما بينهم دون مواجهة ، كما ذكر الزمخشرى.

الهزل الذى يراد به الجد

هو أن يقصد المتكلم مدح إنسان أو ذمه ، لكنه يخرجه مخرج الهزل حتى لايكون مواجها بما يريد ، ومنه قول أبى نواس :

إذا ماتميمىأتاك مفاخرا فقل عد عن ذا كيف أكلك للضب

يريد أن التميمى عندما يأخذ فى فخره فقل له : تباعد عن هذا الفخر ، وخبرنى عن حالك معأكل الضب ، وفى هذا هجاء مقذع لـه ، لأن أشراف النـاس لايأكلونـه ، فـلا مفاخرة مـع أكلـه ، وظـاهر هـذا الاستفهام هزل ، لكنه يريد به الجد ، وهو ذمه .

ومنه أيضا قول امرئ القيس :

وقد علمت سلمى وإن كان بعلها   بأن الفتى يهذى وليس بقتال

يتحدث امرؤ القيس عن زوج سلمى الذى توعده بالقتل ، فذكر امرؤ القيس أن ذلك منه هذيان لأنه لايستطيع القتل ، وسلمى تعلم ذلك حقا ، وظاهر الكلام هزل ، ولكن باطنه جد ، وهو هجو بعلها وذمه باتهامه بالعجز عن ذلك .

ومنه أيضا قول ابن نباته :

سلبت محاسنك الغزال صفاته   حتى تحير كل ظبى فيكا

لك جيده ولحاظه ونفــــــاره   وكذا نظير قرونه لأبيكـا

تجاهل العارف

والمراد به سوق المعلوم مساق غيره لنكته ، والنكته هنا شرط ضرورى فى تحقق هذا المحسن البديعى ، لأنه إذا لم يكن لنكتة لم يكن من تجاهل العارف ومن هذه النكات مايلى :

التوبيخ : كقول الخارجية :

أيا شجرة الخابور مالك مورقا   كأنك لم تجزع على ابن طريف

ووجه التجاهل هنا أنها تعلم أن الشجر لايجزع ، ولكنها لشدة حزنها تجاهلت ذلك ، وكأنها ترى أن غير العاقل إذا كان يستحق التوبيخ على عدم الجزع فغيره من باب أولى.

المبالغة فى المدح فى قول البحترى :

ألمع برق سرى أم ضوء مصباح   أم ابتسامتها بالمنظر الضاحى

ووجه التجاهل هنا أن المتكلم يعلم أن الذى ظهر هو ابتسامتها ، ولكنه تجاهل هذه المعرفة وردد الذى ظهر بين لمع البرق فى الظلام أو ضوء المصباح أو الابتسامة للمبالغة فى جمال الابتسامة ، وكأنها لاتتميز عما ذكر معها بشئ مطلقا .

التدله فى الحب : كما فى قول الحسين بن عبد الله الغزى :

بالله ياظبات القاع قلن لنا   ليلاى منكن أم ليلى من البشر

فالقائل يعلم حقيقة ليلى ، وهى أنها من البشر ، وليست من الظباء ولكن شدة ولهه بها جعلته يظهر فى صورة الحائر فى جنسها بين الظبيات أو البشر .

والتحقير : كما فى قوله سبحانه حكاية عن الكفار فى حق المصطفى صلى الله عليه وسلم : (**هل أدلكم على رجل ينبئكم أنكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد**) فقولهم : (على رجل) يجعلهم كأنهم لم يعرفوا عنه سوى أنه واحد من جنس الرجال المغمورين ، مع أنهم كانوا يعرفونه تمام المعرفة حقا وصدقا ، بل إنهم كانوا يلقبونه فى الجاهلية بالصادق الأمين ، لكنهم تجاهلوا ذلك وغيره من أجل تحقيره عليه الصلاة والسلام .

والتعريض : كما فى قوله تعالى : (**وإنا أوإياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين**) وهذه الآية واردة على لسان النبى صلى الله عليه الصلاة والسلام ، والمعروف أن المؤمنين هم على الهدى وحدهم والكفار هم على الضلال وحدهم ، ولكن ورد الأسلوب على طريقة تجاهل العارف للتعريض بما هم عليه من ضلال دون التصريح به وفيه فائدة أخرى ، وهى أنه إذا أتى على هذا النحو دون تعيين فإن ذلك يدعوهم الى الموازنة بين حالهم وحال المؤمنين ، من حيث إنهم إذا فكروا فى أمرهم من إغارة بعضهم على بعض وسفك الدماء وشرب الخمر ووأد البنات وتقطيع الأرحام واستباحة الأموال .. الى غير ذلك مما كانوا عليه من المفاسد ، ثم قارنوا بين حالهم هذا وحال المؤمنين من حيث التمسك بالأخلاق والفضائل ، والبعد عن الرذائل ، وصلة الأرحام واجتناب الآثام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واطعام المساكين وبر الوالدين .... إذا فكروا فى ذلك كله وقارنوا بين الحالين من جميع الوجوه كان ذلك مدعاة لأن يعلموا من تلقاء أنفسهم أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ، ولعل ذلك

يحفزهم الى الاسلام عن طواعية"، ومن هنا تظهر أهمية التعريض فى هذا المقام وفضله على التصريح بالمطلوب .

وبعـــــد

فسنكتفى بهذا القدر من المحسنات المعنوية بعد أن وقفنا على الكثير منها ، ورأينا قيمته فى تأثير المعانى فى النفس ، ودوره فى إبراز المراد بطريقة تفضل كثيرا الأساليب الخالية من هذه المحسنات ، كما هو واضح ملموس مما سبق ذكره .

وسنعرض فيما يلى لطائفة أخرى من المحسنات اللفظية لنبرز دورها فى الحسن اللفظى المقصود أولا وبالذات الى جانب تأثيرها أيضا فى الحسن المعنوى بطريق التبع ، بل إننا سنجد فيما نعرضه من بعض هذه المحسنات أن الحسن اللفظى فيها كان تابعا للحسن المعنوى الذى يستدعيه المقام ، وسنبرز شيئا من ذلك بصورة واضحة فيما يرادف السجع ، وهو الفاصلة القرآنية ، وذلك فى الموطن المناسب من البحث ، وبالله التوفيق .

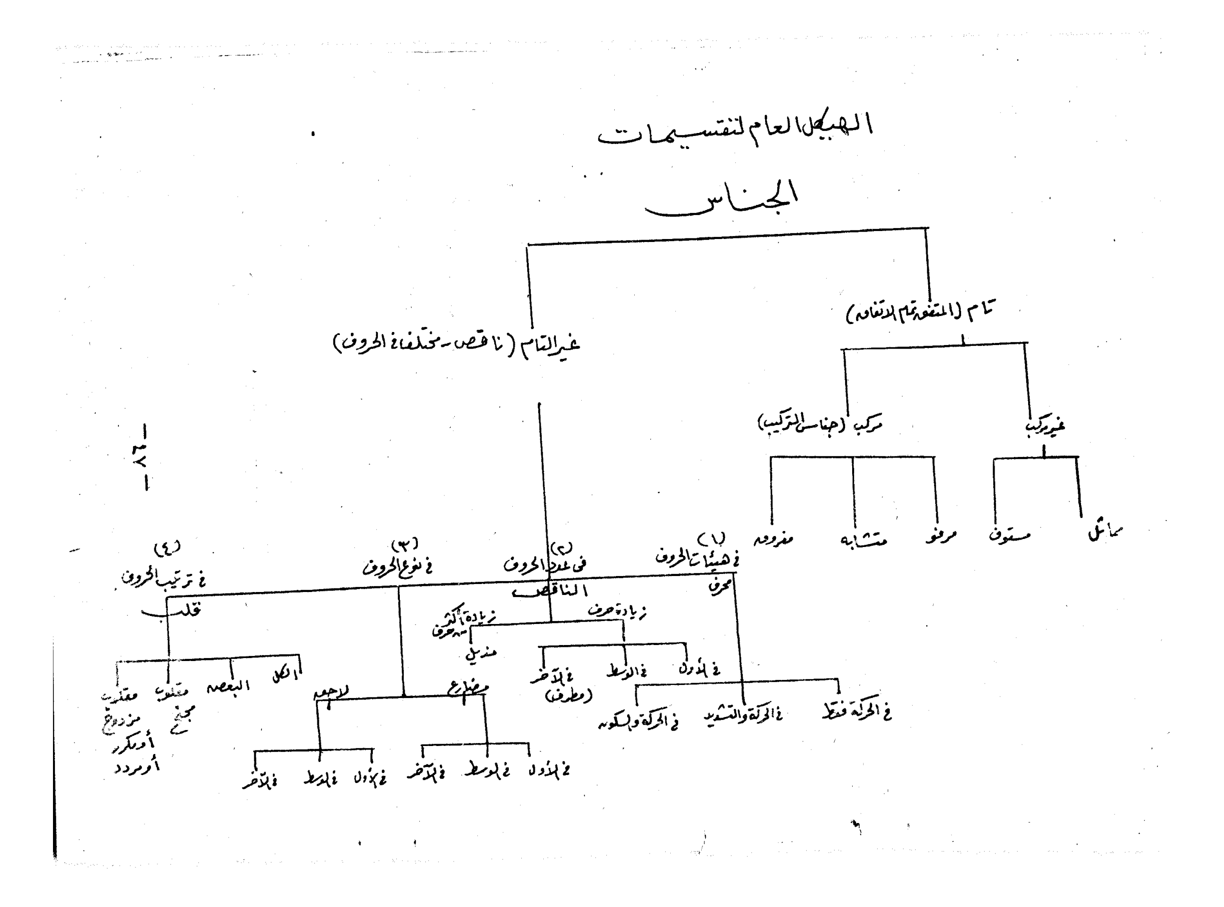
المحسنات اللفظية

الجناس

الجناس فى اللغة مصدر جانس الشيء الشيء إذا شاكله واتحد معه فى الجنس ، وفى اصطلاح البلاغيين تشابه الكلمتين فى اللفظ مع الاختلاف فى المعنى ، وفيما يلى بيان بالهيكل العام لتقسيمات الجناس قبل الدخول فى تفاصيلها بالشواهد والأمثلة .

الهيكل العام لتقسيمات

الجناس



هذا هو الهيكل العام المفصل لتقسيمات الجناس كما وردت عند الخطيب القزوينى فى الإيضاح أو ردناها فى صورة جدول ليسهل تصورها لتشعبهاوتقسيماتها الكثيرة ، وسنوضح هذه التقسيمات فيما بعد من خلال الأمثلة والشواهد لتستقر فى الذهن ، ولنرى من خلالها بعض ذخائرودقائق هذه اللغة التى اتسعت شواهدها لكل هذه التقسيمات وتفريعاتها كما اتسعت لغيرها من كل فنون وأفرع اللغة العربية التى وسعت كتاب الله لفظا وغاية .

الجناس وتقسيماته وأسراره

من خلال الأمثلة والشواهد

ينقسم الجناس إلى قسمين هما الجناس التام والجناس غير التام ، ويندرج تحت كل منهما تقسيمات عدة كما هو موضح فى هيكل التقسيمات ، وسنتناولها بالتفصيل فيما يلى :-

أولا : الجناس التام

الجناس التام غير المركب :

المقصود بالتمام هنا أن يتفق اللفظان فى أنواع الحروف الهجائية وأعدادها وهيئاتها وترتيبها ، وحتى يوصف بالتام لابد أن يتفقا فى الأمور الأربعة ، فإن اتفقا مع ذلك فى نوعية اللفظين كالاسمية مثلا سمى مماثلا كما فى قوله تعالى :(**ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة**) وقول الشاعر :

حدق الآجال آجال ٠٠ والهوى للمرء قتال[1]

---

[1] الحدق : واحده حدقة ، وهى سواد العين ، والمراد أن حدق النساء الشبيهة بحدق البقر الوحشى نهاية عمر من يراها ، لأنها تقتله بسهامها ٠

الآجال الأولى جمع إجل بالكسر ، وهى القطيع من البقر الوحشى ، والثانية جمع أجل ، والمراد به منتهى الأعمار ، والمعنى أن أحداق النساء الشبيهة بأحداق البقر الوحشى فى سعتها وحسنها تقتل من ترميه بسهامها .

ومنه أيضا قول أبى تمام :-
إذا الخيل جابت قسطل الحرب صدعوا
صدور العوالى فى صدور الكتائب (١)

والشاهد فى : صدور العوالى بمعنى أعالى الرماح ، وصدور الكتائب بمعنى نحورها

أما إذا لم يتفق اللفظان فى النوعية بأن كانا من نوعين مختلفين كاسم وفعل سمى مستوفي كقول أبى تمام : -

ما مات من كرم الزمان فإنه ٠٠ يحيا لدى يحيى بن الله

ومثله قول الآخر :-

وسميته يحيى ليحيا فلم يكن ٠٠ إلى رد أمر الله فيه سبيل

هذا إذا كان اللفظان المتفقان فى النوعية أو المختلفان فيها مفردين ، وهو الجناس التام غير المركب ، وقد تنوع إلى مماثل ومستوفى كما سبق .

الجناس التام المركب ، ويسمى أيضا جناس التركيب :

ويتنوع هذا الجناس إلى ثلاثة أنواع هى : المرفو والمتشابه والمفروق .

المرفو : وهو ما يكون فيه أحد اللفظين مركبا من كلمة وبعض كلمة والآخر مفردا كما فى قول الحريرى :

---

(١) القسطل : غبار الحرب ، صدعوا : أمالوا .

ولا تله عن تذكار ذنبك وابكه ٠٠ بدمع يحاكى الوبل حال مصابه
ومثل لعينيك الحمام ووقعــــه٠٠ وروعة ملقاه ومطعم صابـــــه

والشاهد هنا فى كلمة مصابه فى نهاية البيت الأول مجانسة للميم الأخيرة من كلمة مطعم مع كلمة صابه ، وبذلك كان اللفظ الثانى مركبا من كلمة وبعض كلمة ، والمعنى مختلف ، لأن مصابه الأولى بمعنى إصابته ،أى يحاكى المطر حال إصابته الأرض ، فهى مصدر ميمى ، وأما الثانية فهى بمعنى مرارته ، أى وطعم مرارة الموت ٠

المتشابه : ما كان اللفظ المركب منهما مكونا من كلمتين أو أكثر مع الاتفاق فى الخط كقول أبى الفتح البستى :-

إذا ملك لم يكن ذاهبة ٠٠ فدعه فدولته ذاهبــــــــة

والجناس هنا بين (ذاهبة) الأولى بمعنى صاحب عطاء فهى مكونة من كلمتين ، وبين كلمة (ذاهبة) الثانية ، بمعنى فانية ، وقد اتفقت الكلمتان فى الخط ٠

المفروق : ما كان أحد اللفظين مركبا من كلمة وبعض أخرى مع الاختلاف فى الخط كقول أبى الفتح أيضا :

كلكم قد أخذالجا ٠٠ م ولا جام لنـــــــا
ما الذى ضر مدير الجا٠٠م لو جاملنـــــــا[١]

والجناس هنا بين جام لنا فى البيت الأول وهما كلمتان ، و(جاملنا) فى الشطر الثانى من البيت الثانى ، وهى كلمة واحدة إن نظرنا إلى كتابتها ، أما إن نظرنا إلى تركيبها من الفعل والضمير فهما كلمتان أيضا ، وكلا الاعتبارين جائز ، والجام الأول بمعنى الكأس ، والثانية بمعنى المجاملة ، وقد اختلفت الكلمتان فى الخط ، ومثله قول الآخر :

---

[١] الجام : الكأس ، مدير الجام : الساقى ، جاملنا عاملنا بالجميل فأداره علينا جميعا ٠

لا تعرضن على الرواة قصيـــدة ٠٠ ما لم تبالغ قبل فى تهذيبهـــا
فمتى عرضت الشعر غير مهذب ٠٠ عدوه منك وساوسا تهذى بها

الجناس غير التام

ويسمى أيضا الناقص ن أو غير المتفق فى الحروف ، والاختلاف فى الحروف فى أى نـوع من أنـواع الاتفـاق الأربعـة السـابقة فـى الجناس التام ، وهى الاتفاق فى هيئات الحروف من حيث الحركـات والسكنات أو عدد الحروف او نوع الحروف أو ترتيب الحروف ٠
ونتناول فيما يلى كل اختلاف على حدة بالحديث المفصل ٠

الاختلاف فى هيئات الحروف (الجناس المحرف)

يسمى الجناس الذى اختلفت هيئات حروفه محرفا ، والاختلاف هنا قد يكون فى الحركة فقط كالبرد فى قولهم : جبة البرد جنة البرد أى الغطاء الثقيل المسمى جبة وقايـة من البرد ، وعليه قولـه تعـالى :" ولقد أرسلنا فيهـم منذريـن فـانظر كيـف كـان عاقبـة المنذريـن " وقد يكون الاختلاف بالحركة والتشديد كما فى قولك : الجهول إما مفـرط أو مفرط ، وقد يكون الاختلاف بين الحركة والسكون كما فى قولهم : البدعة شرك لشرك ، وكما فى قول أبى العلاء :-

والحسن يظهر فى بيتين رونقهِ
بيت من الشِّعر أو بيت من الشَّعَرَ

والجناس بين الشـعر المعروف ، وجمالـه فـى لفظـه ومعنـاه ، وأمـا الشعر فهو الصوف والوبـرَ اللذيـن كـانوا يصنعـون منهمـا البيـوت ، وجماله فى هيئة بنائه وجمال الساكنين فيه ٠

الاختلاف في عدد الحروف (الجناس الناقص)

وإذا كان الاختلاف فى عدد الحروف فقط بأن كان فى أحدهما زيـادة دون الآخر ، سمى ناقصا والنقص هنا يعنى عدم تمام الحـروف فـى كلا اللفظين ، والاختلاف هنا يأتى على وجهين : –

أ – أن يكون فى أحدهما زيادة حرف واحد على الآخر ٠

ب – أن يكون الزيادة فى أكثر مـن حرف ، فـان كـانت فـى حرف واحد فقد يكون فى الأول كقوله تعالى :(والتفت السـاق بالسـاق إلـى ربك يومئذ المساق) وقـد يكـون فـى الوسـط كقولهـم : جـدى جهـدى والكلمة الأولى بمعنى الحظ ، والثانية بمعنى المشقة والتعب ، أى ان حظى فى الدنيا هو ما أكد وأتعب فيه ، وقد يكون الزائـد فـى الآخـر كقول أبى تمام :

يمدون من أيد عواص عواصم ٠٠ تصول بأسياف قواض قواضب

والجنـاس هنـا بيـن : عـواص بمعنـى عـواص علـى الأعـداء ، أو عواص بمعنى يضربون الأعداء بالعصا ، وأما عواصم فهى بمعنى حوافظ ، أى أن أيديهم الممدودة بالعصيان للأعـداء أو التـى تضـرب بالعصا تحفظهم من أعدائهم وأيضـا فـى الشـطر الثـانى جنـاس بيـن قـواض وقواضـب ، والأولـى بمعنـى : قـاتلات ، والثانيـة بمعنـى قاطعات ومنه قول أبى تمام :

لئن صدفت عنا فربت أنفس ٠٠ صَواد إلى تلك الوجـوه الصـوادف

والجنـاس هنـا بيـن (صـواد) بمعنـى عطـاش ، وصـوادف بمعنـى معرضات،ومنه أيضا ماكتبـه بعـض ملـوك المغـرب الـى المعتمدبـن عباد يدعوه إلى مجلس أنس ، فقال :–

أيها الصاحب الذى فارقت عينى ونفسى منه السنا والسناء
نحن فى المجلس الذى يهب الرا٠٠حة والمسمع الغنى والغناء
نتعاطى التى تنسى من اللذ٠٠ ة والرقة الهوى والهواء

فأته تلف راحة ومحيا ‥ قدأ عدا لك الحيا والحياء[1]

وأحيانا يطلقون علىهذا النوع من الجناس مطرفا ، لأن الاختلاف بين اللفظين فى الطرف ومن أسرار حسن هذا النوع من الجناس خداع السامع ومفاجأته بمعنى لم يمكن يتوقعه ، فيجد له لذة فى نفسه لأنه عندما يسمع اللفظ الأول يظن أن الثانى تكرار له وبنفس معناه ، ثم يفاجأ بعد ذلك بزيادة حرف وتغيير المعنى فيكون ذلك مفاجأة له تستثير انتباهه ، وتأخذ بلبه ، وإن كانت هذه العلة للحسن يمكن فى عمومها أن تنسحب على كل أنواع الجناس إذا ما أغضينا الطرف عن الحرف الأخير ٠

وان كانت الزيادة فى أكثر من حرف فقد يطلقون عليه أحيانا مذيلا ، وكأن مازاد من حروف فى أخر الكلمة أصبح يشبه الذيل الممتد لما له ذيل ، ومن شواهده قول الخنساء :

إن البكاء هو الشفا ‥ ء من الجوا بين الجوانح

والجناس هنا بين الجوى ، بمعنى حرقة القلب ، والجوانح بمعنى الضلوع ، وواضح أن الزيادة هنا بحرفين ٠

<u>الاختلاف فى نوع الحروف</u>

أما اذا كان الاختلاف فى نوع الحروف فقد يكون مع التقارب بين الحروف المختلفة ، ويسمى مضارعا ، وقد لا يكون هناك تقارب بينهما ، ويسمى لاحقا ، وفى كلا النوعين ينبغى ألا يكون الاختلاف فى أكثر من حرف ٠ وسنفصل القول فى كلا النوعين بالشواهد ٠

<u>الجناس المضارع:</u>

---

[1] الراحة : باطن الكف ، والمحيا : الوجه ، والحيا : المطر ٠

هو ما يكون فيه تقارب بين الحرفين المختلفين وقد يكون ذلك فى الأول من كل منهما كما فى قول الحريرى : بينى وبين كنى ليل دامس وطريق طامس[١]وقد يكون فى الوسط كما فى قوله تعالى : وهم ينهون عنه وينأون عنه "[٢] وقد يكون فى الآخر كما فى قوله صلى الله عليه وسلم :" الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة:[٣] .

الجناس اللاحق

وهو ما لا يكون فيه تقارب بين الحرفين المختلفين، والحرفان المختلفان أيضا قد يكونان فى الأول كما فى قوله تعالى : ويل لكل همزة لمزة " ومن الفروق بين الهمزة واللمزة أن الهمزة الطعّان فى الوجه واللمزة الطعّان فى الخلف [٤]،ومنه قول الحريرى :" لا أعطى زمامى لمن يخفر ذمامى " وقد يكونان فى الوسط كما فى قوله تعالى :"ذلكم بما كنتم تفرحون" فى الأرض " بغير الحق وبما كنتم تمرحون وقوله جل شأنه : وإنه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد " وقد يكون فى الآخر كما فى قوله تعالى :" واذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذا عوابه " ومنه قول البحترى :-

هل لما فات من تلاق تلافى .. أم لشاك من الصبابة شافى

---

(١) ووجه التقارب بين الحرفين المختلفين هنا ، وهما الدال والطاء اتحاد المخرج ، إذ يخرجان من طرف اللسان مع أصول الثنايا .

(٢) الاختلاف هنا بين الهمزة والهاء ووجه تقاربهما اتحاد المخرج أيضا وهو الحلق .

(٣) التقارب بين اللام والراء فى المخرج أيضا وهو طرف اللسان مع اللثة العليا .

(٤) انظر روح المعانى للألوس ٣٠ /٢٣٠ مكتبة التراث .

الاختلاف فى ترتيب الحروف (جناس القلب)

أما إذا كان الاختلاف فى ترتيب الحروف ، وهو المسمى بجناس القلب) فيأتى على أربعة أوجه :-

أولها : قلب الكل كما فى قولهم :" حسامه فتح لأوليائه حتف لأعدائه" والجناس هنا بين فتح وحتف بمعنى فناء وهلاك ، ويلاحظ أن فى الثانية قلبا لكل حروف الأولى ٠

وثانيها : قلب البعض كما جاء فى الخبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم :" اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا) وقول بعضهم : رحم الله امرءا أمسك ما بين فكيه ، وأطلق ما بين كفيه ، ومنه قول أبى الطيب :-

ممنعة منعمة رداح ٠٠ يكلف لفظها الطير الوقوعا [١]

والجناس هنا بين ممنعة ومنعمة كما هو واضح ٠

وثالثها : ما يسمى بالمقلوب المجنح : وذلك إذا وقع أحد المتجانسين جناس القلب فى أول البيت ، ووقع الثانى فى آخره كما فى قول الشاعر :-

لاح أنوار الهدى من ٠٠ كفه فى كل حال

ووجه التسمية بالمقلوب واضحة لقلب الحروف فى كلمة (حال) بعد كلمى (لاح) وأما إطلاق المجنح عليه فلو قوع أولهما فى أول البيت وثانيهما فى اخره ، فأصبحا كجناحى طائر٠

ورابعها : ما يسمى بالمقلوب المزدوج أو المكرر أو المردد لوقوع اللفظ الثانى عقب الأول مباشرة ، ومن شواهده قوله تعالى : وجئتك من سبأ بنبأ يقين " وكذلك ما جاء فى الخبر : " المؤمنون هينون

---

(١) الرداح : ضخمة الألية ٠

لينون " وقولهم : من جد وجد " وقولهم من قرع بابا ولج ولج ، ومنه قول أبى تمام السابق :

يمدون من أيد عواص عواصم

تصول بأسياف قواض قواضب

ومن الملاحظ هنا أن بعض أنواع الجناس السابقة قد تتداخل مع هذين النوعين من جناس القلب ، أعنى النوع الثالث أو الرابع وذلك كقلب الكل فى (حتف وفتح) المذكور فى النوع الأول ، فهو مثل (لاح وحال) المذكور فى النوع الثالث ، وكما فى زيادة أكثر من حرف فى الجناس المذيل كما فى (عواص وعواصم) وقد اندرج في النوع الرابع هنا نظرا لوقوع اللفظين متعاقبين ، وكذلك أيضا (جدوجد) فى الجناس اللاحق ، فقد اندرج أيضا فى النوع الرابع للعلة السابقة •

هذا وتظهر القيمة البلاغية للجناس بصفة عامة والتام منه بصفة خاصة فى حسن الإفادة من إعادة اللفظ مرى أخرة بمعنى آخر ، وفى ذلك إثارة وحسن مفاجأة للسامع أو القارئ من المتكلم حيث توقع فى البداية إعادة اللفظ بمعناه ، ثم فوجئ به يأتى بمعنى آخر لم يكن متوقعا •

ما يلحق بالجناس

يلحق بالجناس شيئان :-

أحدهما : اتفاق اللفظين فى الاشتقاق أى فى الأصل المأخوذين منه كما فى قوله تعالى : فأقم وجهك للدين القيم " " لأن (أقم) و(قيم) مادتهما الأصية(ق و م) ومنه أيضا قوله تعالى :فروح وريحان وجنة نعيم " وقول النبى صلى الله عليه وسلم :" الظلم ظلمات يوم القيامه " وقول الشافعى رضى الله عنه لما سئل عن النبيذ " أجمع أهل الحرمين على تحريمه " وقول أبى تمام :

وأنجدتم من بعد إتهام داركم ٠٠ فيادمع أنجدنى على ساكنى نجد
يريد أنهم سكنوا فى نجد بعد أن كانوا من ساكنى تهامة ولذلك يعدوا عنه فيستغيث بدمعه أن ينجده على من سكنوا نجدا ٠
ومنه قول البحترى :-
يعشى عن المجد الغبى ولن ترى ٠٠ فى سؤدد أربا لغير أريب ٠
وثانيهما : أن يكون بين اللفظين شبه اشتقاق لا اشتقاق حقيقى كما فى قوله تعالى :" مالكم إذا قيل " لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ٠٠" فلما كانت الهمزة والراء والضاد واردة فى كل من الأرض ، وأرضيتم أوهم ذلك أن بينهما أصلا فى الاشتقاق مع أن كلا منهما ليس له علاقة بالاخر فى هذا الاصل لاختلاف المعنين وقس على ذلك أيضا :-
" قال إنى لعملكم من القالين " وجنى الجنتين دان " وقول البحترى
وإذا ما رياح جودك هبت ٠٠ صار قول العذول فيها هباء

****

السجع

مقدمة

السجع من المحسنات البديعية اللفظية التى تحتل قدر ا كبير فيه إن لم يكن متكلفا لما يضفيه على العبارة من حسن ووقع جميل فى النفس لأنه فيه أشبه بالقوافى فى الشعر ، فكما أن القوافى تحتل منزلة كبيرة من حسن الشعر وتأثيره فكذلك السجع فى النثر ولذلك يقول السكاكى : " الأسجاع فى النثر كالقوافى فى الشعر " كما يذكر ابن سنان الخفاجى عن قيمته فى الكلام " أنه مناسبة بين الألفاظ يحسنها ويظهر آثار الصنعة فيها ، ولولا ذلك لم يرد فى كلام الله

تعالى ، وكلام النبى صلى الله عليه وسلم والفصيح من كلام العرب وكما أن الشعر يحسن بتساوى قوافيه كذلك النثر يحسن بتماثل الحروف فى فصوله، ويجرى مجرى القوافى المحمودة "[١]

ولأهمية التناسب بين مقاطع الكلام نلاحظ أنه لم يقتصر أحيانا على الفواصل القرآنية ، بل قد يمتد الى داخل قرينة [٢] الفاصلة نفسها ، كما فى قوله جل شأنه :" ولستم بآخذيه إلاأن تغمضوافيه " وقوله : يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم ، وقوله : أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم " وقوله : إنى وهن العظم منى " وقوله " ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم " وغير ذلك من الآيات الواردة فى هذا الاطار .

ولأهمية التناسب فى المقاطع وجدنا العرب أحيانا يغيرون فى بنية بعض الألفاظ من أجل الحفاظ على السجعة كمافىقولهم : آتيك بالغدايا والعشايا ، والاصل الغدوات وكما فى قول بعضهم :

هناك أخبية ولاج أبوية .. يخالط البر منه الجد واللينا

والأصل أن يقول : أبواب ، وفى الحديث الشريف : لادريت ولا تليت ، والأصل ولا تلوت ، ومنه أيضا : أعيذه من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة " والأصل ملمة ، وقوله عليه الصلاة والسلام للنساء اللاتى خرجن وراء جنازة : " ارجعن مأزورات غير مأجورات " والأصل موزورات ، وستأتينا فى موضع آخر شواهد عديدة لمخالفة بعض الفواصل القرآنية للظاهر فيها من أجل تناسب

---

(١) سر الفصاحة ١٦٤ تعليق عبدالمتعال الصعيدى .

(٢) القرينة : قطعة من الكلام جعلت مزاوجة لأخرى أى مناظرة لها ، كما فى قولهم : ما أبعد ما فات وما أقرب ما هو آت .

الفواصل وإن كان ذلك فى القرآن الكريم غرضا تابعا للغرض الأصلى من العبارة كما سيأتى .

هذا ومن أهم مزايا السجع فضلا عن تأثيره النفسى أنه يساعد على حفظ الكلام واختزانه فى الذاكرة لسهولة ترداده وتذكره ، ولذلك كان حفظ الشعر أيسر من حفظ النثر ، وحفظ النثر المسجوع أيسر من حفظ النثر المرسل ، يقول الجاحظ :
" قيل لعبد الصمد بن عيسى الرقاشى : لم تؤثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافى وإقامة الوزن ؟ قال : إن كلامى لو كنت لا آمل فيه الا سماع الشاهد لقل خلافى عليك ، ولكنى أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر ، فالحفظ إليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقليد وبقلة التفلت وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون فلم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره [١] .

ولا يخفى أثر الكلام الموزون شعرا ونثرا فى المساعدة على الحفظ عند أم أمية لا تعرف الكتابة ، وانما تعتمد على الحفظ ولعل هذا يشير أيضا إلى شئ من السر فى كثرة رعاية الفواصل[١] فى القرآن الكريم للمساعدة على حفظه ، وليس ببعيد عن أن يدخل ذلك فى عموم قوله تعالى : (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) كما أشار اليه بعض المفسرين ، وإن كان ذلك يأتى فى

---

[١] البيان والتبين ١/ ١٩٤ الجاحظ دار الفكر للجميع .

[١] الفواصل فى القرآن الكريم مقابلة للأسجاع فى الكلام العربى ، وسنذكر شيئا من السر فى إطلاق الفواصل دون الأسجاع فى القرآن الكريم فى الموطن المناسب .

رعاية فواصل القرآن الكريم بعد الوفاء بالغرض المقصود من الكلام كما سيأتى فى دراسة بعض الفواصل القرآنية .

ومسألة طرب العربى الأول بحسن النغم ليست خاصة به ، وإنما هى فطرة فى الأنسان بدليل أن البشرية التى تعرف العربية مازالت تطرب قديما وحديثا بهذا الوقع الصوتى الجميل للقرآن الكريم ، وتنفعل به ، وإن كان العربى الأول كان أشد تأثرا به نظرا لطبيعة حياته التى ألمحنا الى شئ منها ، بل إن غير العربى ، بل وغير المسلم أيضا إذا سمع القرآن بآذان صاغية يجد له وقعا حسنا فى نفسه ، وكثيرا مادفع ذلك بعضهم الى الاستجابة لداعى القرآن، ونورد فيما يلى بعد هذه المقدمة عن قيمة السجع بعض التفاصيل لهذا الفن البديعى من المحسنات اللفظية .

يقول الفيروز أبادى عن السجع : (الكلام المقفى أو موالاة الكلام على روى واحد ، والجمع أسجاع ... وسجعت الحمامة : رددت صوتها فهى ساجعة وسجوع والجمع سجع كركع وسواجع والساجع القاصد فى الكلام وغيره ، والناقة الطويلة أو المطربة فى حنينها ، والوجه المعتدل الحسن الخلق (القاموس المحيط ـ مادة سجع)

نلاحظ هنا أن صاحب القاموس أورد عدة معان للسجع يعنينا منها ماذكره من أنه الكلام المقفى ، أى المتفق فى الأواخر كالشعروهذا ماوضحه فى المعنى الثانى بقوله : موالاة الكلام على روى واحد ، ثم ذكر أيضا أن أصل معناه مأخوذ من سجع الحمامة : أى ترديد صوتها ترديدا منتظما ، أو من صوت الناقة المطربة فى حنينها على طريقة منتظمة .

ولعل هذا الأصل فى معنى السجع المستمد من صوت الحمامة أو الناقة هو الذى حدا ببعض البلاغيين والنقاد إلى الأنفة من إطلاق لفظ السجع على مافى القرآن الكريم من اتفاق فى أواخر الآيات

ولذلك آثروا أن يسموا هذا رعاية فواصل لاسجعا ، لعدم ملاءمة أصل معنى السجع للقرآن الكريم ، وسنزيد هذه المسألة وضوحا فيما بعد فى الدراسة التطبيقية .

ونستخلص مما نقدم تعريفا محددا للسجع هو ماذكره الخطيب القزوينى بقوله : (تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد أى اتفاق الكلمتين الأخرتين من الفقرتين على حرف واحد)، ويأتى السجع على ثلاثة أضرب ، نوضحها فيما يلى :

أضرب السجع

السجع المطرف : هو اتفاق الفاصلتين فى الحرف الأخير مع الأختلاف فى الوزن ، كما فى قوله تعالى : (مالكم لاترجعون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا) فمع اتفاق الفاصلتين فى الحرف الآخير وهو الراء لكن وزن الكلمتين مختلف ، ويسمى مطرفا ، لأن الاتفاق هنا كان فى الطرف فقط ، وهو الحرف الأخير .

السجع المرصع : هو اتفاق الفاصلتين فى الحرف الأخير مع اتفاق الكلمات الأخرى للفقرتين أو معظمها فى الوزن ، وذلك كما فى قول الحريرى : فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظة " والملاحظ هنا أن الأتفاق بين الفقرتين كان كاملا ، لكن إذا لاحظنا أن (فهو) فى الفقرة الأولى ليس لها نظير فى الثانية ، أو لاحظنا أننا يمكن أن نستبدل بالأسماع فى الفقرة الثانية الآذان كان الاتفاق فى الجل (المعظم) لا الكل ، وهذا النوع من السجع أعلى أنواعه لأنه يقوم على الأتفاق الكامل أو القريب منه فى جميع ألفاظ الفقرتين دون ألاقتصار على الآخر فقط ، لكن ينبغى ألا تطول الفقرتان كثيرا ، أو ألا يكثر فى الكلام ، لأنه سيؤدى الى التكلف الممقوت فى المحافظة على الاتفاق الكامل فى الفقرتين أو فى معظمها ، ومن الترصيع الحسن : قوله تعالى : (إن إلينا إيابهم ثم

إن علينا حسابهم) وسمى مرصعا تشبيها لـه بـالترصيع فـى العقد ، وهو جعل إحدى اللؤلؤتين مثل اللؤلؤة المقابلة لها فيه ، أو كما يقـول الخفاجى : (وكأن ذلك شبه بترصيع الجوهرة فى الحلى) [1]

السجع المتوازى : هو ما اتفقت فاصلتاه فـى الـوزن والتقفيـه دون اتفاق باقى الألفاظ الأخرى فيهما مطلقا ، أو على قلة ، كما فى قولـه تعالى : (فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة) ومن دعـاء النبـى صلى الله عليه وسلم : (اللهم إنى أدرأ بك فى نحورهم ، وأعوذ بك من شرورهم) وسمى متوازيـا لاتفـاق الفـاصلتين وزنـا وتقفيـة فكـل منهما موازية للأخرى فى ذلك .

ويلاحظ هنا فى الاتفاق بين الأنواع الثلاثة السابقة فى السجع مايلى:

١ ـ اتفـاق السـجع المطـرف والمرصـع والمتـوازى علـى ضـــرورة الاتفـاق فـى الحـرف الأخير مـن الفاصلـة السـجعية ، وهـى الكلمـــة الأخيرة فى الفقرة ، لتتحقق ماهية السجع .

٢ ـ السجع المطرف : ليس فيـه اتفـاق آخـر فـى الألفـاظ مـن حيـث الوزن أو التقفية .

٣ ـ السجع المرصع : يضاف فيـه الـى الاتفـاق فـى الحـرف الأخـير الاتفاق فى الوزن والتقفية أيضا فى كلمات الفقرتين أو معظمها .

٤ ـ السجع المتوازى : وسط فى الاتفاق بين الفقرتين ، حيث يضاف فيه الى الاتفاق فى الحرف الأخير من الفاصلتين الاتفاق فـى الـوزن أيضا ، وقد يضاف الى ذلك بعض اتفاق قليـل فـى الـوزن أو التقفيـه فى بقية الكلمات الأخرى .

ويذلك يكون السجع المرصع أعلى أنـواع السـجع ، يليـه السـجع المتوازى ، ثم السجع المطرف .

---

[1] سر الفصاحة ١٩٠

هذا ومن أهم شروط حسن السجع : اختلاف الفقرتين فى المعنى ، حتى لايكون متكلفا كما فى قول الصاحب بن عباد : طاروا واقين بظهورهم صدورهم ، وبأصلابهم نحورهم " إلا إذا استدعى المقام توكيد الفقرة الثانية للأولى كما فى قوله تعالى : (قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس)

كما يشترط لحسنه أيضا أن تكون الألفاظ فيه تابعة للمعانى ، لا العكس ، بأن يقصد المتكلم الى السجعة أولا ، ثم يلتمس أى معنى يتفق مع هذه السجعة كما قال الصاحب بن عباد للقاضى : أيها القاضى بقم ، قد عزلناك فقم " ولذلك قال القاضى : والله ماعزلنى إلا هذه السجعة ، كما ورد أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم حكم بغره فى جنين إمرأه ضربتها أخرى فسقط جنينها ميتا ، فقال رجل لم يرقه هذا الحكم : كيف ندى من لاشرب ولاأكل ، ولاصاح فاستسهل ، ومثله دمه يطل " أى يهدر دمه ، فقال صلى الله عليه وسلم : (إياكم وسجع الكهان) حيث كانوا يتكلفونه لتنميق العبارة ، ليلبسوا فيه الحق بالباطل ، أو ليخدعوا غيرهم ، وكله متكلف ليس فيه حق ولاصدق يستدعيه الغرض النبيل من الكلام ، وسنورد فى موطن آخر تأكيد الإمام عبد القاهر الجرجانى على البعد عن التكلف فى كل من الجناس والسجع .

تفاوت درجات الحسن فى السجع :

ذكروا أن أعلى درجات السجع ما تساوت فقراته فى عدد الكلمات كما فى قوله تعالى : (فى سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مكسوب) ويليه فى الحسن ماطالت فقرته الثانية طولا غير كبير كما فى قوله تعالى : (والنجم إذا هو ماضل صاحبكم وماغوى) أو طالت الثالثه طولا محدودا أيضا كما فى : (خذوه فغلوه ثم الى الجحيم صلوه) وقد اجتمع التدرج فى الطول بين الثانية

والثالثة فى قوله جل شأنه : (والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)

هذا عن التدرج فى الطول من حيث الحسن ، أما عن التدرج فى القصر ، أى من الطول إلى القصر فإن ذلك لايحسن إلا إذا كان القصر قليلا كما فى قوله تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم فى تضليل) أما وجه عدم حسن القصر الكبير فى السجعة الثانية بعد طول الأولى فيرجع الى ناحية نفسيه ذوقية مهمة ، ذلك أن الفقرة الأولى إذا استوفت أمدها من الطول بقيت النفس متطلعة الى مساواة الثانية لها فى الطول أو زيادتها فى الطول عن الأولى على النحو الذى سبق ، لكنها إذا فوجئت بقصرها الكبير عن الأولى كان ذلك أشبه بالبتر ، والقصور عن تحقيق الغاية النفسية المرجوة ، فما أشبه ذلك بمن يريد الانتهاء الى غاية معينة ولكنه يتعثر فى الوصول الى تحقيقها ، فتحدث له صدمة نفسية .

هذا عن علاقة حسن السجع فى الطول أو القصر ، أما أنواع السجع فى ذاتها ، فمنه القصير كما فى قوله تعالى : (والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا) ويقابله الطويل كما فى قوله تعالى : (إذ يريكم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور. وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا والى الله ترجع الأمور) .

ومنه المتوسط أيضا كما فى قوله تعالى : (اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) .

هذا ومسألة الطول أو القصر فى السجع أو الألتزام بمقدار معين من الطول أو القصر ليست مسألة شكلية ، بمعنى أن يقصد المتكلم أولا إلى أن يعبر عن مقصوده بسجع ملتزم فى القصر أو الطول أو المخالفة بينهما ، لأن السجع الوارد على ذلك سجع شكلى

متكلف ، وإنما ينبغى أن يقصد المتكلم بالسجع إلى المعانى المرادة أولا ، ثم تستدعى المعانى بعد ذلك سجعا طويلا أو قصيرا أو متفاوتا بين الطول والقصر بحسب المقاومات التى تستدعى ذلك ، ومن هنا يصبح أى لون من ألوان السجع بليغا فى مقامه ، وأما المقارنة بين درجات الحسن من حيث الطول أو القصر أو التوسط فهى مقارنة ذاتية لاعلاقة لها بالمقام .

هذا ومما ينبغى التنبيه عليه ونحن نتحدث عن حسن السجع أن هذا الحسن موقوف على سكون أعجاز فواصل السجعات ، أى الحرف الأخير منها ، لأن بهذا السكون يظهر حسن النغمة الصوتية كما فى قولهم (ماأبعد مافات وماأقرب ماهو آت) بسكون التاء فى الفقرتين ، لأننا لو لم نصنع ذلك وراعينا مايقتضيه الإعراب فى النطق ، فقلنا : ماأبعد مافاتَ وماأقربَ ماهو آتٍ ، ضاع حسن النغمة السجعية ووقعها فى النفس ، إلا إذا اتفق التسكين مع مقتضى الإعراب كما فى قوله جل شأنه (قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولاتمنن تستكثر ولربك فاصبر) لأن الراء فيها ساكنة [1] وقفا وإعرابا ، لكن تضيع قيمة السجعة فى الآية الأولى : (ياأيها المدثر) إذا راعينا حركتها الإعرابية لأن الراء مضمومة فيها إعرابا ، ساكنة وقفا ، وقس على ذلك شواهد أخرىومنها (تستكثر) فى الآية الكريمة السابقة .

والخلاصة أننا إذا أردنا إبراز النغمة الصوتية المؤثرة للسجع فى الكلام فلابد من الوقوف على كل سجعة بالتسكين ، وذلك مغتفر من أجل هذه الغاية ، ويعضد ذلك أنهم إذا كانوا يجيزون التغيير فى بنية الكلمة من أجل الحفاظ على قيمة السجع كما فى قولهم : آتيك بالغدايا والعشايا "بدلا من الغدوات والعشايا ، وكما فى قوله

[1] ما عدا (تستكثر) لأنها مرفوعة .

صلى الله عليه وسلم السابق : (ارجعن مأزورات غير مأجورات) بدلا من موزورات فلأن يتسامحوا بتغيير الحركة إلى السكون فى آخر الكلمة من باب أولى ، لأن الأواخر مظنة التغيير غالبا ، فيغتفر فيها مالايغتفر فى بنية الكلمة .

السجع والشعر

المشهور أن السجع خاص بالنثر كما أن القافية خاصة بالشعر ، لكن أجاز بعضهم وقوع السجع فى الشعر أيضا ليضاف حسن السجع إلى حسن الوزن فى الشعر ، ومنه قول أبى تمام :

تجلى به رشدى وأثرت به يدى
وفاض به ثمدى وأورى به زندى[١]

وقول الخنساء فى أخيها صخر :

حامى الحقيقة محمود الخليفة
مهدى الطريقة نفاع وضرار

وقول الآخر :

ومكارم أوليتها متبرعا وجرائم ألغيتها متورعـــــا

ولكن الالتزام بالسجع فى داخل الأوزان الشعرية للشعر مع أن السجع فى أصله يقوم على الاتفاق فى الحرف الأخير وقد ينضم اليه الاتفاق فى الوزن أيضا كما سبق مدعاة الى التكلف غالبا ، حيث يحرص الشاعر على هذه الموازنة المزدوجة والاتفاق المتضاعف فى داخل الأبيات قبل الحرص على الفكرة المقصودة منها .

ويلاحظ على بيت الخنساء السابق عدم الاتفاق بين العروض والضرب[٢] فى التقفيه ، لأن القائل بجواز وقوع السجع فى الشعر لايشترط هذا الاتفاق ، ومنه قول الشاعر :

---

(١) الثمد المراد به هنا المال القليل ، وهو فى الأصل : الماء القليل ، والزند : العود الأعلى الذى يقدح به النار فى الورى وهو كناية عن الظفر بالمطلوب

(٢) العروض آخر جزء من الشطر الأخير فى البيت ، والضرب هو الجزء الأخير من الشطر الأول .

وزند ندى فواضله ورى   ورند ربى فضائله نضير [١]

والتقفيه هنا بين العروض (نضير) والضرب (ورى) غير متحققة مع تحققها بين : زند وفواضله فى الشطر الأول ، ومايقابلهما فى الشطر الثانى ، وهو رند وفضائله .

التشطير : وعلى القول بوقوع السجع فى الشعر نجد نوعا منه أطلقوا عليه التشطير ، وهو أن يجعل كل من شطرى البيت سجعة مستقلة مخالفة للسجعة الأخرى كما فى قول أبى تمام :

تدبير معتصم بالله منتقم   لله مرتغب فى الله مرتقب

فالسجعة الأولى فى الشطر الأول ميم ، وفى الثانية باء ، وقد اتفقت كل منهما فى شطرها .

التصريع : وعلى هذا الرأى أيضا نجد نوعا آخر من السجع فى الشعر أطلقوا عليه التصريع ، وهو جعل العروض مقفاة تقفية الضرب ، وقد أكثر منه الشعراء فى مطالع قصائدهم ، بل إن بعضهم لم يكتف فيه بالمطلع فى البيت الأول فالتزمه فى عدة أبيات بعده كما فى قول عنترة بن شداد فى مطلع معلقته :

هل غادر الشعراء من متردم   أم هل عرفت الدار بعدتوهـــم

أعياك رسم الدار لم يتكلـــم   حتى تكلم كالأصم الأعجــــم

يادار عبلة بالجواء تكلمـــى   وعمى صباحا دار عبلة واسلمى

ومن تصريعهم فى البيت الأول فقط قول امرئ القيس فى مطلع قصيدته المشهورة :

ألاعم صباحا أيها الطلل البالى وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

وقول أبى فراس :

---

[١] الزند : العود الأعلى الذى يقدح النار ، والفواضل : العطايا والورى : قدح العود لاستخراج النار ، والرند نبات طيب الرائحة ، والربى جمع ربوة وهى المكان العالى .

بأطراف المثقفة العوالى تفردنا بأوساط المعالى

ومن ولع الشعراء بالتصريع فى مطالع قصائدهم ، لأنه من عوامل جذب السامع وإثارته للقصيده اغتفروا شيئا من المخالفة فى الوزن بين العروض والضرب من أجل هذا المحسن البديعى .

الموازنة والمماثلة : قبل أن ننهى الحديث عن الجزء الأول المتعلق بالجانب النظرى من السجع يجدر بنا أن نشير الى نوعين آخرين شبيهين به ، وهما الموازنة والمماثلة ، وإنما أخرنا الحديث عنها الى مابعد الحديث عن السجع فى الشعر لأمرين : أولهما : أن هذين النوعين يأتيان فى النثر والشعر كما سنوضح بالشواهد ، وثانيهما أن حرف التقفية ليس واحدا فيهما ، ولنوضح ذلك بالشواهد فيما يلى :

فى قوله تعالى : (ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة) نجد أن الكلمتين الأخرتين متفقتان فى الوزن دون التقفية فى الحرف الأخير ، وهذا مايسمى بالموازنة ، للأتفاق فى الوزن فقط ، وفى الكلمة الأخيرة دون ماقبلها .

أما إذا انضاف الى هذا الأتفاق فى الوزن اتفاق آخر فيه أيضا فى ألفاظ الفقرتين كلها أو غالبها فإن ذلك يسمى مماثلة ، للتماثل الكامل أو الغالب فى الوزن ، وذلك كما فى قوله تعالى : (وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم) وهذا اتفاق فى الكل كما هو واضح ومن الاتفاق فى غالب الألفاظ قول أبى تمام :

مها الوحش إلا أن هاتا أوانس قنا الخط إلا أن تلك ذوابل

لأن الألفاظ كلها متفقة فى الوزن بين الشطرين ماعدا (هاتا وتلك) ومثله قول البحترى وإن كان اتفاقا فى الكل على نحو الآية الكريمة السابقة :

فأحجم لما لم يجد فيك مطمعا وأقدم لما لم يجد عنك مهربا

ومن الواضح مما سبق أن الاتفاق فى الموازنة كان فى وزن الفاصلتين من الفقرتين دون التقفية ، أى دون الاتفاق فى الحرف الأخير فيهما ، وكذلك فى المماثلة كان الاتفاق فى الوزن بين الألفاظ كلها أو معظمها دون الاتفاق فى الحرف الأخير منها ، لأنه لو حدث الاتفاق فى الحرف الأخير أيضا مع الاتفاق فى الوزن فى الموازنة والمماثلة لدخل كل منهما فى السجع الحقيقى الذى يقوم أولا وبالذات على الاتفاق فى الحرف الأخير من الفاصلتين أو الفواصل التى ينتهى عندها الكلام ، سواء التقى مع ذلك اتفاق آخر فى الوزن على مستوى الكلمة الأخيرة فقط أو ماقبلها أم لم يلتق كما سبق فى الحديث عن السجع المطرف والموازى والمرصع .

عبد القاهر الجرجانى
وأساس الحسن فى الجناس والسجع

ألمحنا فيما سبق الى أساس الحسن فى الجناس والسجع ، وهما من أبرز المحسنات اللفظية ، وأشرنا إشارات متفرقة وموجزة الى أن أصل الحسن فى هذين اللونين من البديع يرجع الى استدعاء المعنى لهما دون أن يكون المقصد الأولى منهما هو الزخرف اللفظى ، والحسن الشكلى .

ونقتطف فيما يلى بعض عبارات لشيخ البلاغة عبدالقاهر الجرجانى الذى أكد على هذه القضية ، ومن خلال الشواهد أيضا ، لأنه يرى سقوط الكثير من الشعراء والكتاب عن تحقيق الغاية ، والسمو بهذين الفنيين من فنون البديع الى الدرجة السامية التى تبرز حسن كل منهما فى غير استكراه أو تكلف ، ومن خلال عباراته ستبرز أيضا بعض الفوائد المهمة فى موقع كل من اللفظ والمعنى فى الوفاء

بالغرض المقصود ، يقول رحمه الله :[١] " أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا اذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميدا ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا ، أتراك استضعفت تجنيس أبى تمام فى قوله :

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت ٠٠ فيه الظنون : أمَذْهب أم مُذهِب

واستحسنت تجنيس القائل : "حتى نجا من خوفه وما نجا"[٢] وقول الشاعر :-

ناظراه فيما جنى ناظراه ٠٠ أو دعانى أمت بما أودعانى

لأمر يرجع إلى اللفظ ؟ أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت فى الثانى ، ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفا مكررة ، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكرة ، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها ، فبهذه السريرة صار التجنيس – وخصوصا المستوفى[٣] منه المتفق فى الصورة من حلى الشعر – ومذكورا فى أقسام البديع ٠

فقد تبين لك أن ما يعطى التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن ، ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن ، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به ، وذلك أن المعانى لا تدين فى كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه ، إذ الألفاظ خدم المعانى والمصرفة فى حكمها ، وكانت المعانى هى

---

[١] أسرار البلاغة ٤ ومابعدها تعليق محمد رشيد رضا مطبعة المنار – الطبعة السابقة ٠

[٢] نجا الأولى بمعنى أحدث والثانية بمعنى خلص ٠

[٣] سبق الحديث عن هذا النوع من الجناس ٠

المالكة سياستها ، المستحقة طاعتها ، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشئ عن جهته ، وأحاله عن طبيعته ، وذلك مظنة من الاستكراه ، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين ، ولهذه الحالة كان كلام المتقدمين الذين تركوا فضل العناية بالسجع ، ولزموا سجية الطبع أمكن فى العقول ، وأبعد من القلق ، وأوضح للمراد ، وأفضل عند ذوى التحصيل ، وأسلم من التفاوت ، وأكشف عن الأغراض ، وأنصر للجهة التى تنحو نحو العقل ، وأبعد من التعمد الذى هو ضرب من الخداع بالتزويق ، والرضى بأن تقع النقيصة فى نفس الصورة وذات الخلقة إذا أكثر فيها من الوشم والنقش ، وأثقل صاحبها بالحلى والوشم ... كما قال :-

إذا لم تشاهد غير حسن شياتها .. وأعضائها فالحسن عنك مغيب [1]

وقد تجد فى كلام المتأخرين الآن كلاما حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسم فى البديع إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم ، ويقول ليبين ، ويخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع فى بيت فلا ضير أن يقع ما عناه فى عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه فى خبط عشواء ، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده ، كمن ثقل العروس بأصناف الحلى ، حتى ينالها فى ذلك مكروه فى نفسها .

فإن أردت أن تعرف مثالا فيما ذكرت لك من أن العارفين بجواهر الكلام لا يعرجون على هذا الفن إلا بعد الثقة بسلامة المعنى وصحته ، والا حيث يأمنون جناية منه عليه وانتقاصا له وتعويقا دونه فانظر إلى خطب الجاحظ فى أوائل كتبه ، هذا والخطب من شأنها أن يعتمد فيها الأوزان والاسجاع ، فانها تروى وتتناقل تناقل الاشعار ، ومحلها محل النسيب والتشبيب من الشعر

---

[1] الشية : العلامة واللون ، والحديث هنا عن الخيل .

الذى هو كأنه لا يراد منه إلا الاحتفال فى الصنعة ، والدلالة على مقدار شوط القريحة ، والاخبار عن فضل القوة ، والاقتدار على التفنن فى الصفة قال فى أول كتاب الحيوان "٠

" جنبك الله الشبهة ،وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة سببا ، وبين الصدق نسبا ، وحبب إليك التثبت ، وزين فى عينك الإنصاف ، وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عز الحق ، وأودع صدرك برد اليقين ، وطرد عنك ذل اليأس ، وعرفك ما فى الباطل، من الزلة ، وما فى الجهل من القلة فقد ترك أولا أن يوفق بين الشبهة والحيرة فى الاعراب ، ولم ير أن يقرن الخلاف إلى الإنصاف ، ويشفع الحق بالصدق ، ولم يعن بأن يطلب لليأس قرينة تصل جناحه ، وشيئا يكون رديفا له ، لأنه رأى أن التوفيق بين المعانى أحق ، والموازنة فيها أحسن ، ورأى العناية بها حتى تكون إخوة من أب وأم ، ويذرها على ذلك تتفق بالوداد ، على حسب اتفاقها بالميلاد – أولى من أن يدعها لنصرة السجع ، وطلب الوزن أولاد علة عسى ألا يوجد بينها وفاق إلا فى الظواهر ، فأما أن يتعدى ذلك إلى الضمائر ، ويخلص إلى العقائد والسرائر ففى الأقل النادر "٠

" وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسا مقبولا ، ولا سجعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق نحوه ، وحتى تجده لا تبتغى به بدلا ، ولا تجد عنه حولا ، ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه ، ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه ، وتأهب لطلبه ، أو ما هو– لحسن ملاءمته إن كان مطلوبا – بهذه المنزله وفى هذه الصورة ، وذلك كما يمثلون به أبدا من قول الشافعى رحمه الله تعالى – وقد سئل عن النبيذ– فقال

: أجمع أهل الحرمين على تحريمه ، ومما تجده كذلك فى قول البحترى :

يعشى عن المجد الغبى ولن ترى ٠٠ فى سؤدد أربا لغير أريب

ثم يقول : -

" ومثال ما جاء من السجع هذا المجيء ، وجرى هذا المجرى فى لين مقادته ، وحل هذا المحل من القبول قول القائل :" اللهم هب لى حمدا ، وهب لى مجدا ، فلا مجد إلا بفعال ، ولا فعال الا بمال ، وقول ابن العميد : فان الابقاء علىخدم السلطان عدل الإبقاء على ماله ، والإشفاق على حاشيته وعياله عدل الاشفاق على ديناره ودرهمه ٠

" ولست تجد هذا الضرب يكثر ويستمر كثرته واستمراره فى كلام القدماء كقول خالد : ما الإنسان لولا اللسان الا صورة ممثله ، وبهيمة مهملة ، وقول الفضل بن عيسى الرقاشى : سل الأرض فقل : من شق أنهارك ، وغرس أشجارك وجنى ثمارك ؟ فإن لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا ٠

وإن أنت تتبعته من الأثر وكلام النبى عليه الصلاة والسلام تثق كل الثقة بوجودك له على الصفة التى قدمت ، وذلك كقول النبى صلى الله عليه وسلم :" الظلم ظلمات يوم القيامة " وقوله صلوات الله وسلامه عليه : لا تزال أمتى بخير مالم ترا الغنى مغنما ، والصدقة مغرما ، وقوله :" يأيها الناس : أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام "٠

فأنت لا تجد فى جميع ما ذكرت لفظا اجتلب من أجل السجع ،وترك له ما هو أحق بالمعنى منه ، وأبر به ، وأهدى الى مذهبه ، ولذلك أنكر الاعرابى - حين شكا إلى عامل ألما بقوله : حلأت

ركابى [1] ، وشققت ثيابى وضربت صحابى ، فقال له العامل : ويسجع أيضا – إنكار العامل السجع ، حتى قال : فكيف أقول ، وذاك أنه لم يعلم أصلح لما أراد من هذه الألفاظ ، ولم يره بالسجع مخلا بمعنى ، أو محدثا فى الكلام استكراها ، أو خارجا إلى تكلف ، واستعمال لما ليس بمعتاد فى غرضه : وقال الجاحظ لأنه لو قال : حلأت إبلى أو جمالى أونوقى أو بعرانى أوصرمتى [2] لكان لم يعبر عن خفى معناه ، وإنما حلئت ركابه ، فكيف يدع الركاب إلى غير الركاب؟ وكذلك قوله : وشققت ثيابى ، وضربت صحابى •

فقد تبين من هذه الجملة أن المعنى المقتضى اختصاص هذا النحو بالقبول : هو أن المتكلم لم يقد المعنى نحو التجنيس والسجع ، بل قاده المعنى إليهما ، وعبر به الفرق [3] حتى إنه لورام تركهما إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع لدخل من عقوق المعنى وإدخال الوحشة عليه فى شبيه بما ينسب إليه المتكلف للتجنيس المستكره ، والسجع النافر "•

" ولن تجد أيمن طائرا ، وأحسن أولا وآخرا ، وأهدى إلى الاحسان ، وأجلب للاستحسان ، من أن ترسل المعانى على سجيتها ، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها ، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها ، فأما أن تضع فى نفسك أنه لابد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذى أنت منه بعرض الاستكراه ، وعلى خطر من الخطأ والوقوع فى الذم ، فإن ساعدك الجّد كما ساعد فى قوله : أو دعانى أمت بما أودعانى " وكما ساعد أبا تمام فى نحو قوله : –

---

[1] الركاب : بالكسر : المطى ، حلأت ركابى : منعتها ورود الماء •

[2] الصرمة : القطعة من الإبل •

[3] الفرق بالفتح الفصل بين الشئين •

وأنجدتم من بعد إتهام داركم .. فيادمع أنجدنى على ساكنى نجد
وقوله :

هن الحمام فإن كسرت عيافة [١] .. من حائهن فإنهن حمام

فذاك ، وإلا أطلقت ألسنة العيب ، وأفضى بك طلب الإحسان من حيث لم يحسن الطلب إلى أفحش الاساءة وأقبح الذنب " ثم يقول : " واعلم أن النكتة التى ذكرتها فى التجنيس وجعلتها العلة فى استيجابه الفضيلة ، وهى حسن الإفادة مع أن الصورة صورة التكرير والاعادة ، وإن كانت لا تظهر الظهور التام الذى لا يمكن دفعه إلا فى المستوفى المتفق الصورة منه كقوله :

ما مات من كرم الزمان فإنه .. يحيا لدى يحيى بن عبدالله .

او المرفو الجارى هذا المجرى كقوله : أودعانى أمت بما أودعانى"[٢] فقد يتصور فى غير ذلك من أقسامه أيضا[٣] ، فمما يظهر ذاك فيه ما كان من نحو قول أبى تمام :-

يمدون من أيد عواص عواصم .. تصول بأسياف قواض قواضب

وقول البحترى :-

لئن صدفت عنا فربت أنفس . صواد إلى تلك الوجوه الصوادف[٤]

وذلك أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة كالميم من عواصم ، والباء من قواضب : أنها هى التى مضت ، وقد أرادت أن تجيئك ثانية ، وتعود إليك مؤكدة ، حتى اذا تمكن فى نفسك تمامها ، ووعى سمعك آخرها انصرفت عن ظنك الأول ، وزلت عن الذى سبق من

---

[١] العيافة : زجر الطير ، والمقصود هنا التفاؤل بها فى حال فتح الحاء أو التشاؤم فى حال كسرها ، فاذا زجرتها فطارت على خلاف مرادك كانت بالنسبة لك حماما بكسر الحاء لا حماما بفتحها .

[٢] سبق الحديث عن الجناس المستوفى والمرفو .

[٣] سبق الحديث عن أقسامه الأخرى .

[٤] سبق الحديث أيضا عن الجناس فى البيتين .

التخيل ، وفى ذلك ما ذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالجك اليأس منها ، وحصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال"٠

وسنترك هذه العبارات دون تعقيب بعد أن مهدنا لها فيما سبق ، ليستنبط منها القارئ بنفسه ما يشاء من ضوابط حول الجناس والسجع وبعض القضايا الأخرى التى أشار إليها عبدالقاهر فى أثناء حديثه عن السجع والجناس ، وقد ألمحنا فيما سبق الى بعض محاور حديث عبدالقاهر هنا حول السجع والجناس وسنورد فى الجانب التطبيقى من الكتاب شواهد عدة ونماذج متنوعة من أفصح الكلام فى السجع تؤكد صدق ما ذهب اليه عبدالقاهر فى حديثه السابق ٠

القـــــلب

من المحسنات اللفظية أيضا : القلب ، والمقصود به أن يكون الكلام بحيث لو عكس كان الحاصل من عكسه هو ذلك المعنى بعينه ، وبعبارة أخرى : هو الكلام الذى يمكن قراءته من اليمين إلى اليسار ، ومن اليسار الى اليمين ، كما فى قول عماد الدين للقاضى الفاضل : سر فلا كبابك الفرس ، فكان جواب القاضى أيضا من قبيل القلب ، حيث قال : دام علاء العماد ، وهذا من الأجوبة الحاضرة،ومنه أيضا قول القاضى الأرجانى :

مودته تدوم لكل هول ٠٠ وهل كل مودته تدوم ؟

ومنه فى القرآن الكريم :" كل فى فلك " وربك فكبر "

ويغلب على هذا النوع من الكلام التكلف ، وما ورد منه فى القرآن الكريم ورد عفوا غير مقصود ، وفيه دلالة على مرونة اللغة وقدرة المتكلم الفائقة على تأليف كلام يمكن قراءته من الجهتين ، كما لا يخلو من طرافة لفظية .

وهذا فى قلب الحروف ، وقد يكون القلب أيضا فى الكلمات كقول الشاعر :-

عدلوا فما ظلمت لهم دول ٠٠ سعدوا فمازالت لهم نعم

بذلوا فما شحت لهم شيم ٠٠ رفعوا فمازلت لهم قــدم

والبيتان من قبيل المدح ، فاذا قلبت كلماتهما انقلب معه المدح إلى الذم ، وذلك على النحو التالى :

نعم لهم زالت فما سعدوا ٠٠ دول لهم ظلمت فما عدلوا

قدم لهم زلت فما رفعوا ٠٠ شيم لهم شحت فما بذلـــوا

وبذلك واكب القلب اللفظى القلب المعنوى ، فكانت هناك مشاكلة بين الألفاظ والمعانى باعتبار معين :

وقد يكون القلب فى المفرد كما فى سلس ، وباب .

التشــــــــريع

التشـريع أيضـا مـن فنـون البديـع اللفظيـة الـذى يـدل علـى مقــدرة الشاعر ، وتمكنه من اللغة ، حيث يستطيع بناء البيـت علـى قـافيتين يصـح المعنـى عند الوقـوف علـى واحدة منهمـا ، ومـن ذلـك قـول الحريرى :-

ياخاطب الدنيا الدنية إنها ٠٠ شرك الردى ومرارة الأكدار
دار متى ما أضحكت فى يومها ٠٠ أبكت غدا تبالها من دار
غاراتها لا تنقضى وأسيرها ٠٠ لا يفتدى بجلائل الأخطــار

ويمكن الوقوف على القافيه الأولى من كل بيت ، وبها يتـم المعنـى ، فتقرأ الأبيات على النحو التالى :

ياخاطب الدنيا الدنية إنها شرك الــــــــــــردى
دارمتى ما أضحكت ٠٠ فى يومها أبكت غـــــــدا
غاراتها لا تنقضى ٠٠ وأسيرها لا يفتـــــــــدى

ولا يختل الوزن أو المعنى بذلك ، ولا يخفى ما فى هذا الفن من شئ من التكلف ولكنها مقدرة الشعراء وتدليلهم على تمكنهم من اللغة فى نظمها ، وتصرفهم البارع فى أوزانها ، بل إن منهم من جعـل للبيـت الواحد أكثر من قافيتين ، ولا نطيل بالاستطراد فـى ذلـك لقلـة قيمتـه الفنية ٠

لزوم مالا يلزم

ومن هذا القبيل أيضا ما أطلقوا عليه لزوم مالا يلزم ،ويعنون به أن يأتى النـاثر أو الشـاعر قبـل حـرف الـروى ، أو مـا فـى معنـاه مـن

الفاصلة بما هو غير لازم ليتحقق السجع أو الفاصلة فى النثر ، أو القافية فى الشعر ،وهو نوع من السجع سواء أكان فى النثر أم فى الشعر لوروده فى الشعر قبل حرف القافية .

ومن شواهده فى النثر قوله تعالى " فإذا هم مبصرون وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون " فالفاصلة هنا هى النون المسبوقة بالمد ، ولكن أتى بالصاد قبلها فى الموضعين ، لتتمكن الفاصلة أكثر ويتم الاحساس فيها بالنغمة الصوتية على وجه أظهر ، ومنه أيضا قوله تعالى : فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر ، حيث كانت الهاء فى الموضعين قبل حرف الفاصلة ، وهو الراء .

ومنه قول الشاعر :-

سأشكر عمرا إن تراخت منيتى .. أيادى لم تمنن وإن هى جلت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه .. ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت
رأى خلتى حيث يخفى مكانها .. فكانت قذى عينيه حتى تجلت

وقول الآخر :-

يقولون : فى البستان للعين لذة .. وفى الخمر والماء الذى غير آسن
إذا شئت أن تلقى المحاسن كلها .. ففى وجه من تهوى جميع المحاسن

هذا والالتزام فيما سبق فى الحرف والحركة معا ، وقد يكون فى الحرف وحده كما فى قوله تعالى " اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آيه يعرضوا ويقولوا سحر مستمر " فالالتزام هنا فى الميم فقط ، وأما الحركة فمختلفة ، لأنها فى الآية الأولى مفتوحة ، وفى الثانية مكسورة وقد يكون فى الحركة وحدها دون الحرف كما فى قول ابن الرومى :-

لما تؤذن الدنيا به من صروفها .. يكون بكاء الطفل ساعة يولد
والا فما يبكيه منها وانهـــا .. لأرحب مما كان فيه وأرغـد

فالحرف السابق على القافية مختلف ، لكن الالتزام كان فى حركته وهى الفتحة كما هو واضح ٠ [إلهنا خيرا

هذا ولا يخفى ما سبق أن أكدنا عليه من أن أصل الحسن فى كل المحسنات البديعية هو أن تكون الألفاظ تابعة للمعانى ، وقد وضحنا ذلك بصورة مفصلة فيما يتعلق بالسجع والجناس ، وذلك من خلال حديث الإمام عبدالقاهر عن هذين اللونين من البديع ، ومن خلال ما سنعرضه بصورى تطبيقية فى الفواصل القرآنية التى أوهم ظاهر بنائها القصد إلى المحسن البديعى فى ذاته ، لكن عند التحقيق وجدنا أن المعنى هو الذى استدعى هذا البناء ، ثم واكب هذا البناء المستدعى للمعنى الحسن اللفظى فى اتفاق الفواصل ، وهذا فرق جوهرى بين القرآن الكريم والكلام العربى الفصيح شعره ونثره ، حيث نجد أن بعضه كان القصد فيه إلى القافية أولا وبالذات ، أو إلى السجعه المتفقة مع بقية السجعات الأخرى ، والمتتبع لكل الفواصل المتفقة فى القرآن الكريم لا يجد فيها ما هو من هذا القبيل ، وهناك فرق كبير بين كلام البشر ، وكلام رب البشر ، ولا يعنى هذا أن الحسن اللفظى لا قيمة له ، وإنما يعنى أن قيمته ينبغى أن تأتى تبعا للحسن المعنوى كما ذكرنا أكثر من مرة ، ولذلك يقول ابن الأثير عن المحسنات البديعية بصفة عامة:" إنما يحسن منها فى الكلام ما قل وجرى مجرى الغرة فى الوجه ، أو كان كالطراز فى الثوب ، فأما اذا تواترت وكثرت فإنها لا تكون مرضية لما فيها من أمارات الكلفة [1]وقد صوره عبدالقاهر فيما سبق بإثقال كاهل العروس بكثرة الحلى ٠

---

[1] المثل السائر ٣٣٨/١ تحقيق وتعليق أحمد الحوفى وبدوى طبانة – دار نهضة مصر ٠

ونختم حديثنا عن المحسنات البديعية بما ينبغى على المتكلم أو الكاتب أن يراعيه فى بدء كلامه وتخلصه وختامه ، وهو ما يطلق عليه : مواضع التأنق فى الكلام ، وبالله التوفيق .

مواضع التأنق فى الكلام

لما كانت مطالع الكلام ونهاياته لهما منزلة كبيرة فى البلاغة العربية لما لكل من أثر كبير فى جذب انتباه المتلقى كان من المهم أن نعرض لما أطلقوا عليه مواضع التأنق فى الكلام ، وهى بدؤه ونهايته والعلاقة بين البدء والغرض المسوق له الكلام ، أو ما يسمى حسن التخلص من البدء إلى الغرض ، ولذلك يقول القاضى الجرجانى عن القيمة الفنية لهذه المواضع الثلاثة :" والشاعر الحاذق يجتهد فى تحسين الاستهلال والتخلص وبعدهما الخاتمة ، فإنها المواقف التى تستعطف أسماع الحضور وتستميلهم إلى الاصغاء [1] ويقول عنها أيضا الخطيب القروينى :" ينبغى للمتكلم أن يتأنق فى ثلاثة مواضع من كلامه حتى تكون أعذب لفظا وأحسن سبكا وأصح معنى "[2] .

---

[1] الوساطة بين المتنبى وخصومه ٤٨ تحقيق محمد أبى الفضل وعلى البجاوى – مطبعة عيسى الحلبى

[2] بغية الايضاح ١٤٨/٤ شرح وتعليق عبدالمتعال الصعيدى .

ومن أهم ما تتحقق به عذوبة اللفظ سلامته من التنافر والغرابة والمخالفة للقياس الفصيح في الاستعمال ومن أبرز ما يتحقق به حسن سبك اللفظ سلامته من التعقيد بنوعيه : اللفظي والمعنوي على ما هو معروف في فصاحة الكلام ، أما زيادة صحة المعنى التي عبر عنها الخطيب بأسلوب التفضيل فمن أهم ما تقوم عليه مطابقته لمقتضى الحال[١] ، وكأن الخطيب القزويني أوجز في عبارته السابقة أهم معايير الفصاحة والبلاغة التي تحقق للمتكلم غرضه في مطلع كلامه وختامه والغرض المسوق له ،وسنزيد هذه المسألة وضوحا وبيانا من خلال الشواهد ٠

حسن الابتداء أوبراعة الاستهلال :

لاشك أن بدء الكلام أول ما يقرع السمع ، فإذا أحسنه المتكلم أقبل السامع على كلامه فوعاه وهو يدل على حذق الشاعر وإجادته ، ولذلك لما سئل بعضهم عن أحذق الشعراء قال من أجاد الابتداء والمطلع ،وهذا يدل على أن لهما موقعا عظيما في الفصاحة والبلاغة[٢] ولذلك جعلها ابن الاثير أحد أركان البلاغة ،ووضح المطلع بقوله :" أن يجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالا على المعنى المقصود من هذا الكلام إن كان فتحا ففتحا ، وإن كان هناء فهناء ، أو كان عزاء فعزاء ، وكذلك يجرى الحكم في غير

---

[١] أنظر المرجع السابق ٠

[٢] انظر الطراز للعلوى ٢/٢٧٧ ، ٢٧٩ ٠

ذلك من المعانى ، وفائدته أن يعرف من مبدأ الكلام ما المراد به ؟ ولم هذا النوع ؟[١] .

مما سبق نستطيع أن نلخص ما ينبغى على المتكلم أن يراعيه فى بدء كلامه ، وهو أمران : أحدهما : تجويد العبارة وبلاغتها كما أشار إليه الخطيب ،وهذا ما يسمى بحسن المطلع لأنه أول ما يقرع السمع ، وثانيهما أن يكون فى مطلعه دليل على موضوع كلامه حتى يقف السامع على الغرض من كلامه منذ البداية ، وهو ما يسمى ببراعة الاستهلال ، وهذا يدعو السامع إلى أن يعايش المتكلم فى أحاسيسه وانفعالاته حول موضوعه بادئ ذى بدء وما أشبه حسن المطلع بأداة الاستفتاح وحروف التنبيه فى بدء كلام العرب .

ومن يتتبع مطالع السور وافتتاحاتها فى القرآن الكريم فسيجدها أحسن مطالع وأجود ابتداءات،وقد أبدع كثير من المفسرين فى بيان علاقة كل افتتاح سورة بموضوعها فضلا عن كونه فى الذروة العليا من البلاغة.

وخذ مثلا على ذلك مطلع سورة الأعراف (المص كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك جرح منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين) فستجد ضمن ماتجد النص على الإنذارفى مطلع السورة ، وتظل بعد ذلك وشائج الإنذار فى السورة موصولة ، ومن ذلك حديثها عن موقف إبليس اللعين من السجود لآدم عليه الصلاة والسلام ، حيث أبى وتكبر على الله محتجا بمادة الخلق ، ثم كان ماكان من تهديد الله سبحانه وتعالى له أبلغ تهديد وإنذاره أبلغ إنذار ، وإنظاره إلى يوم الدين ليستشرى فساده أكثر ، وليكون موطن اختبار وبلاء

---

[١] المثل السائر ٩٨/٣ دار نهضة مصر بالفجالة .

للمؤمنين ، كما حذرهم الحق سبحانه وتعالى من فتنة صراحة فى قوله : (يابنى آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) كما أوردت السورة كثيرا من قصص الأنبياء مع أقوامهم ، وكيف أن غالبيتهم لم يستجيبوا لدعوات الأنبياء ، يدرك ذلك من يقرأ قصة نوح عليه السلام مع قومه ، وكذلك هود وصالح وشعيب ولوط عليهم السلام ، وما هؤلاء الكفار إلامن ذرية إبليس اللعين (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو) الى غير ذلك مما يدور فى فلك الإنذار الذى استهلت به السورة الكريمة .

وكذلك أيضا من يتأمل أيضا مطلع سورة (ص) فسيجد الحديث عن عزة الكفار المدعاة ضمن ماستهلت به السورة فى قوله تعالى : (ص والقرآن ذى الذكر بل الذين كفروا فى عزه وشقاق) ثم تجد بعد ذلك أن هذه العزة المزعومة موصولة الحوار المتعلق أيضا بإباء إبليس اللعين السجود لآدم عليه السلام ، حيث أقسم اللعين بالعزة الحقيقية لله على إغواء ذرية آدم عليه السلام من بعده (قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) مع أن اللعين لم يقسم بهذه العزة إلا فى هذه السورة ، حيث أقسم فى مواطن أخرى بالإغواء المناسب للإنذار فى الأعراف : (قال فيما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم) كما نجد مطلع سورة ق مرتبطا بالقرآن الكريم ، ونهايتها أيضا كانت كذلك ، ففى المطلع (ق والقرآن المجيد) وفى الختام : (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) وكأن فى ذلك إشارة الى أن حياة البشر ينبغى أن ترتبط بالقرآن الكريم بدءا ونهاية ... إلى غير ذلك من الإشارات السريعة والمتأنية التى يمكن أن يلمحها المتأمل فى مطالع سور القرآن الكريم ونهاياتها .

فإذا ماولينا وجهنا شطر الشعر العربى فإننا نجد أن كثيرا من الشعراء أبدعوا فى مطالع قصائدهم من حيث التأنق البلاغى فيه ، وعلاقته بموضوع القصيدة المسمى براعة استهلال ، وسنذكر

نموذجا لذلك من قصيدتين لشاعر واحد كانت بداية كل منهما فى الظاهر بداية تقليدية ، حيث افتتحتا بالحديث عن الديار والأطلال لكن الحديث الذى ارتبط بالديار كان ذا علاقة وثيقة بأهم ما ورد فى القصيدة .

أما الشاعر فهو عنترة بن شداد العبسى ، وأما القصيدتان فهما معلقته ، وقصيدة أخرى له فى يوم الفروق ، وهو من أيام الحروب عند عبس .

ففى مطلع المعلقة قال :

هل غادر الشعراء من متردم   أم هل عرفت الدار بعد توهم
أعياك رسم لدار لم يتكلـــم   حتى تكلم كالأصم الأعجـم

وفكرة البيت الأول تدور حول استيفاء الشعراء القول فى كل أغراض الشعر ، حيث لم يترك سابق للاحق منهم شيئا ، كما قيل فى العبارة المشهورة : ماترك الأول للآخر شيئا ، ثم أضرب الشاعر عن ذلك الى الحديث فى عن معاناته التى امتدت الى البيت الثانى فى معرفة الديار التى اندثرت معالمها .

إلى هنا والأمور تدور وكأنها طبيعية فى المطلع ، لكن المتأمل لمحاور الحديث فى المعلقة يجد أن أهم محور عنده هو محور المغادرة ، أعنى مغادرة عبلة لديار عبس فى جنح الليل كما يشير تعبير عنترة دون دارية منه ، ولذلك اعتبر أن هذه جريمة حيكت بليل كما تصنع الجرائم وتحاك ، وفى هذا المعنى يقول فى المعلقة :

إن كنت أزعمت الرحيل فإنما   زمت ركابكم بليل مظلـم
ماراعنى إلا حمولة أهلهـا   وسط الديار تسف حب الخمخم [1]

---

[1] زم الركاب : شدها وإعدادها للرحيل ، والحمولة : الإبل التى تحملهم ، وحب الخمخم : علف الماشية وكان من عادتهم أن تخرج الإبل للمرعى فى الصباح ، لكنها بقيت فى الديار فى الصباح استعداد للرحيل بعد أن دبروا هذا الأمر ليلا كسائر الأمور المنكرة .

ولايعكر على هذا الغرض ارتباط حديث المغادرة في المطلع بالشعراء ، لأن اختيار اللفظ فى ذاته دون مرادفه لابد أن يكون له منزع نفسى معين عند الشعر ، ولا شك أن غادر أصلا يعنى المغادرة ولا يخلو من شائبة الغدر ٠

إما القصيدة الأخرى فقد بدأها بقوله :-

ألا قاتل الله الطلول البواليا ٠٠ وقاتل ذكراك السنين الخواليا
وقولك للشئ الذى لا تناله ٠٠ إذا ما هو احلو لى ألا ليت ذاليا

ونلاحظ هنا أن الحديث عن الطلول البوالى والسنين الخوالى ، وإن كان يبدو فى البداية تقليديا فى الظاهر أيضا ، لكنه ارتبط هنا بالدعاء على الطلول والذكريات ، وفى هذا إشارة نفسية خفية الى المعاناة النفسية لعنترة ، حيث هزمت قبيلته من قبيلة بنى سعد فى هذه المعركة ، ويكفى هنا أن نورد بيتا واحدا من القصيدة ذكره عنترة فيها للتدليل على ذلك وهو :

ألم تعلموا أن الأسنة أحرزت ٠٠ بقيتنا لو أن للدهر باقيا

وربما يأتى فى موطن آخر ما يوضح تفاصيل هذه الهزيمة من خلال تحليل بلاغى للقصيدة كلها ، ونكتفى هنا بهذه الاشارة الدالة على الرباط الخفى بين مطلع كل قصيدة وموضوعها ، فضلا عن بلاغة المطلع فى ذاته ، ففيهما حسن مطلع وبراعة استهلال أيضا ٠

ومن أروع الابتداءات التى لاءمت المقصود مطلع أبى تمام فى فتح عمورية :

السيف أصدق أنباء من الكتب ٠٠ فى حده الحدبين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى ٠٠ متونهن جلاء الشك والريب

ومنه أيضا قول الآخر فى التهنئة بمولود :

بشرى فقد أنجز الإقبال ما وعدا ٠٠ وكوكب المجد في أفق العلا سعـدا

وقول أبى الفرج فى رثاء بعض ملوك بنى بويه :
هى الدنيا تقول بملء فيها ٠٠ حذار حذار من بطشى وفتكـــــى
فلا يغرركم منى ابتســـام٠٠ فقولى مضحك والفعل مبكـــــى

ومن أحسن المطالع التى قيلت فى المدح :
إن حارت الألباب كيف تقول ٠٠ فى ذا المقام فعذرها مقبول
سامح بفضلك ما دحبك فما لهم٠٠ أبدا إلى ما تستحق سبيـــل
إن كان لا يرضيك إلا محسن ٠٠ فالمحسنون إذن لديك قليل

ومنها أيضا ما قيل فى رثاء مصلوب بعد قتله ، وقد سبق ايراد القصيدة ومناسبتها :-
علو فى الحياة وفى الممات ٠٠ لحق أنت إحدى المعجزات
ومن المطـالع الجيدة الطريفة أيضـا مـا تناقلتـه كتب الأدب مـن أن هارون الرشيد غزا غزوة فى بلاد الروم ، وأخضـع نقفـور ملكهـم ، ورضى بالجزية ،ولكنه خان العهد بعد فترة ، فلم يجسر أحد علـى إعلان الرشيد لهيبتـه فـى صـدور النـاس ، ولذلك بذلت الأمـوال والعطايا لمن يستطع اخباره من الشعراء ، ولكنهم احجموا جميعا الا شاعرا من أهل جده يكنى أبا محمد ، وكان شـاعرا مفلقا ، فنظـم قصيدة للرشيد قال فى أولها : -
نقض الذى أعطيته نقفور ٠٠ فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه ٠٠ فتح أتاك به الإله كبيــر
نقفور إنك حين تغدر أن نأى٠٠ عنك الإمام لجاهل مغرور
أظننت حين غدرت أنك مفلت ٠٠ هبلتك أمك ما ظننت غرور

ونكتفى بهذه الشواهد فى المطالع ، ونورد فى المقابل بعض الشواهد غير الموفقة فى مطالعها ، من ذلك ماقاله المتنبى مفتتحا فى مخاطبة بعض الملوك :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وقد أنكر الفضل بن يحيى البرمكى على أبى نواس ابتداءه بقوله :

أربع البلى إن الخشوع لبادى عليك وإنى لم أخنك ودادى

فلما انتهى الى قوله :

سلام على الدنيا إذا مافقدتم بنى برمك من رائحين وغاد

وسمعه استحكم تطيره ، وقيل : إنه لم يمض أسبوع حتى نكبوا

وأنشد أبو مقاتل ممدوحه الملقب بالداعى بقوله مفتتحا :

لاتقل بشرى ولكن بشريان ٠٠ غرة الداعى ويوم المهرجان

فأوجعه الداعى ضربا ، ثم قال : هلا قلت : "إن تقل بشرى فعندى بشريان [1] ٠

حسن التخلص :

ومن المواضع التى ينبغى أن يحسن فيها الشاعر أو الناثر أيضا الانتقال من مطلع كلامه إلى الغرض المقصود فى انسيابية وبراعة دون أن يفاجئ السامع بهذه النقلة ، لأنه يكون مترقبا لقدرة الشاعر على التخلص من البدء الذى يتسم غالبا بالعموم إلى الغرض الخاص ، فاذا ما أحسن فى ذلك وأجاد ظلت نفس المتلقى منجذبة إليه ، ومنعطفة نحوه ، وأما إذا أخفق فإنها تنصرف عنه وتنشغل بغيره ، وكأن طريقة التخلص من البدء إلى الغرض محك كبير لقدرة الشعراء وغيرهم فى هذا المنعطف الخطير من الكلام ٠

---

[1] انظر كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ٤٣١ ، وانظر المثل السائر ٩٦/٣ والطراز ٢٦٦/٢ ٠

ومن حسن التخلص قول المتنبى فى سيف الدولة مشيرا إلى أن الشعراء كثيرون يدعون حبه ، لكنهم لم يفوا بالغرض المقصود على الوجه المطلوب ، أما هو فقد وفى بذلك ، وهذا ليس عجيبا ، فانفراده بالمدح دون سواه شبيه بانفراد سيف الدولة بمدحه مع أن السيوف كثيرة ، يقول فى ذلك :

خليلى سالى لا أرى غير شاعر ٠٠ فكم منهم الدعوى ومنى القاصائد
فلا تعجبا إن السيوف كثيرة ٠٠ ولكن سيف الدولة اليوم واحد

وبذلك أحسن التخلص من الفخر من الزهو بنفسه على الشعراء إلى الغرض المقصود وهو مدح سيف الدولة ، وفى قوله : " ولكن سيف الدولة اليوم واحد " تورية لا تخفى ٠

الاقتضاب : أما إذا لم يحسن الشاعر أو الناثر التخلص على النحو السابق ، فيسمى ذلك اقتضابا وغالبا ما كان القدماء يقعون فيه ، أو يتخلصون تخلصا مقتضبا أيضا ، لكنه أفضل من إغفاله ، كقولهم مثلا : دع ذا أو عد عن ذا ، ومع هذا فقد أحسن بعضهم التخلص أيضا كقول زهير فى ممدوحه هرم :

إن البخيل ملوم حيث كان ولـ ٠٠ كن الجواد على علاته هرم

ومن حسن التخلص فى القرآن الكريم – على رأى من يجيز ذلك قوله تعالى – فى أول سورة يوسف :" الرتلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا ٠٠٠ الخ٠

ونلاحظ فى هذا المطلع وعلاقته بما بعده ما يلى :–

* وصف الكتاب بأنه مبين ، ثم وصف القرآن بأنه عربى ، وتعليل ذلك بالدعوة إلى التعقل ولا يخفى أن الإبانة من أهم

خصائص اللسان العربى ، كما أن القصص يحتاج إلى بيان واضح في الشكل والمضمون ، كما أن الغاية من القصص القرآنى لا تظهر إلا بالتعقل فيها لاستلهام العبرة على النحو المنشود كما قال جل شأنه « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » ثم كان الحديث بعد ذلك عن كون أحسن القصص هو القصص القرآنى تمهيدا وتوطئه لما سيذكر فى قصة يوسف عليه السلام ، ففيها من الحسن ما فيها من حسن المطلع وبراعة الاستهلال وحسن التخلص معا .

هذه بعض لمحات خاطفه عن مطلع السورة الكريمة وعلاقته بالغرض ،وحسن التخلص منه إلى الغرض ، ولكن المستبطن للأسلوب القرآنى فيه سيجد ذخائر وكنوزا لا حدود لها ، وتكفينا هذه اللمحة الدالة .

ومن سوء التخلص المسمى بالاقتضاب قول أبى تمام :

لورأى الله أن فى الشيب خيرا .. جاورته الأبرار فى الخلد شيبا

كل يوم تبدى صروف الليالى .. خلقا من أبى سعيد غريبا

حديث الشاعر فى البيت الأول كان عن الشيب ، والتدليل على بغضه ، حيث لم يجعل قرينا لأهل الجنة ، أما حديثه فى البيت الثانى فكان عن مدح أبى سعيد فى كونه يكشف الغمم ويخفف من ويلات صروف الليالى بخلقه العجيب ، والاقتضاب هنا ظاهر فى عدم ملاءمة فكرة البيت الأول لفكرة البيت الثانى ، حيث لم يمهد الشاعر لها بما هو معروف من حسن التخلص .

هذا وهناك نوع من الاقتضاب يقرب من التخلص ، ويعتبر فصل الخطاب بين البدء والغرض المسوق له الكلام كقول القائل بعد حمد الله : أما بعد ، لأنه يهيىء الذهن بذلك لما سيلقى بعده كما أنه يشعر بأنه انتهى من البدء ، ومنه أيضا قوله : هذا ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الغرض وكأنه يقول : هذا الذى ذكرته على هذا الوجه كما

هو ، وقد انتهيت منه ، وبذلك يهيىء الأذهان لما بعده وقد كثر هـذا الانتقال على هذا الوجه في القرآن الكريم ، ومنه قوله تعـالى " هـذا وإن للطاغين لشرمآب " وقوله جـل شـأنه :" هـذا ذكـر وإن للمتقيـن لحسن مآب " ونحوه قول الكاتب : هذا باب هذا فصل ·

حسن الانتهاء :أما حسن الانتهاء فهو من الأهميـة بمكـان ، لأنـه آخر ما تسمعه الآذان ويستقر في النفس بل إنـه قـد يجبر الخلـل أو بعضه في الكلام السابق إن كان فيه خلل ، وعلى العكس من ذلـك إذا لم يكن حسنا ، فربما شوه محاسن الكلام السابق فضلا عن بقـاء أثره السيىء في النفس ولذلـك يحـرص المجيدون من الشـعراء والكتاب على تجويده حرصهم على حسن المطلع ، بل لعله كان أكثر لأن الأعمال بخواتيمها ·

ومن الانتهاءات الحسنة قول أبي نواس :-

بقيت للعلم الذي تهدى له ·· وتقاعست عن يومك الأيام

وقوله :-

وإني جدير إذ بلغتك بالمنى ·· وأنت بما أملت منك جدير

فإن تولني منك الجميل فأهله·· وإلا فإني عاذر وشكـــور

وقول أبي تمام في ختام قصيدة فتح عمورية التي أجاد مطلعها أيضا

إن كان بين صروف الدهر من رحم ·· موصولة أو ذمام غير مقتضب

فبين أيامك التي نصرت لهـــا ·· وبين أيام بدر أقرب النســب

أبقت بني الأصفر الممراض كاسمهم·· صفر الوجوه وجلت أوجه العــرب

وأحسن الانتهاءات ما ألمح إلى نهاية الكلام كما في قول الشاعر :-

بقيت بقاء الدهر يا كهف أهله ·· وهذا دعاء البرية شامـــل

وقول الآخر :

فلاحطت لك الهيجاء سرجــا ·· ولا ذاقت لك الدنيا فـــراقا

وبهذا البيت ننهى الحديث عن الجانب النظرى فى علم البديع ، وقد وضحنا قضاياه من خلال الشواهد والأمثلة ، وننتقل هنا الى جانب تطبيقى يتعلق بقضية السجع فى المحسنات اللفظية ، وقد آثرناه وحده بالحديث التطبيقى دون سواه لعدة أسباب منها عدم اتساع المقام لتناول غيره من المحسنات بدراسة تطبيقية مفصلة ، ومنها أن السجع ، أو ما أطلق عليه رعاية الفاصلة فى القرآن الكريم كان هو الأكثر دورانا وورودا فيه، لأن معظم الآيات القرآنية بنيت عليه لما له من أهمية لفظية ومعنوية ، وإن كان القرآن الكريم قد حفل بالكثير من المحسنات البديعية الأخرى الجيدة،وإذا كان عبدالقاهر الجرجانى فى حديثه المفصل والطويل السابق قد أكد فى أكثر من موضع فيه على أهمية استدعاء المعنى أولا للسجع والجناس ،وينطبق ذلك بطبيعة الحال على غيرهما من المحسنات ، فتعتبر هذه الدراسة التطبيقية نوعا من الاستجابة لما دعا إليه عبدالقاهر ،وتأكيدا لصحة ما دعا إليه بالتطبيق على أفصح الكلام ، وبخاصة إذا علمنا أن كثيرا من فواصل القرآن الكريم تأتى على خلاف الظاهر فى الكلام كالبناء على الجملة الاسمية دون الفعلية التى يستدعيها السياق فى الظاهر ، أو البناء على المضارع دون الماضى ، أو ايثار التذكير على التأنيث أو العكس ، إلى غير ذلك من مخالفة ظاهر السياق ، الأمر الذى قد يظن معه أن ذلك كان من أجل الحفاظ على الفاصلة القرآنية ، وبذلك يشبه القرآن فى ذلك السجع المتكلف فى النثر ، أو القافية المستدعاة فى الشعر ، ولكن المتأمل سيجد أن وراء هذه المخالفة الظاهرية غرضا معنويا استدعاها قبل المحافظة على رعاية الفاصلة ، وهذا ما سنوضح الكثير منه فى هذه الدراسة التطبيقية ، ولا يعنى ذلك بطبيعة الحال أن كل فواصل القرآن الكريم متفقة فى أواخرها ، لأن ذلك يرجع الى استدعاء المقام وقد آثرنا إطلاق رعاية الفاصلة

دون السجع على الفواصل المتفقة تبعا لما ذهب إليه المحققون من البلاغيين والنقاد ، انطلاقا من عدم ملاءمة لفظ السجع الذى ارتبط أصل معناه ببعض أصوات الطيور أو الحيوانات كما سبق ، كما أن إطلاق لفظ السجع على الفواصل القرآنية ربما يوهم أن منها المتكلف وغير المتكلف كما هو الحال فى السجع فى كلام البشر إلى غير ذلك من الاعتبارات فى هذا الموضوع .

وإنما أخرنا الحديث عن الجانب التطبيقى فى السجع دون أن نتبعه لمبحثه السابق لاستكمال الحديث عن المحسنات تباعا دون قطع خيطها الموصول ، وليكون الجانب التطبيقى للسجع مسك الختام لارتباطه بأفصح الكلام وهو القرآن الكريم .

ولماكان الهدف من هذا الجانب بيان الأغراض المعنوية التى استدعت اتفاق الفواصل قبل الغرض اللفظى الذى ينصرف إليه الاتفاق أولا ، فاننا سنطلق على هذه الدراسة التطبيقية عنوانا مناسبا على النحو الوارد فى القسم الثالث من الدراسة فى الصفحات التالية ، وبالله التوفيق

القسم الثالث

الفاصلة القرآنية

بين علمى المعانى والبديع

الصورة الأولى
إيثار الاسمية على الفعلية
أو المضارع على الماضي

من ذلك العدول عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية فى قوله سبحانه : ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين** ﴾[1] وكان مقتضى الظاهر أن يقال : وما آمنوا ، لكن عدل الى الاسمية للدلالة على نفي الإيمان عنهم بطريق أبلغ وآكد من عدة وجوه ، أولها وجه الكناية ؛ لأن نفى انخراطهم فى سلك المؤمنين لازم لعدم الإيمان؛ لأنهم لو آمنوا لانخرطوا فى الإيمان ، فلما نفى هذا الانخراط الدال على الإيمان نفى الإيمان بطريق أبلغ وآكد ، ولذلك كان قولك للصالح أنت من الصالحين أبلغ من قولك له أنت صالح ، ومن هنا قال سبحانه لموسى عليه السلام : ﴿ **إنك من الآمنين** ﴾ وقال لإبليس عليه اللعنة : ﴿ **إنك من المنظرين** ﴾ وثانيهما تقديم المسند إليه المسبوق بنفى على الاسم المشتق للدلالة على تقوية وتوكيد نفى هذا الإيمان عنهم ؛ ولا وجه للقصر فى هذا التقديم ، وثالثها دخول الباء الزائدة فى خبر الجملة الاسمية ، فدل ذلك كله على ثبوت نفى الإيمان عنهم على وجه آكد وأبلغ[2] ولا يخفى تحقق رعاية الفاصلة فى هذا النظم الكريم الوارد على هذه الأوجه من المبالغة فى مواجهة قولهم « **آمنا بالله وباليوم الآخر** » .

هذا وقد يقال إن رعاية الفاصلة في هذا المقام قد استدعت إطلاق الإيمان عنهم دون تعلقه بشيء خاص على النحو الوارد فى قولهم : (**آمنا بالله وباليوم الآخر**) ولهذا لم يقل : (وما هم بمؤمنين بالله وباليوم الآخر) ولكن يرد على هذا بأن حذف متعلق الإيمان هنا للعلم به مما سبق إيجازا ، أوحذف متعلق الإيمان المنفى ليدل على نفى الإيمان المطلق ، كأنه قيل : ليس من شأنهم الإيمان ، لأنهم ليسوا أهلا له ، للمبالغة فى نفى الإيمان

---

(١) البقرة [٨]

(٢) انظر الكشاف وحاشية السيد الشريف عليه ١٦٩/١ والبرهان فى علوم القرآن ٦٩/٤ - ٧٠ ودلالات التراكيب ١٨٩ د/ محمد أبو موسى .

عنهم على وجه العموم .

هذا ويمكن أن يقال أيضا إن رعاية الفاصلة لوحظت فى التعبير عنهم بالجمع فى (وما هم بمؤمنين) بعد التعبير عنهم بالمفرد فى (ومن الناس من يقول ...) وأيسر جواب لذلك أن يقال – على ما هو مشهور – إن الإفراد باعتبار لفظ (من) والجمع باعتبار معناه ، وهذا الجواب فى الحقيقة ليس جوابا شافيا ؛ لأنه يرد عليه اختصاص القول بالإفراد واختصاص نفى الإيمان بالجمع ، والأوفق ببلاغة النظم الكريم أن يبحث عن سر لذلك دون الاقتصار على هذا الجواب الذى شاع وانتشر بين كثير من المفسرين والباحثين فى الإعجاز القرآنى ، وهذا ما نحاوله فى هذه الآية الكريمة ونحاوله أيضا فى مواقع أخرى من هذا البحث كما سيأتى .

أما الإفراد مع القول فلأنهم اتحدوا فى كلمة النفاق هذه التى أعلنوا فيها الإيمان فى قولهم (آمنا بالله وباليوم الآخر) فكان الأنسب مراعاة اللفظ فى القول ، ولما كان نفى الإيمان عنهم صادرا من الله سبحانه كان من المناسب أن يعبر بالجمع للدلالة على نفى الإيمان عن جميعهم ، أو يقال إن مراعاة اللفظ والمعنى ملاحظ فيها الشكل والمضمون ، فلما كان القول ظاهرا كان الأنسب به مراعاة لفظ (من) ولما كان الإيمان باطنا كان الأنسب به مراعاة معنى (من) ، وبذلك كانت عبارة المفسرين فى هذا المقام مفتاحا للإجابه وليست إجابة ، ولهذا نظائر فى آيات أخرى مثل قوله تعالى ﴿ ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة ﴾ [١] لأن الاستماع ظاهر فناسبه اعتبار اللفظ فى الإفراد ، وأما الأكنة على القلوب فهى خافية فناسبها اعتبار المعنى فى الجمع .

وكذلك فى قوله سبحانه : ﴿ ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا ﴾ [٢] فالقول ظاهر كما سبق ، فناسبه اعتبار اللفظ

---

(١) الأنعام [٢٥]
(٢) التوبة [٤٩]

في الإفراد والسقوط في الفتنة أمر باطن فناسبه أعتبار المعنى في الجمع ، ومن ذلك مراعاة اللفظ في الشهادة والمعنى في العلم في قوله سبحانه : **﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾** [1] ويواكب ذلك رعاية الفاصلة في هذه الآية الكريمة .

ومن التعبير بالاسمية أيضا بعد التعبير بالفعلية قوله تعالى : **﴿ ليس البر أن تولو وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر .....أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾** [2] وكان مقتضى الظاهر أن يقال : وأولئك الذين اتقوا ، لكنه سبحانه عبر عنهم أولا بالماضي مع الصدق ليدل على تحققه فيهم ، ثم عبر في جانب التقوى بالاسمية ليدل على أنها صفة راسخة فيهم غير متجددة [3] وقد قوى هذا الوصف الوارد على طريق الجملة الاسمية بضمير الفصل وتعريف المسند فأفاد قصر التقوى عليهم دون سواهم .

وعلى هذا النحو يطالعنا التعبير بالاسمية في قوله سبحانه : **﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ﴾** [4] وكان الظاهر أن يقال : أم صمتم ، ولكن العدول إلى الاسمية يدل على أنه كان من عادتهم ألا يدعوا الأصنام لأنهم يعلمون أنها لا تجيبهم إذا حزبهم أمر ، ولكنهم يدعون الله سبحانه بدليل **﴿ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ..... ﴾** [5] فكانت حالتهم المستمرة هي دعاء الله في وقت الشدة الذى يواكبه صمتهم عن دعاء الأصنام ، فقيل لهم إن إحداث دعائكم الأصنام يستوى مع استمرار صمتكم عن دعائهم ، وفي هذا دلالة على أن دعاءهم الأصنام لو أحدثوه لن يفيدهم شيئا ، فهو يشبه صمتهم المستمر عن دعائهم [6] وبهذا يكون إحداث الدعوة مساويا لاستمرار الصمت ، وفي ذلك ما فيه من التشنيع عليهم وعلى

---

(١) الزخرف [٨٦]
(٢) البقرة [١٧٧]
(٣) انظر روح المعاني ٢/٤٨
(٤) الأعراف [١٩٣]
(٥) الروم [٣٣]
(٦) انظر الكشاف ١٣٨/٢

عباداتهم وعبيدهم ، ولو لم يكن التعبير بالاسمية هنا مقصودا لذاته لإفادة مثل هذا الغرض لكان من الممكن أن تراعى الفاصلة أيضا بالتعبير بالفعلية دون الاسمية عن طريق المضارع فيقال مثلا : (تصمتون) (١)

أما التعبير بالاسمية فى قوله سبحانه : **﴿ أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾** (٢) بدلا من أم لعبت فلأن إبراهيم عليه السلام لما جهلهم هم وآباءهم وجعلهم جميعا فى ضلال مبين بقوله : **﴿ لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ﴾** واستبعدوا ذلكَ استبعادا كبيرا ، لأن فيه تجهيلا لآبائهم الذين تبعوهم وهم كثير ، كما أن ذلك كان من قديم الزمان، فكيف يكونون جميعا على ضلال فى كل هذا الزمان ، لما جهلهم على هذا النحو كان من المناسب أن يقولوا ما قالوا قاصدين إلى المعادل الثانى لأم ، وكأنهم قالوا له:هل ما جئتنا به هو الحق أم أنت مستمر على لعبك وعبثك،منخرط فيه،لا تنفك عنه،لأن قدمك راسخة فيه ، ولذلك سلكوه فى ضمن اللاعبين ، ولم يقولوا أم أنت لاعب (٣)

ويجوز أن تكون (أم) المتصلة بمعنى : أجددت وأحدثت عندنا تعاطى الحق الذى تدعيه أم مازلت مستمرا على أحوال الصبا والعبث ، ويجوز أن تكون منقطعة بمعنى : أجئتنا بالحق الذى تدعيه فى ضلال آبائنا ، ثم أضربوا عما أثبتوه وقرروه وقرروا بالهمزة خلافه على سبيل التوكيد والبت للدلالة على أنه لا عب بأبلغ وجه وآكده (٤)

وعلى كل فقد أفاد (أنت من اللاعبين) فائدتين : أولاهما : الدلالة على استمراره فى اللعب ، وثانيهما رسوخ قدمه فيه لثبوته له على طريق الكناية ، وهو أبلغ ، وذلك فى مواجهة قوله السابق : **﴿ لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ﴾**

هذا وقد يعدل فى التعبير بالمعادل إلى الاسم بعد الفعل كما فى قوله

---

(١) انظر روح المعانى ٩/ ١٤٣ (٢) الأنبياء [٥٥]

(٣) انظر البرهان ٤/ ٦٩ وحاشية الشهاب ٢٥٩/٥ وروح المعانى ٦٠/١٧

(٤) انظر المرجع السابق للآلوسى

سبحانه : ﴿ **قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين** ﴾ [١] وذلك بدلا من : أصدقت أم كذبت ، لكن ما فى النظم الكريم أبلغ من الإيجاز ؛ لأنه يدل على أن هذا الكذب من هذا الطائر على حقارته أمام نبى عظيم يخشى سطوته هو سليمان يجعله منخرطا فى سلك الكاذبين ، فيكون الكذب سجية له وطبيعة فيه لا يستطيع الفكاك منها ، ولا شك أن هذا أوفى بالمقام من التعبير بالفعل .

وأورد على ماذكر أن أصدقت أم كذبت أبلغ لإيجازه ، وأنسب بالمقام لاتهامه بالكذب ، وبذلك يكون العدول عن هذا إلى ما فى النظم الكريم من أجل رعاية الفاصلة ، لكن هذا مردود بأن اتهامه بالكذب على النحو الوارد فى النظم الكريم أبلغ لدلالته على الكذب بطريق اللزوم كما ذكرنا [٢]

وقد يعدل عن الماضى إلى المضارع فى الفاصلة القرآنية كما فى قوله سبحانه : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون** ﴾ [٣] وذلك لاستحضار الحال الماضية لفظاعتها واستعظامها ، أو للدلالة على أنهم الآن فى القتل باعتزامهم قتل محمد ﷺ بسحره وتسميم الشاة له ، والمراد بالقتل مباشرة أسبابه ، ونسب القتل إليهم مع أن القاتل آباؤهم على الوجه الأول وهو حكاية الحال الماضية لرضاهم به ولحوق مذمته بهم ، وتقديم المفعول فى الموضعين للاهتمام بالمقدم وهو الفريق المكذب والفريق المقتول لبيان جرمهم فى الحالين ، وقدم التكذيب على القتل لسبق التكذيب عليه فى الواقع ، ولأن التكذيب أعم من القتل لتحققه مع القتل وبدونه [٤] .

---

(١) النمل [٢٧]

(٢) انظر الكشاف ١٤٥/٣ وحاشية الشهاب ٤٤/٧ وروح المعانى ١٩٢/١٩ .

(٣) البقرة [٨٧]

(٤) انظر روح المعانى ١/ ٣١٨

الصورة الثانية

بين الإفراد والتثنية والجمع

من الملاحظ أن الفاصلة القرآنية قد تأتى مفردة فى موقع يتوقع فيه غير الإفراد ، وقد تأتى غير مفردة فى موقع يتوقع فيه الإفراد ، وهذا وإن كان متفقا مع رعاية الفاصلة التى هى من أغراض البليغ كما سبق لكننا سنحاول كشف شئ من السر فى هذا النمط من التعبير يسبق رعاية الفاصلة ، وسنورد فيما يلى بعض الآيات القرآنية التى تندرج تحت هذه الظاهرة ، ومن ذلك :

الاستغناء بالمفرد عن المثنى : كما فى قوله سبحانه ﴿ **فقلنا يآدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى** ﴾ [1] وكان مقتضى الظاهر أن يقال : (فتشقيا) حيث سبق ورود الخطاب للاثنين معا فى النهى عن الإخراج بوسوسة الشيطان ، وأما ما يترتب على الإخراج وهو الشقاء فقد اختص به آدم وحده دون حواء إما لأن سعادة المرأة بسعادة زوجها وشقاءها بشقائه ، وإما لأن شقاءها إذا ماقيس بشقائه فى الحياة فلا شقاء ، وإما لأن المراد بالشقاء الكد والتعب من أجل الرزق لأنهما كانا ينعمان فى الجنة دون كد ولا نصب بدليل قوله تعالى مخاطبا آدم عليه السلام : ﴿ **إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى** ﴾ وإذا خرجا من الجنة فإن الذى يتحمل عبء الرزق ومشاقه هو آدم وحده ولذلك يذكر الزمخشرى أنه روى أنه أهبط إلى آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق من جبينه »[2] وفى هذا دلالة على أصالة الرجل فى العمل ، وكان فى إيثار المفرد على المثنى هنا لفت لكل هذه المعانى ، وقد يكون هناك احتمالات أخرى غيرها ، ولو كان التعبير واردا على الظاهر لكان مغسولا منها ماعدا المعنى المحدد الذى لا يحتمل التعبير سواه .

---

(١) طه [١١٧]

(٢) انظر الكشاف ٢/٥٥٦ وانظر متشابه النظم القرآنى فى قصة آدم عليه السلام ١٨٥ للمؤلف .دار الأرقم

ومن قبيل الاستغناء بالمفرد عن المثنى أيضا فى الفاصلة القرآنية قوله تعالى : ﴿ **كذبت ثمود بطغواها إذ انبعث أشقاها** ﴾ (١) حيث قيل إنهما اثنان(٢) وقيل إنهم جماعة ، أما على القول بأنه واحد وهو قدار بن سالف فالتعبير وارد على الظاهر ، وأما على القول بأن المنبعث أكثر من واحد فوجه التعبير بالواحد أن اسم التفضيل إذا أضيف إلى معرفة صلح للواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث ، أما إيثار التعبير باسم التفضيل مع أن القبيلة مشتركة فى الشقاوة فلأن هذا الأشقى هو الذى قام بالعقر وحده أو معه غيره أو لخبائث أخرى قد ارتكبوها يعلمها الله سبحانه ، وقد اشترك الجميع فى الشقاوة لرضا من لم يعقر بهذا العقر (٣).

أما التعبير بالمفرد عن الجمع فمنه قوله تعالى : ﴿ **ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما** ﴾ (٤) وقد قيل فى الإفراد هنا عدة توجيهات منها أن المفرد اسم جنس يطلق على الواحد حقيقة وعلى الجمع مجازا ، أو لأنه فى الأصل مصدر ، وهو لكونه موضوعا للماهية شامل للقليل والكثير ، وقيل إنه يستعمل مفردا وجمعا كهجان ، والمراد به هنا الجمع ليطابق المفعول الأول ، أو يكون المراد جعل كل واحد منا إماما،وهناك أقوال أخرى لا تسلم من مناقشة ، كما أنه يرد على هذه الأقوال جميعا إيثار التعبير بالمفرد عن الجمع هنا بينما آثر القرآن الكريم التعبير بالجمع فى موقع آخر كما فى قوله سبحانه : ﴿ **وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا** ﴾ (٥) ولعل ذلك يرجع هنا كما قيل إلى أنهم كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم واتفاق كلمتهم (٦) فلما كان الهدف بيان اتحاد الطريقة واتفاق الكلمة كان الأوفق بالتعبير لفظ المفرد دون الجمع مع ارتكاز الإفراد على أساس لغوى سليم كما هو واضح مما سبق .

---

(١) الشمس [١١]

(٢) انظر الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢/١٠٠

(٣) انظر حاشية الشهاب ٨/ ٣٦٧ وروح المعانى ٣٠/١٤٥

(٤) الفرقان [٧٤]　(٥) الأنبياء [٧٣]

(٦) انظر التفسير الكبير للفخر الرازى ١٢/١١٥ وحاشية الشهاب ٦/٤٣٨-٤٣٩ وروح المعانى ١٩/٢٣١

وأما التعبير بالجمع فى (**وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا**) فلأن المقام اقتضى إيثار الجمع على الإفراد لأن الآية واردة فى الحديث عن إبراهيم وبعض الأنبياء الآخرين عليهم الصلاة والسلام جميعا ، وذلك فى قوله سبحانه : ﴿ **قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين** ﴾ [١] فلما كان كل نبى إماما مستقلا فى الهداية بأمر الله وفى فعل الخيرات وإقامَ الصلاة وإيتاء الزكاة وعبادة الله سبحانه أوثر لفظ الجمع ليدل على استقلالية كل منهم وقيادته وإمامته فى هذه الأمور جميعا .

ولما كانت طرق الكفر متعددة ، وسبله متنوعة ، ورءوسه متفرقة ناسب ذلك التعبير عنهم بالجمع أيضا فى قوله سبحانه : ﴿ **فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون** ﴾ [٢] وفى قوله أيضا ﴿ **وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون** ﴾ [٣] فكل واحد منهم رأس كفر بعينه، كما كان كل واحد من الأنبياء رأس هداية بعينه ، ولذلك ناسب التعبير بالجمع فى الموضعين ، أما الإفراد فى (إمام) فلا تحاد الغاية والهدف وجمع الكلمة على الهداية والصراط المستقيم الذى لا يقبل تعددا ولا تفرقا ، ولذلك يقول سبحانه : ﴿ **وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** ﴾[٤]

أما قياس التعبير بلفظ المفرد فى (إمام) على التعبير به فى (**ويخرجكم طفلا**) كما قيل [٥] لأن المقصود الجنس فى كليهما فيرد عليه إيثار الجمع على المفرد فى (**وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا..**) وإيراد (إمام) بلفظ الجمع فى مواقع أخرى كما ذكرنا ، فلماذا خص كل

---

(١) الأنبياء [٦٩-٧٣] (٢) التوبة [١٢]
(٣) القصص [٤١] (٤) الأنعام [١٥٣]
(٥) انظر المراجع السابقة

تعبير بموقعه ؟ .

وإذا كنا قد ذكرنا شيئا من أسرار التعبير بالمفرد أو الجمع فى (إمام) فإن ذكر المفرد مع الجمع فى « ويخرجكم طفلا » لعله راجع إلى أن الأطفال عندما يخرجون من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا يكونون شديدى الشبه منبهى العلامات والقسمات ، فلا يكون هناك تميز واضح لبعضهم عن البعض الآخر فى الشكل أو الأحاسيس والعواطف والميول ، فلما كانوا كأنهم صورة واحدة شكلا وموضوعا كان التعبير عنهم بالمفرد أنسب .

ويعضد هذا التعليل ورود الأطفال جمعا عند بلوغهم الحلم فى الآية السابقة لتمايزهم فى الأشكال ، وتنوعهم فى الميول والعواطف ، بحيث صار لكل واحد منهم ذاتية وشخصية متفردة يحاول كل منهم فى فترة المراهقة أن يثبتها ، ويدفع كل ما يقف فى هذا الطريق ، ولذلك كان التعبير بالجمع هنا أنسب وإن صح التعبير بالمفرد أو الجمع فى كل موقع من الناحية اللغوية ، ولذلك كان التعليل فى الإفراد بالجنسية غير كاف .

ومن التعبير بالمفرد أيضا عن الجمع فى الفاصلة القرآنية قوله سبحانه : ﴿ **إن المتقين فى جنات ونهر** ﴾ [1] بدلا من أنهار كما ورد فى آيات أخرى

وعن وقوع المفرد هنا يقول أبو السعود : « أى أنهار كذلك ، والإفراد للاكتفاء باسم الجنس مراعاة للفواصل » [2] وقيل نهر بمعنى فى نور وضياء بتشبيه الضياء المنتشر بالماء المتدفق ، فالكلام من قبيل الاستعارة ، أو يكون المراد بالنهر النهار الحقيقى لأنهم لا ظلمة ولا ليل عندهم فى الجنات ، وكأنه جمع لهم بين النعيم فى المكان وفى الزمان أيضا ، وفسر ابن عباس نهر بمعنى سعة ، أى سعة المنازل أو سعة العيش والرزق أو ما يعمهما ، وعلى هذا التفسير قول ابن ربيعة :

ملكت بها كفى فأنهرت فتقها   يرى قائم من دونها ما وراءها [3]

---

(١) القمر [٥٤]   (٢) تفسير أبى السعود ١٧٥/٨

(٣) انظر روح المعانى ٢١ / ٩٥

وفى اللسان عن الفراء (ونهر) معناه : أنهار كقوله عزوجل ويولون الدبر، أى الأدبار ، وقال أبو اسحاق نحوه ، وقال : الاسم الواحد يدل على الجميع فيجتزأ به عن الجمع ، ويعبر بالواحد عن الجمع كما قال تعالى : ﴿ **ويولون الدبر** ﴾

وللفخر الرازى محاولات أخرى فى تعليل هذا الإفراد لا تخلو من تكلف[1] والذى ألاحظه على هذه التخريجات ما يلى :

أولا : أن اللجوء إليها يظهر عدم الاقتناع برعاية الفاصلة علة كافية ، كما هو منهج البحث .

ثانيا : أن القرآن الكريم لو عبّر هنا بالجمع كما هو الظاهر المتبادر لما احتمل التعبير كل هذه الوجوه ، بل كان نصا فى المراد مباشرة ، ولعل العدول عن الظاهر هنا لتكثير الفائدة فى مقام بيان جزاء المتقين ، وكأن التعبير بالإفراد هنا جعل اللفظ محتملا هذه الوجوه كلها ، أعنى النهر بمعناه الحقيقى والنور والضياء والسعة ، ولا مانع من التقاء هذه المعانى جميعا فى جزاء المتقين .

والذى ألاحظه فى هذا المقام أن الظرفية فى قوله سبحانه : (نهر) ظرفية مجازية بينما الظرفية فى (جنات) حقيقية ، ولما كانت الأنهار تابعة وملازمة لها بدليل الآيات الأخرى مثل (**تجرى من تحتها الأنهار**) لم يعد حرف الجر (فى) مع المعطوف مرة أخرى حتى لا يشعر ذلك باستقلال الأنهار ، ولم ترد هذه الظرفية مع الأنهار جمعا فى القرآن الكريم وإنما وردت باعتبار التحتية للجنات ، ولما قصد بالظرفية هنا نعيم ومتعة الأنهار ؛ لأن المتقين لا يكونون فى نهر حقيقى كان التعبير بالمفرد دالا على المقصود على طريق المجاز بتصوير تمكنهم من نعيم ومتعة النهر بتمكن الظرف من المظروف ، وكأن هذه المتعة قد شملتهم وغمرتهم ، وهذا المعنى المجازى يتحقق بورود المفرد،ولا يتوقف تحققه على الجمع ، لكن لو أورد

---

(١) انظر التفسير الكبير ٧٠/٢٩

المفرد فى مقام التحية فقيل مثلا (يجرى من تحتها النهر ...) لما كان المفرد وافيا بالمراد فى مقام إظهار النعيم ، لأن هناك فرقا كبيرا بن أن يكون تحت الجنات نهر واحد أو مجموعة من الأنهار ، والله أعلم .

ومن التعبير بالجمع عن المفرد من أجل الفاصلة القرآنية كما قيل [١] قوله تعالى : ﴿ **قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال** ﴾[٢] بالمقارنة بالإفراد فى غير الفاصلة فى قوله سبحانه ﴿ **يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة** ﴾[٣]

والواقع أن خلالا المذكورة فى إبراهيم لا يتعين أن تكون جمعا ، بل يمكن أن تكون مفردة ، ويبدو من كلامهم أن الإفراد هو الراجح ، ولذلك أورد الراغب هذا الاحتمال أولا فى قوله : « قيل هو مصدر من خاللت ، وقيل هو جمع ، يقال خليل وأخلة وخلال »[٤]

كما اقتصر الزمخشرى على القول بالمصدر فى قوله : « والخلال المخالة »[٥] وكذلك اقتصر الفخر الرازى على القول بالمصدر [٦]، ويوضح الألوسى المقصود من الإفراد أو الجمع بقوله : « والمراد واحد ، وهى نفى أن يكون هناك خليل ينتفع به بأن يشفع له أو يسامحه بما يفتدى به »[٧]

وعلى القول بالجمع هنا فلا منافاة بينه وبين الإفراد فى آية البقرة ؛ لأن المراد نفي الجنس فى كليهما ، ولعل وجه إيثار الجمع هنا [٨](فى إبراهيم) على المفرد (فى البقرة) أنه لما لم يذكر هنا شفاعة كما ذكرت فى البقرة ذكر الجمع ليتناول نفى الخلة وكل ما يشابهها أو يرتبط بها كالشفاعة ، ولعل عبارة الألوسى السابقة تلمح إلى شئ من ذلك ، ولا يخفى مابين

---

(١) انظر البرهان ٢/١٠٠
(٢) إبراهيم [٣١]
(٣) البقرة [٢٥٤]
(٤) مفردات الراغب مادة خلل .
(٥) الكشاف ٢/٣٧٨
(٦) انظر التفسير الكبير ١٩/٩٩
(٧) روح المعانى ١٣/٢٢٢
(٨) على القول به .

الخلة والشفاعة من ترابط .

ونفى المخالفة هنا لا يتعارض مع إثباتها فى قوله سبحانه : ﴿ **الأخلاء بعضهم يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾[١] لأن الثابتة ما كانت قائمة على العبادة الحقة ، والمنفية ما كانت قائمة على الهوى ورغبة النفس، وقد جمعت آية الزخرف بينما معا [٢]

وقد يعبر بالمثنى عن المفرد لرعاية الفاصلة كما قيل [٣] وذلك فى قوله سبحانه : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾[٤] وعن التثنية فى هذا الموقع يقول الفراء : « **جنة لقوله** ﴿ **فإن الجنة هى المأوى** ﴾ فثنى لأجل الفاصلة ، قال: والقوافى تحتمل من الزيادة والنقصان ما لا يحتمله سائر الكلام ، ثم يذكر السيوطى بعد ذلك أن ابن قتيبة قد أنكر ذلك وأغلظ فيه وقال : « إنما يجوز فى رءوس الآى زيادة هاء السكت أو الألف أو حذف همز أو حرف ، فإما أن يكون الله وعد بجنتين فتجعلهما جنة واحدة لأجل رءوى الآى معاذ الله، وكيف هذا وهو يصفهما بصفات الاثنين قال : ذواتا أفنان ، ثم قال : فيهما »

ثم يذكر السيوطى بعد ذلك أيضا أن ابن الصائغ « نقل عن الفراء أنه أراد جنات فأطلق الاثنين على الجمع لأجل الفاصلة ثم قال : وهذا غير بعيد ، قال (ابن الصائغ) وإنما عاد الضمير بعد ذلك بصيغة التثنية مراعاة للفظ »[٥]

ولا أدرى لماذا يرتكب كل هذا التكلف من أجل رعاية الفاصلة مع أن الأمر أيسر من ذلك بكثير ، فليس هناك ما يمنع من إرادة الجنتين معا ، وبذلك يبقى التعبير على ظاهره ، ويواكب ذلك مناسبة الفواصل أيضا ، وهناك أوجه كثيرة فى تخريج التثنية ، فقيل : إنهما جنتان ، جنة للإنس

---

(١) الأحزاب [٦٧]
(٢) انظر التفسير الكبير فى الموضع السابق .
(٣) انظر البرهان فى الموضع السابق .
(٤) الرحمن [٤٦]
(٥) المرجع السابق للسيوطى .

وجنة للجن ، أو جنة عدن وجنة نعيم ، أو لكل خائف جنتان واحدة لفعل الطاعات والأخرى لترك المعاصى ، أو أن هناك جنة للجزاء وجنة زائدة على ذلك كما قال سبحانه ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ أو جنة للجسد وأخرى للروح كما قال سبحانه: ﴿ **فروح وريحان وجنة نعيم**﴾[١]

ومن لطائف التعبير بالجنتين فى هذا السياق أنه سبحانه لما ذكر قبل هذه الآية عن جهنم التى عاينها المجرمون أنهم يطوفون بينها وبين حميم آن ويفهم منه أنهم يفارقون عذابا فيقعون فى الآخر ذكر هنا أن من خاف مقام ربه له جنتان ، والخائفون لا يطوفون بالجنة ، وإنما هم فيها ، كما أنهم ملوك فى جناتهم يخدمون ولا يخدمون تقديرا وإجلالا لهم .

وبهذه المقارنة يظهر البون الشاسع بين جزاء كل من الفريقين ، ولذلك استدعى المقام ذكر الجنتين [٢]، أى أن مضاعفة النعيم للخائفين يناسب ماذكر قبله من مضاعفة العذاب للمجرمين .

هذا وقد ورد فى القرآن الكريم ذكر جنة واحدة أحيانا كما فى مثل ﴿ **مثل الجنة التى وعد المتقون** ﴾[٣] كما ورد ذكر الجمع فى ﴿ **إن المتقين فى جنات ونعيم** ﴾ [٤]كما وردت الجنة مثناة كما هنا ، ولا تعارض بين ذلك ؛ لأن الجنة إن نظر إليها من حيث اتصال اشجارها وتلاحمها دون فواصل جرداء أو قفار صحراء فهى جنة ، وإن نظر إليها من حيث إنها واسعة وأشجارها متنوعة ، ومساكنها كثيرة ، ولذائذها عديدة فهى جنات ، وإن نظر إلى اعتبارات التثنية السابقة فهما جنتان ، والكل دائر فى المدح [٥]

هذا وقد أورد الألوسى تفسيرا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه يجعل التعبير بالتثنية فى الجنتين على ظاهره وحقيقته ، وذلك أن البيهقى أخرج فى شعب الإيمان عن الحسن أنه كان شاب على عهد عمر رضى الله عنه

---

(١) انظر التفسير الكبير ٢٩/١٠٨-١٠٩ (٢) انظر المرجع السابق .
(٣) الرعد [٣٥] (٤) الطور [١٧]
(٥) انظر المرجع السابق للفخر الرازى وروح المعانى فى الموضع السابق .

ملازما للمسجد والعبادة فعشقته جارية فأتته فى خلوة فكلمته فحدثته نفسه بذلك فشهق شهقة فغشى عليه ، فجاء عم له فحمله إلى بيته ، فلما أفاق قال : يا عم : انطلق إلى عمر فأقرئه منى السلام ، وقل له ما جزاء من خاف مقام ربه ؟ فانطلق فأخبر عمر وقد شهق الفتى شهقة أخرى فمات فوقف عليه عمر رضى الله عنه فقال : لك جنتان لك جنتان »[١] وبهذا لم تكن التثنية متمحضة لرعاية الفاصلة ، وإنما كان للمقام أثره فيها .

ومن وقوع الجمع موقع المثنى فى الفاصلة القرآنية قوله تعالى : ﴿ **ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين** ﴾[٢] وكان الظاهر أن يقال (طائعتين) ولكن لما كانت السماء جمعا فى المعنى لأنها سموات ، وكذلك الأرض سوغ هذا التعبير بالجمع ، وكان جمعا للعاقل لتنزيلهما منزلة العقلاء من حيث توجيه الخطاب لهما وجوابهما على الخطاب ، وهذا كله قائم على اعتبار المعنى لا اللفظ ، ولما لوحظ المعنى لم يكن هناك وجه لتأنيثهما بأن يقال طائعتين ؛ لأن التأنيث باعتبار اللفظ فقط ، واعتبار اللفظ هنا غير منظور إليه[٣]

أو يقال إن التعبير بجمع المذكر السالم هنا دون المثنى المؤنث منظور فيه إلى أمرين : أولهما : أن الطاعة التى أجابوا بها لن تكون خاصة بهما مستقبلا ، بل تشملهما وتشمل بعد ذلك الملائكة والنجوم والكواكب فى السماء ، كما تشمل أيضا من سيكون فى الأرض من جن وإنس وكل ما تحمل على ظهرها من شئ[٤]، وعلى هذا الاعتبار كان وجه الجمع ، وثانيهما فى كونه مذكرا سالما وذلك لتغليب العاقل على غيره لشرفه ، ولا

---

(١) انظر روح المعانى فى الموضع السابق ومسائل الرازى وأجوبتها ٣٣٣ مطبعة الحلبى وانظر أيضا فى توجيه التثنية تفسير التحرير والتنوير ١٣/٢٦٤–٢٦٥

(٢) فصلت [١١]

(٣) انظر روح المعانى ١٠٣ وانظر أيضا الكشاف ٣/٤٤٦

(٤) انظر مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة ١٣٠–١٣١ على النجدى ناصف دار المعارف بالقاهرة .

شك أن الكل منقاد لأمر الله تعالى ، والتعبير وارد على طريقة التمثيل لبيان أثر قدرة الله سبحانه فى الكون سمائه وأرضه[١] ، وما يستقر فيهما بعد ذلك

ومما أوثر فيه جمع المذكر على المفرد المؤنث فى الفاصلة القرآنية قوله سبحانه ﴿ **إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين** ﴾[٢] ويعلل الزمخشرى لهذا الجمع بقوله « أصل الكلام فظلوا لها خاضعين ، فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع ، وترك الكلام على أصله كقوله : ذهبت أهل اليمامة ، كأن الأهل غير مذكور ، أو لما (وصفت بالخضوع الذى هو للعقلاء قيل خاضعين كقوله تعالى : (**رأيتهم لى ساجدين**) وقيل أعناق الناس رءوسهم ومقدموهم شبهوا بالأعناق كما قيل لهم الرءوس والنواصى والصدور . وقال : فى محفل من نواصى الناس مشهود ، وقيل جماعات الناس ، يقال : جاء عنق من الناس لفوج منهم ، وقرئ فظلت أعناقهم لها خاضعة »[٣]

ذكر الزمخشرى هنا عدة أوجه للتعبير بهذا الجمع يقوم أولها على بيان أهمية الأعناق فى هذه الآية ، ولذلك أسند الخضوع إليها دون بقية الجسم، لأن الخضوع يظهر فيها بصورة أوضح ، فالإسناد على هذا حقيقة ، وإن كان فى الأعناق مجازا مرسلا بعلاقة الجزئية ، لأن لهذا الجزء مدخلا أساسيا فى بيان المراد ، كما يقال : فلان عين قومه على أعدائهم .

أما الوجه الثانى فيعلل هذا الجمع بأنه لما أثبت للأعناق ما هو من خصائص العقلاء وهو الخضوع كان من المناسب أن يرد الخضوع المسند إليها جمع مذكر سالما كما فى قوله سبحانه . ﴿ والشمس والقمر **رأيتهم لى ساجدين** ﴾

أما الوجه الثالث فمبناه المجاز بالاستعارة حيث شبه رءوس القوم وأشرافهم بالأعناق فى الظهور والعلو ، وإذا خضع الكبار والأشراف

---

(١) انظر الكشاف ٤٤٦/٣ (٢) الشعراء [٤]
(٣) الكشاف ١٠٥/٣

فغيرهم من باب أولى .

وإطلاق العنق على الجماعة مطلقا رؤساء أم لا فى الوجه الرابع حقيقة ، ولكن الطيبى ذكر عن الأساس « أن من المجاز أتانى عنق من الناس للجماعة المتقدمة ، وجاءوا رسلا رسلا وعنقا عنقا ، والكلام يأخذ بعضه بأعناق بعض ، ثم قال (الطيبى) : يفهم من تقابل رسلا رسلا لقوله عنقا عنقا أن فى إطلاق الأعناق على الجماعات اعتبار الهيئة المجتمعة ، فيكون المعنى فظلوا خاضعين مجتمعين متفقين عليه لا يخرج أحد منهم عنه »[1]

وكأن الفرق بين استعمال لفظ أعناق فى الحقيقة أو المجاز أنه إذا أريد به مجموعة مطلقة من الناس كان حقيقة ، وإما إذا أريد به طائفة معينة كالرؤساء ، أو هيئة معينة فى اجتماعهم كان مجازا ، فهم يصورون بالأعناق فى التقدم والعلو ، أو يصورون بهم فى هيئة الاجتماع .

أما قراءة ﴿ **فظلت أعناقهم لها خاضعة** ﴾ فهى تدل دلالة واضحة على أن اعتبار رعاية الفاصلة ليس أمرا أساسيا فى القرآنى الكريم يقصد إليه أحيانا دون سواه ، وإلا لتعارضت هذه القراءة مع القراءة المشهورة التى تقصد إلى رعاية الفاصلة إذا كانت أمرا أساسيا فى البلاغة القرآنية ، والله أعلم .

الصورة الثالثة
بين التذكير والتأنيث

هناك آيتان كريمتان وقعت فيهما الفاصلة صفة لشئ واحد ، ولكنها كانت مذكرة فى إحداهما ومؤنثة فى الأخرى ، أما التذكير ففى قوله سبحانه : ﴿ **إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر** ﴾[2] وأما التأنيث ففى قوله تعالى ﴿ **سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية** ﴾[3]

---

(١) روح المعانى ١٩/٦٠

(٢) ٥٤ [١٩—٢٠]

(٣) الحاقة [٧]

ولنا فى بيان سر التذكير والتأنيث هنا أوجه ثلاثة :

أولها : لفظى ، وهو مناسبة الفواصل ، فإن الكلام كما يزين بحسن المعنى يزين بحسن اللفظ »[١]

ثانيهما : نحوى ، وهو أن اسم الجنس تذكيره باعتبار اللفظ ، وتأنيثه باعتبار المعنى ، وقد جمع الألوسى بين الوجهين فى قوله : «والنخل اسم جنس يذكر نظرا للفظه ، ويؤنث نظرا لمعناه ، واعتبار كل فى كل من الموضعين للفاصلة »[٢]

ثالهما : بلاغى ، وهو متولد من التعليل السابق الذى ذكره المفسرون ، وحاول بعضهم التطرق إلى الناحية البلاغية فى التعليل، ولكنه أبعد النجعة ، واتجه إلى التكلف [٣]

والذى نستريح إليه فى هذا المقام أن الوصف بالخواء يناسبه التأنيث مراعاة للمعنى ؛ لأن الخواء خلو الباطن وليس المعنى إلا باطن اللفظ ، ومن هنا يتضح وجه مراعاة المعنى فى التأنيث ، كما أن المناسب للوصف بالانقعار مراعاة اللفظ وهو التذكير ؛ لأن الانقعار المقصود قلع الرءوس ، أو قلعهم من الأماكن التى تحصنوا بها كماذكر المفسرون ، وهذه مسألة ظاهرة للعيان تتعلق بالشكل دون الجوهر ، وما الألفاظ إلا أشكال للمعانى ولذلك لما كان انتشار الجراد ظاهرا روعى اللفظ فى التذكير فى﴿ **يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر** ﴾ .

أما الاقتصار فى التعليل على جواز مراعاة اللفظ فى التذكير ومراعاة المعنى فى التأنيث [٤] دون التطرق إلى تخصيص التذكير بموقعه والتأنيث بموقعه ، أوتعليل ذلك بمراعاة الفاصلة كما ذكر الألوسى فليس فيه ما يبرز الإعجاز القرآنى بصورة أدق وأوفى ، وبذلك يتضح مما قلناه أنه من غير المناسب أن يقع التذكير هنا فى موقع التأنيث أو العكس ، فلكل مقامه

---

(١) التفسير الكبير ٢٩/٤٣ (٢) روح المعانى ٢٧/٨٧

(٣) انظر التفسير الكبير فى الموضع السابق .

(٤) انظر الكشاف ٤/٣٩ والتفسير الكبير وروح المعانى فى الموضعين السابقين

واعتباره ، وهذا بخلاف الشاعر أو الناثر الذى يلجأ إلى الوجه الضعيف أحيانا فى التعبير ليوافق القافية أو السجعة .

هذا من حيث التذكير والتأنيث ، وهو الذى يعنينا فى مقام الحديث عن رعاية الفاصلة ، أما من حيث وصف الأعجاز بالخواء فى الحاقة فلأنهم شبهوا وهم صرعى وأجسادهم بلا أرواح بأعجاز النخل أى أصولها الخاوية الجوفاء ؛ لأن الريح التى استمرت مسخرة عليهم سبع ليال وثمانية أيام دخلت فى أجوافهم فصرعتهم وجعلتهم أجسادا بلا أرواح ، فأصبحوا كأعجاز النخل التى قطعت رءوسها فماتت، وكذلك كان الوصف بالانقعار فى آية القمر لأنه يفيد اقتلاعهم من أماكنهم ، أو قلع رءوسهم من أجسادهم ، ولذلك أصبحوا يشبهون أعجاز النخل لا النخل بتمامه ، وصفة الانقعار مناسبة لقوله تنزع الناس ، كما أن الوصف بالخواء مناسب لقوله قبل ذلك « صرعى » لأن الصريع يكون جسدا بلا روح فهو يشبه النخل الخاوية [١] وبذلك أفادت آية القمر قلع الرءوس من الأجساد أو القلع من الأماكن التى تحصنوا بها ليتعرضوا للريح المهلكة ، وأفادت آية الحاقة خلو الأجساد من الأرواح .

واختيرت الأعجاز فى التصوير دون النخيل ؛ لأن المقصود تشبيههم بالأعجاز فقط لأنهم بعد اقتلاعهم أصبحوا لا يشبهون إلا أعجاز النخيل الخاوية من الثمر والأوراق ، واختيرت أعجاز النخيل دون غيرها من الشجر لأن النخل هو الشجر الوحيد الذى يظل مورقا طول العام سواء أكان مثمرا أم لا ، ولا ينقطع ورقه إلا بقطع رأسه ، بخلاف غيره من الأشجار ، فقد تكون فيه حياة وأوراق مع قطع الرءوس والمقصود تشبيههم بنوع من الشجر يموت بمجرد قطع رأسه وهو النخل ، ولأن حياة النخل مرتبطة ببقاء رأسه ولذلك صور الآدمى بالنخلة إذا قطع رأسه مات ، كما صور المؤمن فى استمرار عطائه بالنخلة فى الحديث المشهور : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها و إنها مثل المؤمن فخبرونى ما هى ؟ فوقع الناس فى شجر

---

(١) انظر تفسير أبى السعود ٢٢/٨

البوادى ... » ثم أخبرهم الرسول ﷺ بأنها النخلة بعد أن كان قد وقع ذلك فى نفس ابن عمر ، لكنه استحيا لصغر سنه .

ونورد فيما يلى ثلاث آيات وردت فاصلتها على التذكير مع أن التأنيث كان مقتضى ظاهر الكلام ، أما الآية الأولى فهى فى قوله تعالى : ﴿ **يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين** ﴾[١] فقد أوثر جمع المذكر على جمع المؤنث لشموله جمع المؤنث على سبيل التغليب ، أو لأن الاقتداء بالرجال أفضل إن قيل إنها مأمورة بصلاة الجماعة[٢]

وأما تقديم السجود على الركوع فلعله كان كذلك فى شريعتهم ، أو يكون المراد بالركوع ركوع الركعة الثانية ، أويراد به الشكر ، أو يكون المراد بالسجود الصلاة وحدها وبالركوع صلاة الجماعة [٣] «ويحتمل أن يكون فى زمانها من كان يقوم ويسجد فى صلاته ولا يركع ، وفيه من يركع ، فأمرت بأن تركع مع الراكعين ولا تكون مع من لا يركع »[٤]

وعلى نحو من هذا التغليب فى هذه الآية الكريمة كان تغليب المذكر على المؤنث فى ﴿ **وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين** ﴾ [٥] لأن القنوت صفة تشمل الذكور والإناث فغلب المذكر لشرفه، أو تكون (من) ابتدائية ، ويكون المعنى : وكانت من سلالة قوم قانتين ؛ لأنها من نسل هارون أخى موسى عليهما السلام [٦] ، وقد سبقت الاشارة إلى تغليب المذكر على المؤنث أيضا فى قوله سبحانه : ﴿ **أتينا طائعين** ﴾

وهناك آية ثالثة [٧] تتعلق بمريم أيضا وردت فيها الفاصلة مذكرة مع أن التأنيث هو الظاهر وذلك فى قوله سبحانه : ﴿ **قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا** ﴾ [٨] والظاهر أن يقال (بغية) ولكن

---

(١) آل عمران [٤٣]
(٢) روح المعانى ١٥٨/٣
(٣) انظر البرهان ٣/ ٢٤٥
(٤) الكشاف ٤٢٩/١
(٥) التحريم [١٢]
(٦) انظر الكشاف ١٣٢/٤
(٧) وهى الآية الثانية من الآيات الثلاث المشار إليها آنفا
(٨) مريم [٢٠]

التذكير يرجع إلى أن (بغيا) فعول بمعنى فاعل ، وأصله بغوى ، اجتمعت الواو والياء ، وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء فى الياء وكسرت العين لأجل الياء ، فتكون مثل صبور الذى يستوى فيه المذكر والمؤنث يقال : رجل صبور وامرأة صبور ، أو لم تلحقه التاء لأنه أصبح وصفا خاصا بالمرأة كطالق وحائض ، فلا يقال للرجل بغى ، وإنما يقال له : باغ ، وأما إن كان وصف (بغى) من فعيل بمعنى فاعل فوجه عدم تأنيثه أنه للمبالغة التى فيه فحمل على فعول .[١]

وأما ما قيل من أن نفى الأبلغ هنا يقتضى ثبوت أصل الفعل فمردود «بأنها لشدة طهارتها ونزاهة بيتها عدته عظيما من مثلها وإن قل »[٢] أو أن البغى لشيوعه فى الزانية صار حقيقة صريحة فى الزنا دون نظر إلى المبالغة .

ولعل إيثار مريم بالتذكير فى المواضع الثلاثة مع جواز التأنيث يشعر بشرف مريم وفضلها لأن الذكورة أشرف من الأنوثة كما هو معروف .

وأما الآية الثالثة من الآيات المشار إليها آنفا فهى قوله تعالى : ﴿ **وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم** ﴾[٣] والرميم اسم لما بلى من العظام لا صفة كالرمة وكالرفات ، فهو من باب الجوامد فلا يجرى عليه التذكير والتأنيث كالصفة »[٤]وهذا التوجيه ضعيف لأن له فعلا وهو رم ، كما أن له وزنا من أوزان الصفة ، ولذلك ذهب الألوسى إلى أنه يمكن أن يكون من الصفة التى على وزن فعيل بمعنى فاعل ، ويكون من رم اللازم،وإنما لم يؤنث لأنه غلب استعماله غير جار على موصوف فألحق بالأسماء الجامدة ، أو حمل على فعيل بمعنى مفعول ، وهو يستوى فيه المذكر والمؤنث ، أو هو من فعيل بمعنى مفعول المتعدى ، من قولهم : رمت الإبل الحشيش ، أى أكلته وتذكيره على هذا ظاهر لأن فعيلا بمعنى

---

(١)انظر روح المعانى ٧٨/١٦ وانظر أيضا مسائل الرازى وأجوبتها من غرائب آى التنزيل٢١٢ مطبعة الحلبى .

(٢) حاشية الشهاب ١٥٠/٦-١٥١ (٣) يس [٧٨]

(٤) انظر تفسير أبى السعود ١٨١/٧

مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث ، فاختير المذكر لاتفاقه مع الفواصل [١]

وبهذا يتضح أن التذكير هنا ليس ضرورة اقتضتها الفاصلة ، ولكنه أتى عى وجه من وجوه اللغة اتفق مع رعاية الفاصلة .

الصورة الرابعة
بين الحذف والزيادة

المقصود بالحذف أو الزيادة فى هذا المقام ما يعم حذف حرف من الفاصلة أو زيادة حرف فيها ، أو حذف كلمة مرتبطة بالفاصلة أو زيادة كلمة فيها على هذا النحو ، وذلك إذا كان ظاهر هذا الحذف أو الزيادة يوهم أنه لرعاية الفاصلة فحسب ، أو صرح بذلك .

ونبدأ أولا بذكر الحذف فى الحروف ثم الزيادة فيها ونثنى بحذف بعض الكلمات أو زيادتها مع ارتباط كل ذلك بالفاصلة .

أما عن حذف حرف من الفاصلة فمن الملاحظ أنه الياء المتطرفة تحذف كثيرا ، وإن كانت هذه الياء قد تحذف من غير الفاصلة كما فى قوله سبحانه **﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾** [٢] **﴿ ذلك ما كنا نبغ ﴾** [٣] وقد اجتمع حذف الواو مع حذف الياء فى كلمتين فى غير الفاصلة كما فى **﴿ يوم يدع الداع إلى شئ نكر ﴾**[٤] وعلى ذلك يمكن القول بأن حذف حرف من الفاصلة ليس مقصورا عليها ، وإن كان يكثر فيها لأنه يغتفر فى الأطراف ما لا يغتفر فى غيرها ، وإن كانت هذه المقولة غير كافية فى تعليل هذا الحذف فى الفاصلة القرآنية ، ولذلك سنبحث عن سر آخر له فى كلام العرب الذين نزل بلغتهم القرآن الكريم قبل الحديث عن الحذف فيه .

وهذا السر كما هو ظاهر من كلامهم هو التخفيف ، ولم يقصروه على الأطراف ، ولذلك قالوا : لا أدر ، ولا أبال ، وقد حكاه الخليل وسيبويه ،

---

(١) انظر روح المعانى ٢٣/٥٤
(٢) هود [١٠٥]
(٣) الكهف [٦٤]
(٤) القمر [٦]

وذكر الزمخشرى أن الاجتزاء بالكسرة عن الياء كثير فى لغة هذيل ، ومن ذلك قوله :

كفاك كف ما يبقى درهما جودا وأخرى تعط بالسيف الدما

وقد قرئ بإثبات ياء (يأت) وصلا وحذفها وقفا ، وبإثباتها وصلا ووقفا، وهو الوجه ، وبحذفها وصلا ووقفا ، وحذفها فى الوقف لشبهها بالفواصل ، أما حذفها وصلا ووقفا فللتخفيف [١] وورد فى حديث أم زرع : زوجى رفيع العماد،طويل النجاد،كثير الرماد،قريب البيت من الناد »[٢]

وعلى ذلك يمكن القول بأن هذا الحذف ليس غريبا فى القرآن الكريم الذى نزل بلغة العرب ، مادام هذا قد ورد فى لغتهم ، وإن كان فى القرآن الكريم لأغراض خاصة سنشير إلى بعضها بالإضافة إلى الغرض العام ، ويقاس على حذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة تخفيفا حذف الواو والاجتزاء عنها بالضمة فى الآية السابقة **﴿ يوم يدع الداع إلى شئ نكر﴾** وإن كان الزركشى قد أشار إلى بعض أغراض خاصة لحذف الواو ، منها التنبيه على سرعة وقوع الفعل وسهولته على الفاعل وشدة قبول المنفعل المتأثر به فى الوجود ، وذكر لهذا الغرض فعلا واحدا ورد فى ثلاثة مواقع ، وفعلا آخر اتفق معه فى الغرض ، وذلك فى الآيات التالية :

١ـ **﴿ سندع الزبانية ﴾** [٣] للدلالة على سرعة الفعل وإجابة المدعو وقوة البطش ، ويدل على ذلك قوله سبحانه : **﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾** [٤]

٢ـ **﴿ ويمح الله الباطل ﴾** [٥] ويدل هذا على سرعة محو الباطل وقبوله لذلك وقوة الحق ، بدليل **﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾**[٦]**﴿ إن الباطل كان زهوقا ﴾**[٧] وليس (يمح)

---

(١) انظر روح المعانى ١٣٩/١١
(٢) انظر تفسير التحرير والتنوير ١٣٦/٢٤-١٣٧
(٣) العلق [٨]
(٤) القمر [٥٠]
(٥) الشورى [٢٤]
(٦) الأنبياء [١٨]
(٧) الاسراء [٨١]

معطوفا على (يختم) بدليل ظهور الفاعل مع (يمح) وعطف المرفوع عليه فى (**ويحق الحق**)، كما أن محو الباطل وإحقاق الحق ليسا داخلين فى حيز الشرط، أما ثبوت الواو فى ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت**﴾[1] فلأن الإثبات هو الأصل [2].

٣- ﴿ **ويدع الإنسان بالشر** ﴾[3] وهذا يدل على سهولة هذه الدعوة عليه ومسارعته فيها كما يسارع فى الدعوة بالخير.

٤- ﴿ **يوم يدع الداع** ﴾[4] وهذا يدل على سرعة الدعاء وسرعة الإجابة [5]

وإذا كان الحذف واردا فى كلامهم فيما ليس بقافية أو سجعة وهو سائغ للتخفيف فإن الحذف فى القوافى أو الفواصل يكون أكثر مساغا كما هو معروف.

وقد ورد حذف الياء كثيرا فى الفواصل القرآنية مثل: ﴿ **الكبير المتعال**﴾[6] ﴿ **يوم التناد** ﴾[7] ﴿ **فكيف كان عذابى ونذر** ﴾[8] ﴿ **فكيف كان عقاب** ﴾[9] وغير ذلك من الفواصل المحذوفة.

ومن حذفها فى المضارع غير المجزوم ﴿**والليل إذا يسر** ﴾[10] ﴿ **إن معى ربى سيهدين** ﴾[11]

ومن حذفها فى الأمر ﴿ **وأنا ربكم فاتقون** ﴾[12] ﴿ **لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾[13] ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين ﴾[14] إلى غير ذلك من الفواصل الكثيرة التى حذفت منها الياء للتخفيف الذى علل به الحذف فى كلام العرب، ولا نخفى أن الياء المحذوفة فى الآيات الأربع الأخيرة ليست حرفا، وإنما هى ضمير المتكلم الواقع مفعولا به، ومثل ذلك حذف

---

(١) الرعد [٣٩]
(٢) انظر البرهان ٣٩٨/١
(٣) الإسراء [١١]
(٤) القمر [٦]
(٥) المرجع السابق.
(٦) الرعد [٩]
(٧) غافر [٣٢]
(٨) القمر [١٦]
(٩) الرعد [٣]
(١٠) الفجر [٤]
(١١) الشعراء [٦٢]
(١٢) المؤمنون [٥٢]
(١٣) الأنبياء [٢٥]
(١٤) الشعراء [٧٨]

المفعول للعلم به فى قوله سبحانه : ﴿ وإياى فاتقون ﴾ ﴿ وإياى فاعبدون﴾ وقد سبق الحديث عن ذلك .

وعن حذف الياء الحرفية من الاسم مثل ﴿ الكبير المتعال ﴾ أو الفعل مثل ﴿ يسر ﴾ يقول أبو على الفارسى فيما نقل عنه : « وليس إثبات الياء فى الوقف بأحسن من الحذف ، وجميع ما لا يحذف وما يختار فيه ألا يحذف نحو (القاض بالألف واللام) يحذف إذا كان قافية أو فاصلة ، فإن لم تكن فاصلة فالأحسن إثبات الياء »[1]

وعلى ذلك لا نستطيع تطبيق قواعد الحذف على القافية أو الفاصلة لأنه يغتفرفيهما مالا يغتفر فى غيرهما ، بل إنهم من أجل التخفيف قد تجاوزوا أحيانا فى تطبيق هذه القواعد فى غير الفاصلة كما رأينا .

وحذفت الياء من ﴿ يسر ﴾ على غير القاعدة للتخفيف ، وكان هذا عندهم مستحبا ، لذلك ينقل الفخر الرازى عن الزجاج قوله : « وحذفها أحب إلى لأنها فاصلة ، والفواصل تحذف منها الياءات ، ويدل عليها الكسرات » ثم نقل كلام الفراء السابق ، ثم قال (الرازى) « فإذا جاز هذا فى غير الفاصلة فهو فى الفاصلة أولى ، فإن قيل : لم كان الاختيار أن تحذف الياء إذا كانت فى فاصلة أو قافية ، والحرف من نفس الكلمة فوجب أن يثبت كما أثبت سائر الحروف ولم يحذف ؟ أجاب أبو على فقال : «القول فى ذلك أن الفواصل والقوافى موضع وقف ، والوقف موضع تغيير فلما كان الوقف تغير فيه الحروف الصحيحة بالتضعيف والإسكان وردم الحركة فيها غيرت هذه الحروف المشابهة للزيادة بالحذف .

وأما من أثبت الياء فى (يسرى)فى الوصل والوقف فإنه يقول : الفعل لا يحذف منه فى الوقف كما يحذف فى الأسماء نحو قاض وغاز ، تقول :

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٦/٣٠

هو يقضى وأنا أقضى ، فتثبت الياء ولا تحذف »(١)

ومع وضوح تعليل الحذف بالتخفيف فإن هذا الغرض العام للحذف فى كلام العرب يمكن أن يسبقه غرض خاص يجعل للحذف فى موقعه خصوصية معينة فى القرآن الكريم تسبق هذا التخفيف الذى يتفق مع رعاية الفاصلة ، وهذا ماسنحاول أن نفتش عنه فى بعض الفواصل القرآنية على غرار ما صنع الزركشى فى حديثه عن الحذف والزيادة فى الفواصل وفى غيرها ، وإن كان حديثه يشوبه أحيانا بعض الغموض الذى لا يتضح معه المراد،ولم أجد فى كلامه عن الحذف أوالزيادة فى الفاصلة ما يفى بالغرض المقصود هنا لأن قضيته الأولى كانت عن الحذف أو الزيادة بصفة عامة ، لكن يفهم من كلامه أن هذا الحذف يدل على خصوصية معينة فى مغنى الكلمة المحذوف منها الحرف ، وكأن الحذف يشير بذلك إلى أن المعنى المقصود ليس هو المعنى المتداول المألوف لدى الناس ، ولذلك لم يأت رسم الكلمة على النمط المألوف لديهم أيضا .

وسنركز فى حديثنا عن حذف الحرف على الياء ؛ لأنها هى التى كثر حذفها فى الفواصل القرآنية

وإن كنا سنبدأ الحديث بالحذف فى غير الفاصلة للدلالة على أن هذا الحذف فى القرآن الكريم ليس خاصا بالفاصلة التى قد يظن أن الحذف فيها كان لمراعاة الفواصل .

من ذلك حذف الياء فى ﴿ **فما آتان الله خير مما آتاكم** ﴾(٢) «لاعتبار ما آتاه الله من العلم والنبوة ، فهو المؤتى الملكوتى من قبل الآخرة ، وفى ضمنه الجسمانى للدنيا ؛ لأنه فان والأول ثابت »(٣)وكأن المؤتى الجسمانى المعروف فى الدنيا مطمور فى المؤتى الحقيقى من قبل الآخرة ، ولذلك روعى الثانى دون الأول للإشارة إلى ذلك .

---

(١)التفسير الكبير ١٥٠/٣١ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان
(٢) النمل [٣٦]   (٣) البرهان ٣٩٩/١

أما حذف الياء من ﴿ فلا تسألن ماليس لك به علم ﴾ [١] « فلأن علم هذا المسئول غيب ملكوتى بدليل ماليس لك به علم ، فهو بخلاف قوله ﴿ فلا تسألنى عن شئ حتى أحدث لك منه ذكرا ﴾ [٢] لأن هذا سؤال عن حوادث الملك فى مقام الشاهد كخرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار » [٣]

وكأن إثبات الياء فى الآية الثانية أنسب بالمسئول عنه فيها ، لأنه محسوس ، والإثبات كذلك ، ولذلك يعلل حذف الياء من ﴿ لئن أخرتن إلى يوم القيامة ﴾ [٤] بأن التأخير المقصود « هو التأخير بالمؤاخذة لا التأخير الجسمى فهو بخلاف قوله : ﴿ لولا أخرتنى إلى أجل قريب ﴾ [٥] لأن هذا تأخير جسمى فى الدنيا الظاهرة » [٦]

وقد كثر هذا الحذف فى الفاصلة كما ذكرت ، وعلله الزركشى فى ﴿ كيف كان نكير ﴾ [٧] بقوله « لأن النكير معتبر من جهة الملكوت ، لامن جهة أثره المحسوس ، فإن أثره قد انقضى وأخبر عنه بالفعل الماضى ، والنكير اسم ثابت فى الأزمان كلها ، وفيه التنبيه على أنه كما أخذ أولئك يأخذ غيرهم » [٨] أى أن النكير هنا مقصود منه العبرة والعظة لغير من وقع بهم ، وليس مقصودا به التعبير عما وقع بهم من حيث صورته المادية .

وحذفت الياء من ﴿ إن كدت لتردين ﴾ [٩] لأنه الإرداء الأخروى الملكوتى ، كذلك ﴿ أن ترجمون ﴾ [١٠] « لأنه ليس المقصود الرجم المعروف بالحجارة ، وإنما هو ما يرمونه به من بهتانهم » [١١]

ولما كان المراد بالوعيد هو الوعيد الأخروى الملكوتى لا الدنيوى حذفت

---

(١) هود [٤٦]
(٢) الكهف [٧٠]
(٣) السابق ٤٠٠
(٤) الإسراء [٦٢]
(٥) المنافقون [١١]
(٦) السابق ٤٠٠
(٧) الملك [١٨]
(٨) السابق ٤٠١
(٩) الصافات [٥٦]
(١٠) الدخان [٢٠]
(١١) السابق

الياء من ﴿ فحق وعيد ﴾ [١] ومن ﴿ لمن خاف مقامى وخاف وعيد ﴾ [٢] وثبتت فى مقامى لأن تحققه ثابت دنيا وأخرى .. وهكذا ، وقس على هذا الحذف فى ﴿ يوم التلاق ﴾ ﴿ يوم التناد ﴾ لأنه تلاق أو تناد ملكوتى أخروى [٣]

وأما حذف ياء (يسر) من آية الفجر فقد قاسه الزركشى على ماسبق فعلله بأنه « السرى الملكوتى الذى يستدل عليه بآخره من جهة الانقضاء أو بسير النجوم » [٤]

وكأنه يريد بذلك أنه سرى غير مألوف ، ولذلك لا تدرك إلا نهايته أو عن طريق سير النجوم

وهذا التعليل يسير فى اتجاهات التعليلات السابقة ، وكأنه يريد أن حذف الياء فى هذه الآيات وأمثالها رمز إما لأمر غيبى ، وكأن غيبة الحرف الأخير وهو الذى يمكن حذفه دون إخلال بالمعنى ترمز إلى غيبة المعنى المعهود فى الكلمة وبعده عن الحس الظاهر ، أو للإشارة إلى أن المعنى المقصود منها ليس هو المعنى المألوفالمتداول ، وكأن عدم الإلف فى بنية الكلمة يرمز إلى عدم الإلف فى المعنى المقصود بها .

وهذا المنطلق يؤيده ما أورده الألوسى عن البغوى فى تفسيره ، وإن كان قد علل حذف ياء (يسر) بغير ما ذكره الزركشى ، وإن اتفق معه فى أساس التعليل ، ذلك أن الأخفش « سئل عن علة سقوط ياء (يسر) فقال : الليل لا يسرى ، ولكن يسرى فيه » وعقب عليه الألوسى بقوله : « وهو تعليل كثيرا ما يسأل عنه لخفائه ، ثم أجاب عنه بقوله : « أراد أنه لما عدل عن الظاهر فى المعنى ، وغيّر عما كان حقه معنى غيّر لفظه ؛ لأن الشئ يجر جنسه لإلفه به (إن الطيور على أشكالها تقع) وهذا كما قيل فى قوله تعالى : ﴿ وما كانت أمك بغيا ﴾ أنه لما عدل عن باغية أسقطت منه التاء ولم يقل بغية ، ومثله من بدائع اللغة العربية » [٥]

---

(١) الرعد [١٤]
(٢) إبراهيم [١٤]
(٣) المرجع السابق ٤٠٢
(٤) السابق ٤٠٣
(٥) روح المعانى ١٢١/٣٠ وانظر حاشية الشهاب ٣٥٧/٨ وما ذكر فى تذكير (بغيا) وجه آخر فى التذكير ، وقد سبق أن ذكرنا وجوها لغوية أخرى لذلك .

وهذه المقولة من الأخفش يمكن أن يرد عليها أن المجاز بنوعيه اللغوى والعقلى وارد فى الاستعمال على غير المألوف من الاستعمالات الحقيقية ، ومع ذلك لم تتغير بنية الألفاظ فيها ، إلا إذا كان المراد هنا أن هناك معانى خاصة فى الألفاظ القرآنية التى غيرت بنيتها للإشارة إلى هذه المعانى الخاصة فضلا عن المعانى المجازية المعروفة ، والمجاز فى ﴿ **والليل إذا يسر** ﴾ يمكن أن يكون من قبيل المجاز المرسل أو الاستعارة أو المجاز العقلى [1]

ومع هذا فإن مواكبة بنية اللفظ للمعنى من الأمور الدقيقة فى هذه اللغة التى تفردت بها ، فلم يكتف فيها بدلالة اللفظ على معناه ، بل كان هناك جانب آخر يرتبط بمواكبة الناحية الشكلية فى اللفظ للناحية المعنوية ، ولهذا شواهد كثيرة منها ما نلاحظه من ثقل لفظى فى ﴿ **اثاقلتم** ﴾ ليلائم المقصود فى المعنى ، وكذلك كان طول الكلمة فى ﴿ **أنلزمكموها** ﴾ مناسبا للمعنى المقصود وهو الإلزام

وقد يختار لفظ غريب دون مرادفه ليدل على غرابة المعنى فى مقامه كما فى ﴿ **تلك إذن قسمة ضيزى** ﴾ [2] دون أن يقال : جائرة أو ظالمة ، حيث خصوا الله سبحانه بما يكرهون من البنات ، وخصوا أنفسهم بالذكور مع أنه سبحانه ليس له ذكر ولا أنثى ، وعندما أرادوا أن ينسبوا له أحدها خصوه بما يكرهونه .

ومن هذا المنطلق سترت أسماء النساء فى القرآن الكريم ليعضد ذلك الستر المطلوب فى حقهن ، واستثنى من ذلك بعض الأسماء التى ارتبطت بأمر غريب كمريم ، وكذلك حذف المفعول وهو العورة فى حديث عائشة : « كنت أغتسل أنا ورسول الله من إناء واحد ، فما رأيت منه ولا رأى منى » ليتفق الستر اللفظى مع الستر المطلوب فيها .

ومن مخالفة المألوف فى العطف لمناسبة التعبير عن معنى غير مألوف فى الكلمة ما نلاحظه فى قوله سبحانه : ﴿ **إذ قالت الملائكة يا مريم إن**

---

(١) انظر حاشية الشهاب ٣٥٨٧/٨ (٢) النجم [٢٢]

الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس فى المهد ﴾[1] حيث عطف المضارع (يكلم) على الاسم (وجيها) وفى هذا مخالفة للمألوف فى العطف ، وقالوا فيه إنه « عطف على الحال الأولى أيضا (وجيها) وعطف الفعل على الاسم لتأويله به سائغ وشائع ، وهو فى القرآن كثير »[2]

ولا يخلو عطف الاسم على الفعل أو عطف الفعل على الاسم من نكتة متولدة من طبيعة دلالة كل منهما ، وهى لا تعنينا الآن ، وإنما ما أود الإشارة إليه أنه لما كان الكلام فى المهد غريبا غير مألوف ناسب ذلك أن يخالف فى الكلمة الدالة عليه بإيرادها فعلا معطوفا على اسم فضلا عن الأغراض الأخرى لهذا التعبير ، وشبيه به الالتفات من الخطاب إلى الغيبة لمناسبة معنى الفعل الدال على البعد والإعراض فى قوله سبحانه : ﴿ قل أطيعوا الله والرسول فإن توليتم فإن الله لا يحب الكافرين ﴾[3]

وبذلك يتناسب الشكل مع الموضوع فى الكلمة القرآنية ، بل إنهم قد يحذفون أكثر من حرف فى الكلمة حتى تصير إلى التشويه أقرب ، ولكنها تدل على معناها بمعونة المقام ، وذلك ما نلاحظه فى التعبير عن المنازل الدارسة كما فى قول لبيد « درس المنا بمتالع فأبانا » أراد المنازل ، وما أمر الحذف على طريق الترخيم فى ﴿ ونادوا يا مال ليقض علينا ربك ﴾[4]

وقول عنترة :

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها ... قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

بغريب علينا لاقتضاء مقام الحديث ذلك .

أما عن الزيادة فإننا نلاحظ أن هناك بعض الحروف تزاد فى الفاصلة القرآنية ، وبهذه الزيادة تتحقق رعايتها ، وهذا التعليل وحده يمكن أن ينقض

---

(١) آل عمران [٤٥ ـ ٤٦]

(٢) روح المعانى ١٦٣/٣

(٣) آل عمران ح ٣٢]

(٤) الزخرف [٧٧] وانظر خصائص التركيب ١١٣ /١١٤ د/ محمد أبو موسى مكتبة وهبة.

بمخالفة هذه الرعاية فى السورة الواحدة ، بل إنه قد تكرر نفس الكلمة فى السورة الواحدة ، ويجد الألف فى فاصلتها زائدة فى موقع ، وخالية منها فى موقع آخر ، ففى سورة الأحزاب مثلا وردت زيادة الألف فى (رسولا — الظنونا — السبيلا —) ولم ترد هذه الزيادة فى (السبيل) فى موقع آخر ، وكل هذا يحتاج إلى تعليل وتفسير بقدر ما نستطيع ، ولو كانت رعاية الفاصلة مقصودة لذاتها لما كان الخلو منها فى بعض المواقع .

وهذه الألف الزائدة فى الكلمة تشبه ألف الإطلاق التى تزاد فى ضرب الشعر كثيرا وقد تزاد فى العروض أيضا أيضا كما فى قول عنترة :

ألا قاتل الله الطلول البواليا وقاتل ذكراك السنين الخواليا
وقولك للشئ الذى لا تناله إذا ما هو احلولى ألا ليت ذا ليا

وقد ركزالمفسرون حديثهم عن زياد هذه الألف فى بعض الفواصل على إثباتها أو حذفها فى الوصل أو الوقف ، ولم يتطرقوا لشئ فوق ذلك ، ولهذا يقول الألوسى عن ألف (الظنونا) فى قوله سبحانه : ﴿ **وتظنون بالله الظنونا** ﴾[1] « وأما إثباتها فى الوقف ففيه اتباع الرسم وموافقة لبعض مذاهب العرب ؛ لأنهم يثبتون هذه الألف فى قوافى شعرهم ومصاريعها ، ومن ذلك : أقلى اللوم عاذل والعتابا ، والفواصل فى الكلام كالمصاريع ، وقال أبو على : « إن رءوس الآى تشبه القوافى من حيث كانت مقاطع كما كانت القوافى مقاطع »[2]

وكان من المنتظر أن يتحدث بعض المفسرين عن عدم زيادة الألف فى ﴿ **والله يقول الحق وهو يهدى السبيل** ﴾[3] بالمقارنة بزيادتها فى ﴿ **ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا** ﴾ فى السورة نفسها[4]، ولكنهم اكتفوا فيما قرأت بتشبيه الألف الزائدة فى الفاصلة بألف الإطلاق[5]

---

(١) الأحزاب [١٠]   (٢) روح المعانى ٢١/١٥٧-١٥٨ وتفسير التحرير والتنوير ٢١/١١٦
(٣) الأحزاب [٤]   (٤) آية [٦٧]
(٥) انظر المرجع السابق ٢٢/٩٤

ولعل عدم تعليلهم لعدم الزيادة فى ﴿ والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ﴾ مرجعه أن التعبير وارد على الأصل ، وما جاء على أصله لا يسأل عن علته ، ولكنى أشعر بأن الأمر أبعد من ذلك ، فمادامت الزيادة لم تخل من تعليل ينبغى أن يكون عدمها كذلك ، وبخاصة أن الزيادة وعدمها وردتا فى فاصلة واحدة وفى سورة واحدة ، وإن كان ورود السبيل بدون ألف فى الأحزاب يدل على أن رعاية الفاصلة ليست غرضا أساسيا وإلا لكان ذلك لازما فى السورة كلها كما ذكرت .

وسنكتفي فى هذا المقام بتتبع فواصل سورة الأحزاب التى لحقتها الألف فى نهايتها ، وكانت بذلك موافقة لفواصل السور ، أو التى لم تلحقها الألف ، وكانت بذلك مخالفة لفواصل السورة ؛ لأن الفاصلة فى كل واردة على خلاف الظاهر فى الإلحاق وعدمه ، أما الفواصل الأخرى التى سارت على النمط المألوف من المد فى السورة فليست مجال بحثنا ؛ لأن هذه الدراسة تهدف أساسا إلى التنقيب عن أسرار مخالفة الظاهر فى بعض الفواصل القرآنية التى عللت هذه المخالفة فيها برعاية الفاصلة كزيادة حرف أو نقص حرف ، وأما ورود الكلمة على الأصل الذى تخالف به الفواصل الأخرى فيحتاج إلى تعليل أيضا لمخالفة الظاهر ، وإن كانت دراسة الفواصل القرآنية بصفة عامة تحتاج إلى بحوث عديدة متكاملة تتضافر فيها الجهود ، وتتعاون فيها كل فروع اللغة ، وبخاصة علم الأصوات وعلم اللغة الحديث وما استجد فى هذا الشأن من دراسات متطورة كما ذكرت آنفا .

أما الآية الأولى من سورة الأحزاب التى لم تلحق فاصلتها الألف ، وكانت بذلك متفردة عن بقية فواصل السورة الكريمة فهى الآية المشار إليها آنفا ، وهى قوله تعالى : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلك قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ﴾ .

---

(١) الأحزاب [٤]

من الملاحظ فى هذه الآية الكريمة أنها أوردت ثلاثة أمور لم تجر على ما هو المألوف فى طبيعتها ، وذلك فى حيز النفى المصاحب لكل منها ، أما الأمر الأول فهو جعل قلبين فى جوف رجل واحد ، والأمر الثانى جعل الزوجة أما ، والأمر الثالث جعل الدعى ابنا ، وقد سبق الأمر الأول وإن كان مسلم النفى ليقاس عليه الأمران الآخران ، أعنى جعل الزوجة أما والمتبنى ابنا ليصير الثلاثة فى حكم الخروج عن الفطرة السليمة والطبائع المستقيمة سواء.

ولما كانت الآية الكريمة واردة لإنكار ونفى هذه الأمور الثلاثة الخارجة عن النمط المألوف ، والمنهج السوى كان من المناسب أن تأتى فاصلة الآية الكريمة كلمة السبيل على طبيعتها المألوفة على الكتابة دون زيادة أو نقص فيها ، وكأن فى ذلك إشارة إلى أنه سبحانه يهدى إلى السبيل المستقيم الذى لا يقبل زيادة ولا نقصا ولا خروجا عن المألوف ولاشذوذا ، يهدى إلى السبيل الذى يتفق وطبائع الأمور ويسير مع الفطر السليمة والطبائع المستقيمة التى لا عوج فيها ولا شذوذ ، وكأن فى ذلك رمزا إلى أن الأمور الثلاثة السابقة أمو شاذة خارجة عن النهج المستقيم الذى يهدى إليه الحق سبحانه ، وبذلك اقتضى المقام ورود كلمة السبيل على رسمها المألوف المعهود فى مواجهة الظواهر الشاذة فى الأمور السابقة ، وبدئ أولها بما هو مسلم الاستحالة ليقاس عليه الظاهرتان الشاذتان الأخريان الخارجتان عن السبيل المستقيم الذى يهدى إليه الحق سبحانه ويدعو إليه **﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾**[1]

أما زيادة الألف فى (السبيلا) فى قوله سبحانه : **﴿ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ﴾**[2]

---

(١) الأنعام [١٥٣]

(٢) الأحزاب ٦٤ـ ٦٧]

فلأنه لما كانت نظرة الكفار إلى هذا السبيل في الدنيا تختلف عن نظرتهم إليه في الآخرة ، حيث كانوا يعتبرونه في الدنيا سبيل ضلال وسحر وجنون وشعر وكهانة ، ثم تبين لهم في الآخرة بطلان ما كانوا عليه صار السبيل في الآخرة كأنه سبيل جديد غير مألوف لهم لاختلاف نظرتهم إليه ، فكان في الدنيا باطلا في نظرهم ، وصار في الآخرة بعد ما عاينوا العذاب حقا وصدقا غريبا عليهم ، ولذلك كان من المناسب زيادة هذه الألف لترمز إلى المعنى الجديد ، والنظرة الجديدة لهذا السبيل في الآخرة ، ولا يخفى ما في مد الصوت بهذه الألف من تعظيم لهذا السبيل .

ويواكب ذلك أيضا ويسير فيّ اتجاهه زيادة الألف في كلمة (الرسولا) في قولهم : ﴿ **ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا** ﴾ ذلك أن هذه الألف تشعر أيضا بعظمة هذا الرسول ، كما تشير إلى الصورة الجديدة ، والنظرة غير المألوفة لهذا الرسول في الدنيا ، حيث اتهموه بالسحر والكذب وبالجنون .:. إلى غير ذلك من النعوت المفتراه ، ولكن انقلب هذا الاحتقار إلى التعظيم في الآخرة ، وتبدلت نظراتهم إليه ، فصار كأنه غير مألوف لهم على هذا الوجه في الدنيا ، وخصوصا بعدما عاينوا ما أعد لهم وما أعد للرسول ﷺ ومن آمن معه ، وكأن الألف بذلك ترمز إلى شئ من هذه المعاني.

وأما الألف الزائدة في (الظنونا) فقد وردت في سياق الامتنان بنعمة الله على المسلمين في غزوة الأحزاب يقول سبحانه : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا** ﴾[1]

وفي هاتين الآيتين بيان للموقف العصيب للمؤمنين في غزوة الأحزاب الذي يجب أن يذكروا نعمة الله عليهم فيه حيث جاءهم جنود الأعداء

---

(١) الأحزاب [٩ـ ١٠]

كثرة متكاثرة وأحاطوا بهم إحاطة شاملة ، فزاغت أبصارهم ، وكادت نفوسهم تزهق ، وأصابهم من شرود الأذهان وتوزع الخواطر وتشعب الظنون حول نصر الله لهم وزلزلوا لأنهم بشر يتنابهم الخوف والفزع كسائر البشر ، فأمدهم الله بمدد من جنده ظاهرا وباطنا على نحو ما ذكرته الآيتان الكريمتان .

وكان التعبير بالمضارع دون الماضى فى (وتظنون بالله الظنونا) مخالفا للنسق السابق فى (**وزاغت الأبصار وبلغت القلوب بالحناجر**) لاستحضار هذه الحالة العجيبة التى صار عليها المسلمون ، وكأنها مشاهدة فى هذا الموقف العصيب ، ولما كثرت ظنونهم وهواجسهم وتوزعت أفكارهم كان من المناسب إيراد الظنون مجموعة مع أن المصدر فى الأصل لا يثنى ولا يجمع .

وقد واكب جمع الظنون ، وأعان على إبراز هذا الجانب النفسى للمؤمنين الألف التى ختمت بها الفاصلة ، وكأنها تشير « إلى إطلاق العنان للخيال الفزع والخاطر الشرد حين زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر »[1] وكأن الصوت فى هذه الكلمة يفسح المجال لامتداد الظنون فيدل ذلك على كثرتها ، وتوزع الخيال واستمراره ، كما يمكن أن يكون بناء الكلمة على غير المألوف فى الرسم للإشارة إلى غير المألوف فى هذه الظنون من حيث كثرتها وخروجها نوع خروج عن حسن الظن بالله الذى وعد بنصر المؤمنين ، والخوف والفزع وإن كان فطرة فى الإنسان لكن هناك أمورا كثيرة مرتبطة بالفطرة يجب أن تقاوم كالعجلة فيها والإفراط فى الفرح أو الحزن .... وغير ذلك .

ونختم هذه القضية حول مشاكلة اللفظ للمعنى ، ودلالة امتداد الصوت على امتداد المعنى وكثرته بتعضيد ذلك أيضا بكلام بعض الأئمة فى هذا الميدان .

ففى تفريقهم بين النفى بالحرفين (لن ولا) استدلوا على امتداد النفى بلا دون لن لامتداد الصوت فى الأولى وانحباسه فى الثانية يقول السهيلى

---

(١) من أسرار التعبير القرآنى ٥١ د/ محمد أبو موسى . دار الفكر العربى .

عن النفى بلا « إن امتداد الصوت وانطلاقه فى هذا الحرف يشعر بتطاول زمن هذا النفى ، وأن النفى به حرى أن يكون للتأبيد ، وذلك بخلاف (لن) التى يدل احتباس الصوت فيها على احتباس المعنى وعدم سريانه مع الزمن الممتد المتطاول البعيد »[١]

ويؤكد أيضا قضية مشاكلة اللفظ للمعنى والاستشهاد عليها بالفرق بين زمن النفى فى الحرفين السابقين ابن القيم فى قوله :

« ولا يمتد معنى النفى فيها (لن) كامتداد معنى النفى فى حرف (لا) إذا قلت : زيد لا يقوم أبدا ، وقد قدمنا أن الألفاظ مشاكلة للمعانى التى هى أرواحها يتفرس الفطن فيها حقيقة المعنى بطبعه وحسه ، كما يتعرف الصادق الفراسة صفات الأرواح فى الأجساد التى هى قوالبها بفطنته ، وقلت يوما لشيخنا أبى العباس ابن تيمية قدس الله روحه : قال ابن جنى : مكثت برهة إذا ورد علىّ لفظ آخذ معناه من نفس حروفه وصفاتها وجرسه ، وكيفية تركيبه ، ثم أكشف فإذا هو كما ظننته أو قريبا منه ، فقال رحمه الله : وهذا كثيرا ما يقع لى ، وتأمل حرف (لا) كيف تجدها لاما بعدها ألف يمتد بها الصوت ما لم يقطعه ضيق النفس ، فآذن امتداد لفظها بامتداد معناها ، و(لن) بعكس ذلك ، فتأمله فإنه بديع »[٢]

وأما ثبوت ألف الفاصلة فى قوله سبحانه : ﴿ **ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولاتخشى** ﴾[٣] فلأن المعطوف عليه (تخاف) جملة حالية من ضمير (فاضرب)على معنى غير خائف فيه وغير خاش ، أو حال من (يبسا) والعائد محذوف ، أى فيها ، أو تكون الجملة مستأنفة ، أى أنت لا تخاف ولا تخشى .

وأما على قراءة جزم (لا تخف) فيحتمل أن تكون (لا) ناهية ،

---

(١) قراءة فى الأدب القديم ٢٣ د/ محمد أبو موسى نقلا عن السهيلى . دار الفكر العربى.
(٢) بدائع الفوائد لابن القيم ٩٥/١ـ٩٦ ط دار الفكر ـ بيروت ـ لبنان .
(٣) طه [٧٧]

والفعل مجزوم بها ، وهو نهى مستأنف ، أو أنه واقع فى جواب الأمر ، كأنه قيل : إن تضرب لا تخف ، وعلى هذه القراءة بجزم (تخف) هناك ثلاثة أوجه فى رفع (تخشى) أولها الرفع على الاستئناف كأنه قيل : وأنت لاتخشى ، أى أن من شأنك أنك لا تخشى ، وثانيها أن الألف زائدة للفاصلة على حد (الظنونا ــ السبيلا) مثل ألف الإطلاق فى الشعر ، وثالثها أن الفعل ليس مجزوما بحذف حرف العلة ، وإنما هو مجزوم بحذف الحركة المقدرة على حد قوله :

إذا العجوز غضبت فطلق ولا ترضاها ولا تملق

وقول الآخر :

وتضحك منى شيخة عبشمية كأن لم ترى قلبى أسيرا يمانيا[1]

والتخريج الأول من التخريجات الثلاثة الأخيرة لرفع (تخشى) مع جزم (تخف) هو الراجح ، لأنه يرد على الثانى تمحيض الألف للفاصلة ، ويرد على الثالث أنه لغة ضعيفة لا ينزل عليها أفصح الكلام .

ومما يعضد التخريج الأول على الاستئناف أن الرفع والاستئناف يلفت النظر إلى مابين الخوف والخشية من فرق دقيق ؛ لأن الخشية أعظم من الخوف وأشد ، ولذلك كان النهى عن الخوف مرتبطا بفرعون والنهى عن الخشية مرتبطا بالغرق ، وثانيهما أخطر من الأول لأن إدراك فرعون قد يظن معه النجاة بخلاف الغرق ، وكأن المخالفة بعدم العطف تلفت إلى المخالفة فى المعنى ، وقد حذف متعلق الخشية الواقعة فاصلة للعلم به من المقام ، ولذلك حذف تمام متعلق الخوف أيضا مع أنه ليس فاصلة ، وقدم خوف الدرك على الخشية لمناسبة حالهم فى خوفهم من فرعون بقولهم ﴿ إنا لمدركون ﴾ ولذلك سورع فى إزاحته بتقديم نفيه[2]

وأما ألف الفاصلة فى قوله سبحانه : ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾[3] فقد

---

(١) انظر التفسير الكبير ٨٠/٢٢ وروح المعانى ٢٣٦/١٦ -٢٣٧
(٢) المرجع السابق للألوسى . (٣) الأعلى [٦]

عُلل ثبوتها برعاية الفاصلة لأن المضارع مجزوم بلا الناهية ، ولكن الراجح أن الكلام وارد على سبيل الخبر لا الإنشاء بمعنى : سنقرئك إلى أن تصير بحيث لا تنسى ، وبحيث تأمن النسيان كقولك : سأكسوك فلا تعرى ، أى فتأمن العرى [١] وقد ضعف أصحاب هذا الرأى الرأى الأول بأنه لا يتم إلا على طريق المجاز بجعل النهى عن النسيان محمولا على النهى عن عدم التكرار وعدم التذكر المستمر والقراءة ، وهذا خلاف الظاهر ، كما أن القول بأن الألف مزيدة للفاصلة خلاف الأصل أيضا ، هذا فضلا عن أن النهى الذى قيل به يجعل العبارة خالية من البشارة لرسول الله ﷺ بعدم النسيان[٢]

هذا وينبغى قبل أن ننهى الحديث عن حذف بعض الحروف أو زيادتها فى الفاصلة لأغراض معينة أن نشير إلى أنه قد يقع حرف مكان آخر فى الفاصلة أيضا كما فى قوله سبحانه عن الأرض : ﴿ **يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها** ﴾[٣] حيث تعدى الفعل (أوحى) باللام ، والمعروف أنه يتعدى بإلى كما فى قوله سبحانه : ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل** ﴾ [٤] ﴿ **وإذ أوحيت إلى الحواريين** ﴾ [٥] وغير ذلك .

وقالوا عن هذه التعدية : إن اللام بمعنى إلى ، ومنه قول العجاج : أوحى لها القرار فاستقرت ، أو تكون اللام لام العلة والمنفعة وهى على حقيقتها ، وليست بمعنى إلى ؛ لأن الأرض ذات منفعة فى هذا الإيحاء ، حيث تتحدث عن كل ماارتكب على ظهرها من مفاسد لتتشفى من العصاة ؛ واختار الشهاب وتبعه الألوسى أن تكون اللام للفاصلة [٦] ، وعبارة الزمخشرى فى هذه التعدية : « وأوحى لها بمعنى أوحى إليها ، وهو مجاز كقوله ﴿ **أن نقول له كن فيكون** ﴾[٧]

---

(١) انظر التفسير الكبير ١٢٨/٣١
(٢) المرجع السابق .
(٣) الزلزلة [٤ـ ٥]
(٤) النحل [٦٨]
(٥) المائدة [١١١]
(٦) انظر التفسير الكبير ٥٧/٣٢ وتفسير أبى السعود ١٨٩/٩ وحاشية الشهاب ٣٨٩/٨ وروح المعانى ٢١٠/٣٠
(٧) الكشاف ٢٧٦/٤

وكأن الزمخشرى أراد بالمجاز هنا أن الوحى ليس على حقيقته ، وإنما هو مضمن معنى القول ؛ لأنه يدخل فى إطار انفعال كل المخلوقات لأمر الله سبحانه بقوله : ﴿ كن فيكون ﴾ ، وإذا كان الكلام واردا على التضمين كانت تعديته باللام واقعة موقعها .

ويؤيد القول بالتضمين هنا ما أورده ابن كثير عن البخارى فى قوله : « أوحى لها وأوحى إليها ووحى لها ووحى إليها واحد » ، وكذا قال ابن عباس : أوحى لها أى أوحى إليها، ثم عقب ابن كثير على ذلك بقوله : « والظاهر أن هذا مضمن بمعنى أذن لها »[1]

وسواء أكان الوحى مضمنا معنى القول أو الإذن فالتعدية واردة على [illegible] ما يتعدى باللام كالقول أو الإذن ، ولعل فائدة هذا [illegible] تحديث الأرض بأخبارها الدلالة على مدى انفعال الجمادات واستجابتها لربها [illegible] هذا اليوم [illegible] ، فهى تستجيب للخالق عن طريق الوحى وعن طريق القول [illegible] الإذن [illegible] بأى طريق أراده الحق سبحانه ، فكيف ينكرون البعث والإعادة مرة أخرى ليصيرورتهم فى قبورهم ترابا ؟ ولذلك قال سبحانه بعد ذلك : ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ ومن هنا أوثر الفعل (يصدر) اللازم ، وبنى الفعل (يروا) للمجهول للدلالة على سهولة ويسر الإصدار والإراءة ، وكأنهما يحدثان تلقائيا . والله أعلم .

أما عن الحذف فى غير الحروف المرتبط برعاية الفاصلة كحذف كلمة مثلا فمن شواهده حذف المفعول فى ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾[2] للتعميم ، ولذلك فسره البيضاوى بقوله : « أعطى الطاعة » والطاعة تشمل كل مأمور به أو منهى عنه ، ويؤيد هذا العموم اختلافهم فى تعيين المعطى ، فقد ذهب بعضهم إلى أنه المال ، وقال قتادة : المعنى أعطى حق الله تعالى،

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٥٣٩/٤ مكتبة الدعوة الإسلامية .
(٢) الليل [٥]

ويدخل فيه المال دخولا أوليا ، وقد خصه الزمخشرى بحقوق المال ، ويؤيده مناسبته للمال ، وتبادره منه ، ومقابلته بالبخل أيضا ، وذكر المال بعد ذلك ووقوعه فى سياق التصديق المذكور بعد[1]. وعلى هذا التخصيص يكون سر الحذف الإيجاز لقيام القرينة على ذلك .

وأما حذف مفعول الاتقاء فللعلم به ، لأن المتقى حقيقة هو الله سبحانه ، وبهذا قدره الزمخشرى [2]، أو للعموم ، ولذلك فسره قتادة بأنه اتقاء ما نهى عنه أو اتقاء محارم الله ، وكل ذلك داخل فى تقوى الله سبحانه على مافسره الزمخشرى ، فيكون حذف المفعول أيضا كسابقه للعلم به ، وكل ذلك يدخل فى الإيجاز ، وذكر التصديق بالحسنى بعد الإعطاء والاتقاء من باب ذكر الخاص بعد العام .

ويدخل فى حذف المفعول للعلم به أيضا حذفه فى قوله سبحانه : ﴿ **ما ودعك ربك وما قلى** ﴾ [3] ويمكن أن يقال أيضا إنه لما كان النفى فرع الإثبات حذف المفعول « لئلا يواجه عليه الصلاة والسلام بنسبة القلى وإن كانت فى كلام منفى لطفا به ﷺ وشفقة عليه عليه الصلاة والسلام ، أو لنفى صدوره عنه عز وجل بالنسبة إليه ﷺ ولأحد من أصحابه ومن أحبه ﷺ إلى يوم القيامة »[4] ولما كان التوديع ليس بمنزلة القلى لم يحذف مفعوله فى (ودعك) فضلا عن أنه منفى .

ومن حذف المفعول فى الفاصلة لدلالة الحال أو المقال : ﴿ **ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى** ﴾ [5] ولهذا الغرض أيضا حذف المفعول أو المتعلق من الفاصلة فى قوله سبحانه : ﴿ **وثمود فما أبقى** ﴾[6] أى فما أبقى منهم أحدا ، أو فما أبقى عليهم ، أو فما أبقى من كفارهم .

---

(١) انظر الكشاف ٢٦١/٤ وروح المعانى ١٤٩/٣٠
(٢) المرجع السابق .
(٣) الضحى [٣]
(٤) روح المعانى ٥٦/٣٠
(٥) الضحى [٦-٨]
(٦) النجم [٥١]

وقد يكون المتعلق المحذوف متعلقا لأفعل التفضيل الواقع فاصلة كما فى قوله سبحانه عن مؤمنى سحرة فرعون : ﴿ **إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى** ﴾(١) والتذييل هنا واقع جوابا لقول فرعون السابق ﴿ **ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى** ﴾ فكأنهم ردوا عليه بقولهم : « والله خير ثوابا لمن أطاعه فى مقابلة أشد عذابا، وأبقى عقابا لمن عصاه ، وأما عقابك أنت فموقوت محدود (٢) وبذلك أعان السياق على تحديد المتعلق المحذوف .

ومن حذف متعلق أفعل التفضيل أيضا للعلم به ﴿ **وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى** ﴾ (٣) أى أخفى من السر ، وإنما جمع بين السر وما هو أخفى منه فى العلم مع أن العلم بما هو أخفى يدل على العلم بالسر من باب أولى للدلالة على أن أنهما متساويان فى متعلق العلم بهما ، وتقديم السر من باب التدرج أو لمقابلته بالجهر

وقد يحذف المفعول الأول والثانى للفعل الواقع فاصلة كما فى قوله سبحانه : ﴿ **أين شركائى الذين كنتم تزعمون** ﴾ (٤) أى تزعمونهم شركاء ، بدلالة الكلام السابق .

وهكذا نجد حذف متعلق الفاصلة كثيرا للعلم به وليس من أجل الفاصلة وحدها .

وقد تبنى الفاصلة للمجهول فيحذف الفاعل لعدم تعلق الغرض بذكره كما فى قوله سبحانه : ﴿ **وما لأحد عنده من نعمة تجزى** ﴾(٥)

هذا وقد ترد كلمة قبل الفاصلة تجعلها متفقة مع فواصل السورة ، ويظن

---

(١) طه [٧٣]

(٢) انظر التفسير الكبير ٨٩/١١ وانظر أيضا تفسير التحرير والتنوير ٢٦٧/١٦

(٣) النجم [٥١]

(٤) القصص [٦٢ ، ٧٤]

(٥) الليل [١٩]

بهذه الكلمة الزيادة من أجل الفاصلة لأنها لو حذفت لتغير إعراب الفاصلة[١] وذلك كما فى قوله سبحانه : ﴿ **يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون** ﴾[٢] والشاهد فى تكرار (لعل) فى الآية الكريمة ، لأنه لو حذف لقيل : لعلى أرجع إلى الناس ليعلموا .

والواقع أن الآية الكريمة لا زيادة فيها بالتكرار ، وإنما ذكرت (لعل) الأولى والثانية جريا على نهج الأدب مع يوسف عليه السلام ، واحترازا عن المجازفة بالقطع برجوعه ، أو القطع بعلم الناس حيث إنه قد لا يتم هذا العلم بالنسبة لهم لعدم فهمه أو لعدم الاقتناع به [٣]

الصورة الخامسة

بين الرفع والنصب

من المعروف لدى المشتغلين بعلوم العربية أن قضية الإعراب فى الكلمات ليست صناعة نحوية شكلية ، بمعنى أن يكون المقصد الأساس من الإعراب هو بيان ما يستحق الرفع أو النصب أو الجر من الألفاظ ، وما يجوز فيه أكثر من وجه وتنتهى المسألة عند هذا الحد ؛ لأن ذلك يجعل النحو قوالب جامدة، وقواعد جافة لا روح لها ولا مغزى ، وإنما هى أشبه بالمسائل الرياضية ، أو القوالب المنطقية ، ولذلك لما اقتصرت دراسة النحو على قواعد الإعراب وما يرتبط بها من أوجه للخلاف وما يجوز فيه أكثر من وجه هرب الدراسون من النحو ، لأنه أصبح فى نظرهم ألغازا ورموزا شكلية جوفاء ، والنحو الحقيقى الذى فهمه عبد القاهر وأضرابه وأقام على أساس توخى معانيه نظرية النظم برئ من كل هذه الاتهامات ؛ لأن الإعراب فرع المعنى ، فلا ترفع الكلمة فى الجملة أو تنصب أو تجر إلا على أساس من المعانى

---

(١) انظر الفاصلة القرآنية ٢٥ د/ عبد الفتاح لاشين . دار المريخ بالرياض .

(٢) يوسف [٤٦]

(٣) انظر روح المعانى ٢٥٤/١٢

الكامنة فى النفس ، وبذلك يفصح المتكلم البليغ عن معانيه عن طريق الكلمات المضبوطة ضبطا معينا فى الجملة يدل على هذه المعانى ، ويمكن القول أيضا بأن المعنى فرع الإعراب ؛ لأن من يقرأ نصا معينا فصيحا ، ويتدبر المواقع الإعرابية للكلمات فى الجملة ، وعلاقة هذه الكلمات ببعضها كما تبرزها عملية الإعراب يصل من وراء ذلك إلى المعنى الكامن فى النفس الذى استدعى أن ترد الجملة على نظم خاص يفصح عن هذا المعنى ، وعلى أى من هذين الاعتبارين المتلازمين فلا ينفك المعنى عن الإعراب ، والدراسة النحوية الصحيحة الجادة تقوم على ذلك ، ولذلك لم نجد فصلا بين الدراسات النحوية والبلاغية عند سلف هذه الأمة ، وسدنة هذه اللغة من أمثال الخليل وسيبويه والمبرد وابن جنى وغيرهم ، وإن كان الطابع النحوى قد غلب على منهجهم .

وما نورده هنا يدخل فى إطار التطبيق العملى لعلاقة المعنى بالإعراب ، أو توخى معانى النحو على حسب الأغراض التى يساق لها الكلام ، بحيث يستدعى الغرض طريقة ونمطا معينا من التوخى ، فإذا تغير الغرض تغيرت هذه الطريقة .

ويتضح ذلك من المقارنة بين آيتين كريمتين من حيث الإعراب المرتبط فى إحداهما بالفاصلة ، والغرض الذى يستدعى وجها فيه دون الآخر ، أما الآية الأولى فهى قوله تعالى : **﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور ﴾**[1] وأما الثانية فهى **﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾**[2]

ففى الآية الأولى نجد أن المضارع الواقع بعد فاء السببية المسبوقة بنفى منصوب على القاعدة المشهورة ، وإن كان يجوز فيه الرفع أيضا بالعطف على

---

(١) فاطر [٣٦]
(٢) المرسلات [٣٥- ٣٦]

سابقه ، والمعول عليه فى ترجيح أحدهما على الآخر هو المعنى المقصود من النظم الكريم ، ولما كان القصد إلى بيان نفى القضاء على الكفار فى جهنم؛ لأنه لو قضى عليهم فسيموتون ويستريحون ، مع أن المقصود بيان استمرار العذاب الواقع بهم كما قال سبحانه : ﴿ **كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب** ﴾ [(١)] كانت الفاء للسببية ، بمعنى أن عدم الموت مسبب عن نفى القضاء عليهم ، كما يقال : لا يهمل محمد فيرسب بالنصب ، أما لو رفع المضارع المنصوب بعد فاء السببية لأفاد ذلك نفى القضاء عليهم ، ونفى الموت فى ذاته عنهم ، مع أن الموت ليس منفيا فى ذاته ، وإنما كان نفيه مسببا عن نفى القضاء عليهم ، وهذا أوقع فى بيان القصد إلى إطالة العذاب واستمراره عليهم فى الآخرة ، وبذلك تكون الفاء للسببية لا العطف .

وأما الآية الثانية فلو جعلت الفاء سببية لا عاطفة ونصب ما بعدها فسيصير المعنى : أن هؤلاء الكفار المكذبين لا يؤذن لهم يوم القيامة فيعتذروا عن كفرهم وتكذيبهم ، ومعنى ذلك أن نفى الاعتذار مسبب عن نفى الإذن به ، وهذا يوهم أن لهم أعذارا لكن لم يؤذن لهم فيفصحوا عنها مع أن ذلك ليس مقصودا ، وإنما المقصود ـ والله أعلم بمراده ـ نفى الإذن بالاعتذار ، ونفى الاعتذار أيضا ، فالاعتذار منفى على كلا الوجهين ، أعنى النصب والرفع ، ولكن الفرق بينهما أن النصب يجعل سبب عدم الاعتذار هو عدم الإذن لهم بذلك ، وأما الرفع فيجعل سبب عدم الاعتذار هو عدم وجود العذر فى ذاته ، وهذا هو المقصود ، ولذلك وردت الآية بالرفع دون النصب ، ويتحقق بهذا الرفع رعاية الفواصل أيضا ، ولا يخفى أن العذر المنفى هنا هو العذر النافع ، وبذلك يلتقى المعنى مع قوله سبحانه : ﴿ **يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم** ﴾ [(٢)] بمعنى لا تقع معذرة لتنفع [(٣)]، ولا يؤذن لهم بالاعتذار النافع لعدم وجوده فى ذاته ، وهذا لا ينفى أن تكون لهم أعذار غير

---

(١) النساء [٥٦]
(٢) غافر [٥٢]
(٣) انظر روح المعانى ٢٤/٧٧ ، ٢٩/١٧٧

حقيقية ، وهذا ما نرتضيه فى هذا المقام .

وعلى هذا تكون الفاء العاطفة للتعقيب بين النفيين فى الإخبار ، وهى عاطفة للفعل الثانى على الأول [١] وبذلك أفادت نفى الاعتذار ونفى الإذن فجمعت بالعطف بين النفيين معا على الوجه السابق لتحقيق الغرض المقصود ، ولهذا يقول الفخر الرازى : « لم لم يقل : (ولا يؤذن لهم فيعتذروا) كما قال : (لا يقضى عليهم فيموتوا) ؟ الجواب : الفاء ههنا للنسق فقط ، ولا يفيد كونه جزاء البتة ، ومثله : ﴿ **من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة** ﴾[٢] بالرفع والنصب ، وإنما رفع يعتذرون لا لأجل عدم الإذن ، بل لأجل عدم العذر فى نفسه ، ثم إن فيه فائدة أخرى ، وهى حصول الموافقة فى رءوس الآيات لأن الآيات بالواو والنون ، ولو قيل : فيعتذروا لم تتوافق الآيات » [٣]

من الواضح فى عبارة الرازى السابقة أن منهجنا فى هذا البحث يتفق — بحمد الله وتوفيقه — مع منهج العلماء المحققين ، الذين يأتى فى مقدمتهم الفخر الرازى ، حيث أبرز الغرض الأصلى من الرفع ، وقارن بينه وبين النصب الذى لا يحققه فى الآية الكريمة ، ثم أعقب ذلك بالغرض التابع ، وهو توافق رءوس الآى ، وإن كنا لا نشير إلى الغرض التابع دائما لأنه مفهوم من المقام .

وقد اقتصر الفراء فى التفرقة بين الآيتين على إبراز نوع الفاء فى آية المرسلات دون بيان الفرق فى المعنى بين الآيتين بصورة واضحة ، وجعل إيثار الرفع على النصب فى آية المرسلات لرعاية الفاصلة ، وذلك فى قوله : « نويت بالفاء أن تكون نسقا على ما قبلها ، واختير ذلك لأن الآيات بالنون، فلو قيل ﴿ فيعتذروا ﴾ لم يوافق الآيات وقد قال عز وجل ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ﴾ وكل صواب» [٤] ولكن الفخر الرازى لم يحذ حذوه تماما فى

---

(١) انظر المرجع السابق للألوسى ١٧٧/٢٩

(٢) البقرة [٢٤٥] (٣) التفسير الكبير ٢٤٧/٣٠

(٤) معانى القرآن ٢٢٦/٢ .

ذلك ، فجعل ما ذهب إليه الفراء وهو رعاية الفاصلة تابعا لا أصلا ، ومع هذا فقد فتح الفراء الباب للبحث عن الغرض الأصلى فى الآية الكريمة ، وإن كان لم يوضحه ، بل اكتفى بالاشارة إليه فى قوله : « نويت بالفاء أن تكون نسقا على ما قبلها ، فالتقط الرازى منه هذه الإشارة ، وأفصح عن مكنونها .

هذا وقد يقال : لم لم يأذن الله لهؤلاء الكفار فى إبداء أعذارهم يوم القيامة تتمة لعدالة الله تعالى ؟ ويجاب عن ذلك بأن هذه أعذار فاسدة وخيالات ضالة ربما ترجع فى حقيقتها إلى قولهم : إن هذا بقضائك وعلمك ومشيئتك فلم تعذبنا عليه ؟ وهذا مردود لأن تصرفه سبحانه من قبيل تصرف الحكيم العليم المالك فى ملكه ، يتصرف فيه كيف يشاء ، وأى تصرف كان لا يخلو من حكمة وعدالة ، كما أنه سبحانه أرسل إليهم الرسل فى الدنيا لتبصيرهم وإرشادهم لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وليس من الحكمة فى شئ أن يسمح لهم يوم القيامة بإبداء أعذار فاسدة ؛ لأنه لا قيمة لها بعد ما تقدم الإعذار والإنذار فى الدنيا بما يقطع حججهم بدليل قوله سبحانه : ﴿ **فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا** ﴾[1]

ومن إيثار الرفع على النصب أيضا لغرض يقتضيه المقام قبل رعاية الفاصلة قوله تعالى ﴿ **وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون** ﴾ حيث نفى المضارع بلا النافية دون لن الخاصة بنفى المستقبل ؛ لأنه لو نفى المضارع بها فقيل (ويوم القيامة لن ينصروا) لاختلت رعاية الفاصلة ، ولكن إيثار الرفع هنا على النصب لغرض آخر استدعاه المقام قبل المحافظة على رعاية الفاصلة ، ذلك أن (لا) النافية تدل على استمرار النفى بدليل ما ورد فى المصباح المنير من أنها « إذا دخلت على المستقبل عمت جميع الأزمنة » [2] وبدليل ما ذكره الزركشى أيضا عن النفى بها فى قوله «وقد ينفى بـ (لا) المضارع مرادا به نفى الدوام [3]

---

(١) المرسلات [٥] وانظر المرجع السابق .

(٢) المصباح المنير ٨٤٥ المطبعة الأميرية – الطبعة الأولى ١٩٠٣م

(٣) البرهان ٣٥٣/٤

وهذا المعنى الكامن فى النفى بـ (لا) هو الذى اقتضاه المقام هنا ؛ لأنه ليس المراد نفى نصرهم فى الآخرة فحسب كما هو ظاهر اللفظ ، وكما يقتضيه النفى بـ (لن) إنما المراد — والله أعلم بمراده — أن هذا الخذلان كان لهم فى الدنيا أيضا ، لكنه يوم القيامة سيكون أشد أنواع الخذلان ، ولذلك يقول الزمخشرى عن هذا المعنى : « كأنه قيل لهم : وخذلناهم فى الدنيا ، وهم يوم القيامة مخذولون»[١] وكأن نفى النصر عنهم يوم القيامة بـ (لن) الناصبة يشعر بأنهم كانوا منصورين فى الدنيا ، وهذا المعنى غير مراد، ولذلك كانت (لا) أوفى بالمقام ، وأوفى أيضا بعد ذلك برعاية الفاصلة ، والله أعلم .

الصورة السادسة
بين المترادفات

لا أريد هنا أن أدخل فى تفاصيل قضية الترادف فى اللغة ، وهل تدل الألفاظ المترادفة على معنى واحد أو على معان متعددة ، وسأكتفى بالقول بأن الألفاظ المترادفة من فصيلة واحدة تدل فى مجموعها على معنى عام واحد ، ولكن يبقى بعد ذلك لكل لفظ دلالته الخاصة فى موضعه ، لأن الحروف المختلفة فى هذه الألفاظ لابد أن تدل على خصوصية معينة فى هذا المعنى العام الذى يجمعها ، كما سيتضح ذلك من خلال الآيات التى سنتحدث عنها .

وسنعرض فيما يلى لمجموعة من الألفاظ التى قيل فيها بالترادف فى الفاصلة القرآنية ، سواء ورد اللفظ المرادف وحده فى الفاصلة دون مرادفة أو جمع بين مترادفين فى الفاصلة بدون عطف أو مع عطف ؛ لأن إطلاق القول بالترادف على هذه الوجوه يوهم بأن إيثار أحد المترادفات أو الجمع بين مترادفين فى الفاصلة القرآنية كان من أجل الفاصلة دون أن يكون هناك معنى أصيل ، أو غرض دقيق استدعى ذلك .

ونبدأ حديثنا بإيثار كلمة (ضيزى) على ظالمة أو جائرة فى قوله سبحانه : ﴿ **تلك إذن قسمة ضيزى** ﴾[٢] حيث قيل إن إيثارها مع أنها أغرب من

---

(١) الكشاف ٣/١٨١ وهذا المعنى على حد قوله سبحانه : ﴿ وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ﴾

(٢) النجم [٢٢]

ظالمة أو جائرة كان من أجل الفاصلة [١]

والذى أفهمه أن إيثار هذا اللفظ الغريب يرجع إلى غرابة هذه القسمة المتحدث عنها وشذوذها ؛ لأنهم خصوا أنفسهم بالذكور ، وجعلوا لله الخالق ما يستنكفون منه ، وهو الإناث ، وذلك فى قوله سبحانه : ﴿ **ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذن قسمة ضيزى** ﴾[٢] وليس هناك أغرب وأعجب من هذه القسمة ؛ لأنها أولا قائمة على الإشراك بالله وهو ظلم عظيم ، وثانيا لأنهم جعلوا للخالق ما يكرهون ، وبذلك ناسبت غرابة القسمة غرابة اللفظ الدال عليها فتشاكل اللفظ والمعنى ، وقد سبق الحديث عن ذلك فى موطن آخر .

أما عن الجمع بين مترادفين فى الفاصلة بدون عطف وبالعطف فقد أورد منه الزركشى مجموعة من الآيات دون أن يتطرق إلى بيان الفروق الدقيقة بين هذه المترادفات ، وهذا ما سأحاوله فيما يلى لتحقيق الهدف المذكور منذ قليل .

ومن الجمع بين مترادفين بدون عطف ﴿ غرابيب سود ﴾ فى قوله سبحانه ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا منه ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود** ﴾[٣] وليس الأمر فى الجمع بين هذين اللفظين من قبيل الترادف على إطلاقه ، ذلك أن غرابيب هنا معطوفة على بيض أو على جدد والمعنى : ومن الجبال ذو جدد ، أى طرائق مختلفة وألوان متعددة ، ومنها ما هو على لون واحد وهو الأسود الشديد السواد ، والملاحظ أنه كثر فى كلام العرب أن تأتى الغرابيب صفة للسود فيقال : سود غرابيب لتأكيد هذا السواد كما قالوا الأحمر القانى والأصفر الفاقع ، ولكن لما أريد هنا المبالغة فى الوصف بالسواد فى مقابلة البيض والحمر للدلالة على قدرة الخالق سبحانه حذف

(١) انظر ما نقله السيوطى عن ابن الصائغ فى الاتقان ١/١٠٠

(٢) النجم [٢٢]

(٣) فاطر [٢٧]

الموصوف (سود) لدلالة صفته عليه (غرابيب) ثم ذكر الموصوف بعد ذلك وهو سود ليصير مؤكدا للموصوف المحذوف ومفسرا له أيضا للاهتمام بشأنه ، فصار كأنه مذكور مرتين مرة بالإضمار ومرة بالإظهار(١) لاقتضاء المقام ذلك .

وأما الآية الثانية التى ورد فيها ذلك أيضا فهى قوله تعالى : ﴿ **لتسلكوا منها سبلا فجاجا** ﴾(٢) وذلك بعد قوله سبحانه ﴿ **والله جعل لكم الأرض بساطا** ﴾ أما ذكر الفجاج بعد السبل فهو لبيان سعة هذه الطرق ، لأن الفجاج جمع فج ، وهو الطريق الواسع ، وقد اقتضى مقام التذكير بنعم الله تعالى على قوم نوح وصف السبل بالفجاج للدلالة على سعة هذه الطرق، وخصوصا أنها وردت بعد ذكر بسط الأرض فى الآية السابقة ، فكانت هذه السعة مناسبة لهذا البسط

والآية الثالثة من هذه المجموعة ورد فيها الجمع بين الرحمن والرحيم فى البسملة والفاتحة ، وقد سبق الحديث عن ذلك بما يدل على عدم الترادف بينهما أيضا ، وذلك فى القول بتقديم الأبلغ على ما دونه من أجل الفاصلة، كما سبق الحديث عن القول بالترادف فى الجمع بين الرسول والنبى فى ﴿**وكان رسولا نبيا** ﴾ على حد ما ذهب إليه ابن الأثير والزركشى (٣)

الجمع بين مترادفين بالعطف

أما القول بالجمع بين مترادفين على هذا الوجه فقد أورد منه الزركشى سبع آيات كريمة ، نوردها مرتبة حسب ترتيبها فى المصحف الشريف ، ونبين الفروق الدقيقة بين كل مترادفين فيها انطلاقا من أن العطف يقتضى المغايرة ، لذلك لا يعطف الشئ على نفسه ، وهذا يقضى بأن يكون هناك فرق أو فروق دقيقة بين المتعاطفين اللذين قيل بالترادف بينهما ، كما سيتضح من الحديث عن الآيات المشار إليها .

---

(١) انظر تفسير أبى السعود ٧/١٥٠ —١٥١ وروح المعانى ١٢/١٩٠ .
(٢) نوح [٢٠]
(٣) انظر المثل السائر ١/٢٨٥ والبرهان ٣/٢٧٤

أما الآية الأولى من هذه الآيات وهى قوله سبحانه : ﴿ **فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولاتخشى** ﴾[١] فقد سبق الحديث عن الفرق بين الخوف الخشية فيها فى أثناء الحديث عن زيادة بعض الحروف فى الفاصلة ، ولذلك سنبدأ حديثنا هنا بالآية الثانية وهى قوله تعالى ﴿ **ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا** ﴾[٢] والفرق بين معنى العوج والأمت المنفيين أن العوج يعنى اعوجاجا ، وكأن هذا العوج المنفى لشدة خفائه أصبح كأنه من الأمور المعنوية التى لا تدرك بالحس ، والمعنى أنك لا تدركه مهما تأملت بالمقاييس الهندسية ، ثم كان قوله بعد ذلك (ولا أمتا) لبيان أى نتوء بارزة على سطح الأرض[٣] بعد نسف الجبال وصيرورتها مع الأرض سطحا واحدا ، كأنها لم تكن موجودة من قبل ، وبذلك كان لنفى الأمت فائدة جديدة زائدة على نفى العوج لاستدعاء المقام ذلك ، وقد آذن العطف بهذا الفرق .

أما الآية الثالثة فهى قوله تعالى : ﴿ **ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما** ﴾[٤] ونفى خوف الظلم هنا يعنى نفى خوف عدم الجزاء ومنع الثواب بمقتضى الوعد السابق فى الدنيا ، وأما نفى خوف الهضم فيعنى عدم نقص هذا الجزاء ، أى أنه لا يخاف من عدم تحقق الجزاء أو من نقصه ، أو أن من عمل صالحا لا يخاف جزاء ظالما فى الآخرة لأنه لم يرتكبه فى الدنيا بظلم الغير ، ولا يخاف جزاء نقص فى الآخرة لأنه لم ينقص الناس شيئا فى الدنيا[٥]

والآية الرابعة هى قوله تعالى : ﴿ **وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير** ﴾[٦] والترداف المقصود هنا بين الزبر والكتاب المنير ، والفرق فى المعنى بين هذه المتعاطفات

---

(١) طه [٧٧]
(٢) طه [١٠٥-١٠٧]
(٣) انظر تفسير أبى السعود ٦/٤٢
(٤) طه [١١٢]
(٥) انظر المرجع السابق ٦/ ٤٣ – ٤٤
(٦) فاطر [٢٥]

الثلاثة أن البينات تعنى المعجزات الظاهرة الدالة على صدق الرسول عليه الصلاة والسلام والزبر هى صحف إبراهيم عليه السلام والكتاب المنير التوراة والإنجيل ، وقد آذنت الواو وإعادة الجار مع الزبر والكتاب المنير باستقلالية كل منها فى المعنى ، والكلام وارد على طريق التفصيل لا الجمع ؛ لأن الجمع يعنى أن كل رسول له كتاب ، وليس الأمر كذلك ؛ لأن عدد الرسل أكثر من عددالكتب ، لكن المراد أن بعضهم جاء بهذا وبعضهم جاء بهذا .. وهكذا ، فالمراد منع خلو أى رسول من هذه الثلاثة مجتمعة .

والقول بالترادف بين الزبر والكتاب المنير وجعل العطف لتغاير اللفظين فيه بعد ، كما أنه ليست هناك ضرورة تدعو إليه [١]

وخامس هذه الآيات ورد فى ضمن قوله تعالى : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب** ﴾[٢]

ولما كان المقام مقام شكر الله تعالى على ما أولى السابقين بالخيرات ممن أورثوا الكتاب من نعيم وحسن جزاء وإحلال دار المقامة من فضله اقتضى ذلك المبالغة فى نفى كل ما يكدر عليهم هذا النعيم المقيم ، وذلك الجزاء العظيم ، ولذلك نفوا عن أنفسهم فى دار المقامة هذه مس النصب ، وهو يعنى التعب ، ومس اللغوب الذى يعنى الأثر الناجم عن التعب كالفتور والإعياء ، وجمع بينهما وإن كان نفى النصب يقتضى نفى أثره كما كرر الفعل المنفى للمبالغة فى انتفاء كل منهما لاقتضاء المقام السابق ذلك ،

---

(١) انظر تفسير أبى السعود ٧/١٥٠ وروح المعانى ٢٢/١٨٨

(٢) فاطر [٣٢- ٣٣]

وهو الحديث عن طائفة مصطفاة من الذين أورثهم الحق سبحانه الكتاب وهم السابقون بالخيرات ، جعلنا الحق سبحانه منهم .

وقال بعضهم النصب التعب الجسمانى واللغوب التعب النفسانى ، وبذلك جمع لهم بين نفى التعبين فى مقام التكريم[١]

وسادس هذه الآيات هى قوله تعالى : ﴿ **ثم عبس وبسر** ﴾ والحديث فيها متعلق بالوليد بن المغيرة الذى ورد فى شأنه قوله تعالى فى الآيات السابقة : ﴿ **ذرنى ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدوا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيدا سأرهقه صعودا إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر** ﴾ [٢]

والمراد والله أعلم بمراده ـ أنه نظر فى القرآن مرة بعد أخرى ، وأطال النظر ، ثم عبس ، أى قطب وجهه لما لم يجد فيه مطعنا ، وأرتج عليه فلم يدر ماذا يقول لانقطاع حيله .

ويوضح الفخر الرازى فروقا دقيقة بين عبس وبسر وما هو من فصيلتهما نقلا عن الليث فيقول : « عبس فهو عابس إذا قطب ما بين عينيه ، فإن أبدى عن أسنانه فى عبوسه قيل كلح ، فإن اهتم لذلك وفكر فيه قيل بسر ، فإن غضب مع ذلك قيل بسل »[٣]

والذى يعنينا هنا هو الفرق بين العبوس بمعنى تقطيب ما بين العينين والبسر الذى يعنى أن ينضاف إلى ذلك الاهتمام والتفكير ، وهذا ما حدث من الوليد بن المغيرة عندما أطال النظر فى القرآن الكريم فلم يجد فيه مطعنا، ففكر فى حيلة يطعنه بها فاتهمه بالسحر فى قوله : ﴿ **إن هذا إلا سحر يؤثر** ﴾ وبذلك كان العبوس لعدم وجود مطعن ، وكان البسر للاهتمام والتفكير الطويل فى تلفيق مطعن له مع هذا العبوس .

---

(١) انظر المرجعين السابقين ١٥٤/٧ ، ٢٠٠/٢٢

(٢) المدثر [١١ – ١٢] (٣) التفسير الكبير ١٧٧/٣٠

وفى اللسان : « قال أبو إسحاق : بسر أى نظر بكراهة شديدة » فكأن البسر ليس مجرد تقطيب وجه وإنما يزاد عليه مايصحبه من اهتمام وتفكير طويل وغيظ وكراهية شديدة ، فهو مرحلة تالية للعبوس وأعلى منها فى الضيق .

ويقول الشهاب الخفاجى : « من بسر إذا قبض ما بين عينيه كراهة للشئ حتى اسود وجهه منه ، وهذا المعنى دائر فى المعانى السابقة ، وبذلك لا يكون (بسر) تأكيدا لعبس لاختلاف المعنين نوع اختلاف ، ولوجود العاطف .

وذكر البسر بعد العبوس يستدعيه المقام للدلالة على شدة غيظ الوليد وكثرة الضيق النفسى الذى انتابه فظهر على وجهه بصورة واضحة تنم عن غاية الحقد والكراهية للكتاب الكريم ورسوله العظيم ، فلم يجد مناصا بعد طول تفكير إلا أن قال « إن هذا إلا سحر يؤثر » مع يقينه الذى لا يخالجه شك بأنه حق وصادق بدليل قوله : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة .... إلى آخر مقولته المشهورة ، وبذلك كانت المسألة فى الجمع بين اللفظين مرحلة تدرج فى الغضب والغيظ ووصف لحالته النفسية التى انتابها الضيق من كل جانب ، ولذلك يقول الزمخشرى : « وصف أشكاله التى تشكل بها حتى استنبط ما استنبط استهزاء به »[١] ولاشك أن هذا من متطلبات المقام .

أما تفسير البسر فى هذا المقام بأنه إظهار العبوس قبل أوانه وفى غير وقته كما ذهب إليه الراغب ونقله عنه الألوسى[٢] فالتفسير وإن كان صحيحا فى ذاته وتؤيده استعمالات عربية كثيرة لكنه غير مناسب فى الآية الكريمة كما هو ظاهر إلا أن يقال إنه أظهر البسر فى وقت غير ملائم له ؛ لأن عدم وجود مطعن يدعو إلى السرور والبهجة لا إلى العبوس والضيق ، وهذا أمر بعيد، ولذلك لم يذكر هذا التفسير أبو السعود ولا الفخر الرازى ولا ابن

---

(١) الكشاف ١٨٣/٤

(٢) انظر مفردات الراغب الأصفهانى مادة بسر ٤٦ وروح المعانى ١٢٤/٢٩

كثير ولا الشهاب الخفاجى إلا بصيغة التمريض [١]

والآية الأخيرة من الآيات السبع وردت فى ضمن قوله سبحانه : فى جزاء هذا الكافر العنيد:﴿**سأصليه سقر وما أدراك ما سقر لا تبقى ولاتذر**﴾[٢]

وهناك فرق بين المضارعين (لا تبقى ولا تذر) لأن نفى الإبقاء يعنى لا تبقى شيئا يلقى فيها إلا أهلكته ، ولا تذر ما يلقى فيها هالكا إلا أعادته مرة ثانية كما كان حتى يستمر فى العذاب [٣] وهذا مستنبط من قول ابن عباس : «إذا أخذت فيهم لم تبق منهم شيئا ، وإذا بدلوا خلقا جديدا لم تذر تعاودهم سبيل العذاب»[٤]

وبهذا اتضح ما بين هذه المترادفات من فروق دقيقة استدعت إبراز اللفظين مقترنين فى الفاصلة بدون عطف أو مع العطف ، كما أن إيثار مترادف على غيره كان لخصوصية فيه استدعاها المقام دون سواها ، وتحقق بعد ذلك كله رعاية الفاصلة .

وهكذا من يتتبع ما قيل فيه بالترادف فى بعض فواصل القرآن الكريم فإنه إذا دقق النظر ، وأجال الفكر مستهديا بما أرساه أئمة اللغة وكبار المفسرين فلن يعدم فروقا دقيقة بين هذه المترادفات كالفرق فى الفواصل بين أولى الألباب وأولى النهى ، أو الفرق فى التعبير عن جهنم بألفاظ متعددة فى الفاصلة مثل : لظى ـ الحطمة ـ سقر ـ هاوية [٥] ، أو عن يوم القيامة بيوم الدين أو يوم الحشر أو يوم الخروج ... وما إلى ذلك ، ويمكن القول بأن بعض ما قيل فيه بالترادف بين بعض الألفاظ هو من قبيل الصفات المتعددة للشئ الواحد كصفات جهنم أو يوم القيامة ، وكل صفة ذكرت فى موطنها الملائم للمقام والمناسب للفاصلة أيضا كما يتضح ذلك من طول النظر والتنقيب فى أمهات المصادر ، وليس من وكد هذه الدراسة أن تلج كل

---

(١) انظر التفسير الكبير فى الموضع السابق وتفسير ابن كثير ٤٤٣/٤ وتفسير أبى السعود ٥٨/٩ وحاشية الشهاب ٢٧٥/٨

(٢) المدثر [٢٦-٢٨]

(٣) انظر تفسير أبى السعود ٨/ ٥٨

(٤)روح المعانى ١٢٥/٢٩

(٥) انظر الإتقان ٩٩/٢ وما بعدها .

مايمكن أن يقال فيه بالترادف فى الفاصلة القرآنية ، وحسبها ماذكر هنا حول ما أورده الزركشى عن الآيات المذكورة ، وهو يفى فى نظرنا بالهدف المقصود.

هذا وقد يوصف الشئ الواحد مرتين بصفة واحدة لكن صياغتها تختلف فى الموقعين تبعا لرعاية فاصلة كل موقع مع اتحاد معنى الصفة فيما يظهر من المعاجم ، وذلك كوصف الشيطان بالمريد فى قوله سبحانه : ﴿ **ويتبع كل شيطان مريد** ﴾ [1] وبالمارد فى قوله سبحانه : ﴿ **وحفظا من كل شيطان مارد** ﴾ [2] ولا تذكر المعاجم فرقا بين الصيغتين ، ففى مفردات الراغب : «والمارد والمريد من شياطين الجن والإنس المتعرى عن الخيرات من قولهم : شجر أمرد إذا تعرى من الورق ، ومنه قيل : رملة مرداء لم تنبت شيئا ، ومنه الأمرد لتجرده عن الشعر ، وفى اللسان : « شيطان مارد ومريد واحد » وإن كان هذا لا ينفى نفيا قاطعا وجود أى فرق بين الصيغتين لكننا لم نصل إليه.

وكذلك الحال فى الكلمة التى فيها لغتان ، ولا يختلف معناها على ما يظهر ، فإن اللغة التى توافق الفاصلة تترجح على غيرها كما فى الرشد بفتح الراء والشين والرشد بضم الراء وسكون الشين ، فقد جاءت الأولى فاصلة فى قوله تعالى : ﴿ **ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا** ﴾ [3] كما ورد أيضا فى السورة نفسها : ﴿ **هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا** ﴾ [4] وكانت كل لغة موافقة لفواصلها ، وفى لسان العرب الرُّشد والرَّشد والرشاد نقيض الغى ». ومما يدل أيضا على أن رعاية الفاصلة مقصودة فى اللغة التى تناسبها فى الكلمة أنه قرئ (لهب) بفتح الهاء وسكونها فى قوله سبحانه : ﴿ **تبت يدا أبى لهب وتب** ﴾ [5] لأن الكلمة ليست فاصلة ، لكنها عندما وقعت فاصلة فى (**سيصلى نارا ذات لهب**) [6] لم تقرأ إلا بفتح الهاء فقط لرعاية الفواصل [7] ،

---

(١) الحج [٣]
(٢) الصافات [٧]
(٣) الكهف [١٠]
(٤) الكهف [٦٦]
(٥) المسد [١]
(٦) المسد [٣]
(٧) انظر الكشاف ٢٩٦/٤ والاتقان ٩/٢

وكانت هنا قائمة على الوزن والحرف الأخير معا ؛ مع أن الرعاية كان من الممكن أن تتم جزئيا لو كانت هناك قراءة بسكون الهاء لاتحاد الحرف الأخير ، ولكن من أجل الحفاظ على الوزن مع الحرف لم تقرأ الكلمة إلا بفتح الهاء، وهذا يدل على أهمية رعاية الفواصل فى الآيات ، وإن كان ذلك لا ينفى نفيا قاطعا وجود أى فرق دقيق غائر .

وأما بعض الفواصل الأخرى التى وردت فيها قراءة أخرى لا تناسب رعاية الفواصل كقراءة ﴿ فظلت أعناقهم لها خاضعة ﴾ بدلا من (خاضعين) فهى تدل فى المقابل على أن رعاية الفواصل ليست هدفا مقصودا لذاته كما نبهنا لذلك فى أكثر من مناسبة ، والله أعلم .

الصورة السابعة
بين الحقيقة والمجاز العقليين

لا يخفى أن الحقيقة العقلية تقوم على الإسناد الحقيقى فى الجملة بخلاف المجاز العقلى الذى يقوم على الإسناد المجازى فيها ، فدائرة الحقيقة والمجاز فى هذا الباب هى الإسناد ، فإذا أسند الشئ إلى ماهو له عند المتكلم فى الظاهر كان الإسناد حقيقة ، وإذا أسند إلى ملابس له غير مأهوله بتأول كان الإسناد مجازا .

وفى نطاق الحديث عن بعض مواقع الفواصل القرآنية من الحقيقة العقلية أو المجاز العقلى نتعرض لبعض الشواهد المشهورة فى هذا الباب والتى كان تعليل العدول عن الحقيقة فيها إلى أو المجاز رعاية الفواصل[١] ، وحديثنا هنا يتناول هذه الشواهد المشهورة من حيث موقعها من الحقيقة والمجاز ، ووجه القول فيها بالحقيقة ، أو الغرض البلاغى من العدول عن هذه الحقيقة إلى المجاز ، كما سنشير إلى بعض الشواهد الأخرى فى الفاصلة القرآنية .

ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ **فإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستورا** ﴾[٢]

---

(١) انظر الإتقان ٢/١٠٠

(٢) الإسراء [٤٥]

والحجاب عادة يكون ساترا لا مستورا ، لكن ساترا لا تتفق مع الفاصلة، والمتأمل فى هذا التعبير يجد أنه يمكن أن يحمل على الحقيقة فتكون الموافقة ظاهرة ،أو على المجاز فتكون مخالفة الظاهر لغرض بلاغى مستدعى قبل رعاية الفاصلة ، أما وجه الحقيقة فهو أن الحجاب مستور عن رؤية المحجوبين مع سلامة حواسهم بقدرة الحق سبحانه وتعالى ، أو أن الحجاب المستور هنا هو الطبع الذى طبعه الله على قلوبهم ، فمنعهم أن يدركوا لطائف القرآن الكريم ومحاسنه ، كما قال سبحانه : **﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ﴾** [١] أو هو حجاب مستور بحجاب آخر ، وكأنها حجب متعددة يستر بعضها بعضا ، وفى هذا مبالغة فى الستر كما قال سبحانه : **﴿ ويقولون حجرا محجورا ﴾** [٢] وقد اقتضى المقام هذه المبالغة فى الستر للدلالة على عناية الله سبحانه برسوله عناية خاصة فى حال قراءة القرآن الكريم ، أو تكون المبالغة هنا واردة على سبيل المجاز العقلى بإسناد ضمير المفعول (مستورا) إلى الفاعل وهو الحجاب الذى يكون ساترا لا مستورا ، وكأن الحجاب لشدة ستره مستور لا ساتر ، وهذا كما قالوا سيل مفعم بالبناء للمفعول للمبالغة فى إفعام السيل للوادى ، وكأن هذا الإفعام فاض من الوادى على السيل نفسه [٣]

وهناك أوجه أخرى لتخريج مثل هذا التعبير على الحقيقة أيضا ومنها أن يكون الكلام واردا على النسب كما يقال : مرطوب أى ذو رطوبة ، ومهول، أى ذو هول ، وجارية مغنوجة[٤] .

ومن هذا القبيل أيضا قوله تعالى **﴿ إنه كان وعده مأتيا ﴾** [٥] والوعد يأتى ولا يؤتى ، وإن فسرنا الوعد بالجنة لسبق الحديث عنها فى قوله سبحانه

---

(١) الكهف [٥٧]

(٢) الفرقان [٢٢]

(٣) انظر مذكرة البلاغة للشيخ حامد عونى ٣٤ دار الكتاب العربى بمصر .

(٤) انظر التفسير الكبير ١٧٧/٢٠ وروح المعانى ٨٧/١٥

(٥) مريم [٦١]

﴿ جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب ﴾ يكون مأتيا بمعنى يأتيه كل من وعد بها ، فهم يأتونها ، وقد رجح الزمخشرى هذا الوجه والإسناد فيه حقيقة ، أما وجه المجاز فيه فهو أن مفعولا بمعنى فاعل ، حيث أسند ما هو فى معنى الفعل وهو اسم المفعول إلى ضمير الفاعل وهو الوعد مع أن حقه أن يسند إلى ضمير المفعول ، والعلاقة الفاعلية ، وبذلك تكون هناك مبالغة فى إتيان الوعد وتحققه ، وكأن إتيانه جاوزه فى التحقق إلى أن يكون هو مأتيا ، بمعنى أن يكون كل من وعدوا به يستطيعون أن يأتوا إليه فهو فى متناولهم ، وبذلك يتأكد إتيانه ، بخلاف التعبير عن الإتيان بالفاعل ، لأنه فى ذاته يمكن أن يتخلف ، والله سبحانه يخاطب العرب بما يعرفون فى أساليبهم .

أو يكون مأتيا بمعنى مفعولا ، أى منجزا من أتى إليه إحسانا ، أى فعل به ما يعد إحسانا وجميلا ، والوعد على ظاهره ، وهو وإن كان بأمر غائب فهو فى قوة المشاهد الحاصل [(١)]

ومن ورود فاعل بمعنى مفعول فى الفاصلة القرآنية قوله سبحانه : **﴿ وأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه إنى ظننت أنى ملاق حسابيه فهو فى عيشة راضية ﴾**[(٢)] وفى قوله سبحانه **﴿ عيشة راضية ﴾** أسند ما هو فى معنى الفعل وهو اسم الفاعل إلى ضمير المفعول ، وأصل الرضا أن يكون لصاحب العيشة ، وكأنه تجاوزه إلى العيشة نفسها فأصبح الرضا متبادلا بينه وبينها ، وبذلك لا يكون هناك محل للتنغيص والتكدير أبدا ، ولما كثر تلبس العيشة بالرضا وما يشبهه رأينا إثبات الهناء والسعادة أو البؤس والشقاء لها كثيرا ، فيقال : عيشة سعيدة أو هنيئة ، أو عيشة بائسة .... وهكذا

ويشعر وصف العيشة بالرضا فى الآية الكريمة بالألف والمحبة والبقاء

---

(١) انظر الكشاف ٥٠٥/٢ والتفسير الكبير ٢٠٢/٢١ وتفسير أبى السعود ٢٥٢وروح المعانى ١٦/ ١١٢

(٢) الحاقة [٢١]

والاستقرار » وليس هذا غريبا على إلف اللغة ، ويمكن أن يقرب إلينا هذا الخيال الذى يثيره هذا المجاز قول النبى ﷺ لبعض أوزواجه « أحسنى جوار نعمة الله فإنها قلما نفرت عن قوم فكادت ترجع إليهم »[١]

ويمكن أن يكون هذا الإسناد واردا على طريق النسبة ، أى ذات رضا كلا بن وتامر ، فهى متلبسة بالرضا ، والنسبة نسبتان : نسبة بالحروف ونسبة بالصيغة[٢]

هذا ويجوز رد هذا المجاز العقلى فى الإسناد إلى الاستعارة المكنية هنا بتصوير العيشة بمن يقع منه الرضا ويوصف به وهو صاحبها على مذهب السكاكى الذى يرد المجاز العقلى والاستعارة التبعية إلى المكنية ، ولكن التركيب وإن كان يحتمل فى ذاته التخريجين ، لكن المجاز العقلى هو الأوفى بالمقام هنا ؛ إذ ليس المقصود تصوير العيشة فى الرضا بالإنسان ، وإنما المقصود الدلالة على المبالغة فى إثبات الرضا لصاحب العيشة حتى كأن الرضا فاض منه عليها لخلوها من كل ما يكدرها ، وقد شاع على الألسنة وصف العيشة بالسعادة والهناء كما مر للمبالغة فى وصف صاحبها بذلك ، والذى يحكم مسألة الرد هذه هو الغرض والمقام ، وإن كان التركيب فى ذاته يحتمل التخريجين كما ذكرت .

وعلى نحو هذا الإسناد ورد قوله سبحانه ﴿ **فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق** ﴾[٣] والتخريج هنا يسير على نمط التخريج فى الآية السابقة ، أى على النسب بمعنى ذى دفق أو على المجاز العقلى للمبالغة فى الدفق ؛ لأنه لما كان يدفع بعضه بعضا صار كأنه دافق[٤]

ووصف الماء بالدفق هنا يناسب المقام السابق الذى ارتبط فيه الحديث بالطرق والثقب لما فى كل من الدفع والحركة ، بخلاف وصفه بالمهين فى

---

(١) خصائص التراكيب ٧٠ د/ محمد أبو موسى .
(٢) انظر الكشاف ١٥٣/٤ والتفسير الكبير ٩٩/٣٠ وتفسير أبى السعود ٦٩/٨
(٣) الطارق [٦]
(٤) انظر الكشاف ذ٢٤١/٤ وروح المعانى ٩٧/٣٠

آية السجدة ﴿ **ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين** ﴾[١] لأن المقام هناك استدعى هذا الوصف [٢]

وقرأ زيد بن على رضى الله عنه مدفوق ، وهذه القراءة والقراءات الأخرى التى لا تناسب رعاية الفاصلة تدل ـ كما ذكرت فى مواضع متعددة من البحث ـ على أن رعاية الفواصل ليست هدفا أساسيا ... والله الموفق .

هذا وقد يوصف الشىء بوصف محدثه وصاحبه على طريق المجاز العقلى فى الفاصلة أيضا كما قال سبحانه وتعالى عن القرآن الكريم : ﴿ **وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم** ﴾[٣] والأصل فى الوصف بالحكمة هنا هو الله سبحانه وتعالى لكن لما أريد المبالغة فى وصف الكتاب بالحكمة لم يرد التعبير على طريق الحقيقة بأن يقال : حكيم صاحبه ، أو منزِّله ، وإن كانت حكمة الصاحب أو المنزل تضفى الوصف بالحكمة على الكتاب ، لكن المجاز يجعل وصف الكتاب بالحكمة وصفا مباشرا ، وهذا أوقع فى الدلالة على وصفه بالحكمة ، ومثل هذا وصف الأسلوب بالحكمة فى قولهم : الأسلوب الحكيم ووصف الضلال بالبعيد [٤] فى الفاصلة القرآنية أيضا .

وكذلك وصف البلد بالأمين فى ﴿ والبلد الأمين ﴾[٥] على نحو وصف الحرم به فى قوله جل شأنه : ﴿ **أو لم نمكن لهم حرما آمنا** ﴾ [٦] ووصف العذاب بالأليم [٧] أو المهين أو العظيم ونحو ذلك مما ورد متفقا مع الفوصل القرآنية ، وحقق المقصود من هذا الوصف .

---

(١) السجدة [٦]

(٢) انظر متشابه النظم القرآنى فى قصة آدم عليه السلام ٨٦ للباحث دار الأرقم بالزقازيق

(٣) الزخرف [٤]

(٤) انظر خصائص التراكيب ٧٢ د/ محمد أبو موسى ـ مكتبة وهبة .

(٥) التين [٣]

(٦) القصص [٥٧]

(٧) انظر حاشية الشهاب ٤٩٩/٧

الصورة الثامنة

إيثار المبالغة أو صيغة منها على غيرها

من الأمور التى عدها الشيخ شمس الدين الصائغ خارجة عن الأصل من أجل المناسبة فى الفاصلة « الإتيان بصيغة المبالغة كقدير وعليم مع ترك ذلك فى نحو هو القادر وعالم الغيب ، ومنه ﴿ **وما كان ربك نسيا** ﴾[1]

وقبل أن نتعرض للغرض الأصلي من هذه المبالغة قبل رعاية الفاصلة نذكر كلمة موجزة حول المبالغة فى أسماء الله تعالى وصفاته ؛ لأنها متناهية فى الكمال فلا تفاوت فيها ، كما أنها لا تقبل زيادة أو نقصا فكيف تتأتى فيها المبالغة ؟

الواقع أن المبالغة فيها ليست على حد المبالغة فى صفات البشر التى تحصل بحسب زيادة الفعل ، لكنها باعتبار كثرة متعلقاتها «ولاشك أن تعددها لا يوجب زيادة ؛ إذ الفعل الواحد قد يقع على جماعة متعددة »[2] ولذلك يقول الزمخشرى فى قوله تعالى فى الحجرات : ﴿ **إن الله تواب رحيم** ﴾[3] « والمبالغة فى التواب للدلالة على كثرة من يتوب عليه من عباده » كما يضيف وجهين آخرين للمبالغة فى هذه الصفة بقوله : « أو لأنه ما من ذنب يقترفه المقترف إلا كان معفوا عنه بالتوبة أو لأنه بليغ فى قبول التوبة منزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط لسعة كرمه »[4] والوجه الأول من هذه الوجوه أظهر من الوجهين الآخرين لعمومه فى كل صيغ المبالغة التى وردت عليها بعض أسماء الله تعالى ووضوحه .

ومما يعضده أنك تجد صيغة اسم الفاعل واردة مع المتعلق الواحد كقوله تعالى : ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبة أحدا** ﴾[5] بينما إذا جمع

---

(١) مريم [٦٤] وانظر الاتقان ١٠٠/٢

(٢) البرهان ٥٠٧/٢

(٣) الحجرات [١٣]

(٤) الكشاف ٦٩/٤ وانظر البرهان فى الموضع السابق .

(٥) الجن [٢٦]

الغيب وردت معه صيغة المبالغة كما فى ﴿ علام الغيوب ﴾ (١) وكذلك أيضا فى صفة القدرة تجد اسم الفاعل منها يأتى مع المتعلق الواحد كما فى قوله سبحانه ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ﴾ (٢) حيث كانت القدرة خاصة بالأحياء ، فإذا تعدد متعلقاتها لتكون كل شئ أتت معها صيغة المبالغة كما فى ﴿ إن الله على كل شئ قدير ﴾ (٣)

وبالتأمل فى ورود اسم الفاعل أو صيغة المبالغة من القدرة فى القرآن الكريم توصلت فى هذا المقام إلى عدة اعتبارات أدونها فيما يلى مستشهدا عليها بالآيات القرآنية .

أولا : إذا وردت صيغة اسم الفاعل من القدرة مرتبطة بشئ محدد مهما كان هذا الشئ فإن المقام يكون لاسم الفاعل كما فى قوله سبحانه فى الآيات التالية :

- ﴿ **قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ (٤)
- ﴿ **قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض** ﴾ (٥)
- ﴿ **أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم** ﴾ (٦)
- ﴿ **أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم** ﴾ (٧)
- ﴿ **أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى** ﴾ (٨)
- ﴿ **بلى قادرين على أن نسوى بنانه** ﴾ (٩)

---

(١) المائدة [١٢]
(٢) القيامة [٤٠]
(٣) البقرة [٢٠]
(٤) الأنعام [٣٧]
(٥) الأنعام [٦٥]
(٦) الإسراء [٩٩]
(٧) يس [٨١]
(٨) القيامة [٤٠]
(٩) القيامة [٤]

ـ ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين ﴾ (١)

ـ ﴿ إنه على رجعه لقادر ﴾ (٢)

وقد يرد متعلق القدرة سابقا عليها كما فى الآيات التالية :

ـ ﴿ وإنا على ذهاب به لقادرون ﴾ (٣)

ـ ﴿ وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون ﴾ (٤)

ومما يدعم هذا الاستنتاج أننا نجد أنه فى الآية الواحدة قد يرد اسم الفاعل وصيغة المبالغة من القدرة ، لكن يتعلق اسم الفاعل بشئ خاص ، وأما صيغة المبالغة فيكون متعلقها عاما كما فى قوله سبحانه : ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى بالموتى ، بلى إنه على كل شئ قدير ﴾(٥)

وأما قوله سبحانه : ﴿ فقدرنا فنعم القادرون ﴾ (٦) فليس مما نحن فيه ، لأنه من التقدير لا من القدرة ، بدليل قراءة على كرم الله وجهه : فقدرنا بالتشديد ، ولقوله سبحانه : ﴿ من نطفة خلقه فقدره ﴾ وإن كان التقدير فيه علاقة ما بالقدرة (٧) لكنها غير مقصودة هنا .

ثانيا : قد يسبق هذه المبالغة شئ محدد ، ولكن ترد صيغة المبالغة بعده عامة غير واقعة عليه ، فيؤذن ذلك بعموم القدرة على كل شئ ، ويدخل المذكور سابقا فيها دخولا أوليا ، وذلك كما فى الآيات التالية :

ـ ﴿ إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا ﴾ (٨)

وقد جمع فى هذه الآية بين صيغتى المبالغة ؛ لأن المقصود الأعظم فى

---

(١) المعارج [٤٠ - ٤١] (٢) الطارق [٨]
(٣) المؤمنون [١٨] (٤) المؤمنون [٩٥]
(٥) الأحقاف [٣٣] (٦) المرسلات [٢٣]
(٧) انظر روح المعانى ١٧٤/٢٩ (٨) النساء [١٤٩]

الآية الكريمة هو العفو عن السوء مع القدرة على المؤاخذة ، أى أن الله سبحانه « يكثر العفو عن العصاة مع كمال قدرته على المؤاخذة ... فعليكم أن تقتدوا بسنة الله تعالى ، وقدم العفو لأنه المقصود الأهم فى الآية » (١) وكأن ذكر القدرة بعده بمثابة الاحتراس .

— ﴿ والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا إن الله عليم قدير ﴾ (٢)

ويعلق الألوسى على وجه الجمع بين الصيغتين هنا بقوله : (عليم) أى بكل شئ ، ومن ذلك وجه الحكمة فى الخلق والتوفى والرد إلى أرذل العمر (قدير) على كل شئ ، ومنه ما يشاؤه سبحانه من ذلك » (٣)

وتعقيب الألوسى هنا يعضد ما قلناه من عموم متعلق القدرة ، ودخول المذكور قبلها فى هذا العموم دخولا أوليا ، وقدم العلم على القدرة لأن تعلق صفة العلم بالشئ يعتبر أولا لتعلق صفة القدرة به (٤)

— ﴿ وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ﴾ (٥)

— ﴿ والله خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ (٦)

ولا شك « أن الترديد فيما ذكر بين الأطوار المختلفة من أوضح دلائل العلم والقدرة » (٧) وتقديم العلم على القدرة لما سبق .

— ﴿ أولم يسيروا فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة ، وما كان الله ليعجزه من شئ فى

---

(١) روح المعانى جـ٦ ص٤
(٢) النحل [٧٠]
(٣) روح المعانى ١٨٨/١٤
(٤) انظر المرجع السابق
(٥) الفرقان [٥٤]
(٦) الروم [٥٤]
(٧) تفسير أبى السعود ٦٦/٧

السموات ولا فى الأرض انه كا[illegible] قديرا ﴾[1]

وذكرت صفة العلم هنا لمناسبه الحديث عن أحوال السابقين وما أصابهم ليكون في ذلك عبرة للاحقين ، فكل ما يحيق بالسابقين أو اللاحقين من عذاب يأتى على وفق علمه سبحانه وعلى قدر قدرته ، وتقديم العلم على القدرة لما سبق ولمناسبة الحديث عن أحوال السابقين [2]

– **﴿ ولله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير ﴾**[3]

ولا شك أن خلق ما يشاء وتنوع الموهوب من الذرية أو منع الهبة أصلا فى المولود يأتى ذلك كله على وفق علمه وقدرته .

– **﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم ﴾** [4]

الحديث فى هذه الآية الكريمة مرتبط بوعد الله سبحانه للمؤمنين الذين كانوا يوالون الكفار خلسة لاعتبارات خاصة ، ولما نهاهم الله عن ذلك استجابوا لهذا النهى مع ما فيه من مشقة على نفوسهم ، فقاطعوا الكفار من أقرب الناس إليهم ، وكان ذلك يشق عليهم فطيب الله نفوسهم بأن وعدهم بأنه سيجعل بينهم وبين من عادوهم فى الإسلام مودة بالإسلام لأنه سبحانه قدير على تقليب القلوب وتغيير الأحوال ، وتسهيل أسباب المودة ، وقدرته البالغة لا يعجزها شئ ، كما أنه مبالغ فى المغفرة لما فرط منكم فى موالاتهم، ومبالغ أيضا فى الرحمة بضم الشمل وتحويل الخيانة إلى محبة ومودة [5] ، ولهذا جمع بين هذه الصيغ الثلاث فى المبالغة لاستدعاء المقام ذلك ، وقدمت القدرة لأن بها يتم تقليب القلوب أولا ، وقدمت المغفرة على الرحمة لأن المغفرة سلامة والرحمة غنيمة ، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة كما سبق [6].

---

(١) فاطر [٤٤]
(٢) انظر تفسير أبى السعود ١٥٧/٧
(٣) الشورى [٤٤]
(٤) الممتحنة [٧] (٥) انظر روح المعانى ٧٤/٢٧
(٦) انظر تقديم ماحقه التقديم فى هذا البحث .والبرهان ٢٤٩/٣

كما علمنا فيما سبق أيضا استدعاء المقام لتقديم الرحمة على المغفرة في ﴿ وهو الرحيم الغفور ﴾ [١]

ثالثا : قد يرد متعلق القدرة الواقعة فاصلة مرتبطا بشيء خاص سابق ، ولكن المقام يستدعى صيغة المبالغة لخصوصية معينة فى هذا المقام ، كما يتضح مما يلى :

- ﴿ **إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا** ﴾ [٢]

ومتعلق القدرة هنا وإن لم يكن كل شيء ، وإنما كان مرتبطا بشيء محدد لكن المقام لما كان مقام تهديد ووعيد استدعى المبالغة فى الدلالة على القدرة على الإذهاب والإتيان ؛ وفى المبالغة زيادة فى التهديد والوعيد وهذا أوفق بمقام الحديث عن الكفار وقدرة الله المطلقة ، وخضوع جميع من فى السموات والأرض لسلطانه ، لأن ملكه مطلق ، ولذلك ارتبط الحديث عن الكفار بتأكيد ملك الله لما فى السموات والأرض مع تكرار هذا الحديث لتدعيم هذا المعنى فى هذا المقام، يقول سبحانه : ﴿ **وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ لأن جميع ما فى السموات وما فى الأرض واقع تحت سيطرته يتصرف فيه كيف يشاء ، وقد تأكد هذا المعنى بتكراره مرتين مع النص على أنه سبحانه الغنى فى ذاته عن طاعة العباد المحمود فى ذاته وإن لم يحمده أحد ، يقول سبحانه : ﴿ **وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله غنيا حميدا ولله ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا . إن يشأ يذهبكم أيها الناس ....** ﴾ [٣]

- ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير** ﴾[٤]

الآية السابقة على هذه الآية مباشرة هى قوله تعالى : ﴿ **إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور** ﴾ وهاتان الآيتان

---

(١) المرجع السابق . (٢) النساء [١٣٣]

(٣) النساء [١٣١-١٣٣]

تتحدثان عن الإذن للمؤمنين بالقتال بعد ما نهوا عنه ، وقد وقع عليهم ما وقع من أذى المشركين وكانوا يلحون فى طلب الإذن بالقتال، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يأمرهم بالصبر لأنه لم يؤمر بالقتال ، ولذلك كان حديث الآيتين الكريمتين عن تأكيد دفاع الله عن المؤمنين وتأكيد بغضه لمن قاتلهم ، والإذن للمؤمنين بقتالهم ورد عدوانهم وبث الثقة فى نفوسهم بأن الله سبحانه : سيدافع عنهم ، ولن يكتفى بتخليصهم من أيدى أعدائهم وظلمهم ، ولكنه سينصرهم عليهم .

وهذا المقام الذى يدور حول الدفاع عن المؤمنين والإذن لهم بقتال الكفار ووعد الله للمؤمنين بالنصر استدعى المبالغة فى صفة القدرة وإن كانت متعلقة بشئ خاص ، وهو النصر ، ولذلك جاء الوعد به مؤكدا بإن واللام وقدم متعلق القدرة عليها وهو النصر لأنه موضع الاهتمام ، وورود الوعد به على سنن الكبرياء لأن مجرد الإشارة من الملك الكبير كافية فى تيقن المطلوب[1] ، وكان ذلك لتوطين نفوس المسلمين ، وكان لصيغة المبالغة أثر كبير فى تحقيق هذا التوطين والاستقرار النفسى .

ـ **﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ﴾** [2]

متعلق القدرة فى هذه الآية الكريمة وإن كان أمرا خاصا فى الظاهر وهو الجمع لكنه ارتبط قبل ذلك بالتدليل عليه بقدرة الله سبحانه على خلق السموات والأرض وبث الدواب الكثيرة فيهما ، والذى قدر على أن يخلق من عدم يستطيع أيضا أن يعيد هذا الخلق بجمعهم للحشر من عدم أيضا ، ومن هنا يبدو تعدد متعلق القدرة المركز والمطمور فى شئ خاص هو الجمع للحشر ، كما أن هناك أيضا فى نظم العبارة ما يستدعى الدلالة على المبالغة فى القدرة مثل لفظ الآية ولفظ البث الذى أوثر على الخلق للدلالة على التكثير ، ويبدو فى الآية الكريمة تركيز وإيجاز لكل متعلقات القدرة فى

---

(١) انظر تفسير أبى السعود ١٠٨/٥ وروح المعانى ١٦٢/١٧

(٢) الشورى [٢٩]

الدنيا فى الخلق والبث ، والإشارة إلى متعلقاتها فى الآخرة بالجمع ، وكان ذكر الجمع الذى تعلقت به القدرة مرتبطاً بكل ذلك [١]

رابعاً : كان متعلق صيغة المبالغة (قدير) فى بقية مواقعها فى القرآن الكريم وهى كثيرة (كل شئ) ، وتعدد المتعلق فيها ظاهر فى المبالغة ، وتقديمه عليها للاهتمام بإبراز عموم القدرة لا إثبات القدرة فى ذاتها .

وبذلك نستطيع أن نوجز القول فى مواقع صيغة المبالغة (قدير) فى القرآن الكريم بأن هذه الصيغة ترد إما مع تعدد المتعلق المذكور صراحة وهو كل شئ ، أو المحذوف بعد الفاصلة للدلالة على العموم مع سبق ذكر بعض متعلقاتها التى تدخل فى هذا العموم دخولا أوليا ، وإما أن ترد مرتبطة بشئ محدد لكن المقام يقتضى أن ترد معه صيغة المبالغة لخصوصية معينة فى هذا الشئ المحدد ترتبط بالمقام كالتهديد أو الوعيد أو العموم الضمنى ، وقد تناول الحديث وقوع هذه الصيغة فاصلة أو غير فاصلة ولم ترد فى الحالة الأخيرة إلا فى موقع واحد كما هو واضح مما سبق ، وأما صيغة اسم الفاعل من القدرة فقد ارتبط بشئ واحد فى النظم القرآنى الكريم .

وبهذا استطعنا بحمد الله وتوفيقه أن نبين مواقع هذه الصيغة فى القرآن الكريم ومقامات التعبير بها ، والفرق بين متعلقها ومتعلق اسم الفاعل منها ، ونستطيع بذلك أن نجزم أنها تقع فى موقع لا يصلح فيه اسم الفاعل ، ويتحقق مع استدعاء المقام لها رعاية الفاصلة أيضا ، وبالله التوفيق .

هذا وقبل أن ننهى الحديث عن صيغة المبالغة فى القدرة نشير إلى بناء آخر من القدرة يدل على الكثرة ورد فى القرآن الكريم فى أربعة مواقع ، وهو (مقتدر) وقبل أن نذكر هذه المواقع ونعلق عليها بما نراه نذكر شيئا عما قيل حول المقارنة بين (قدير ومقتدر)

يقول الراغب الأصفهانى : « والقدير هو الفاعل لما يشاء على قدر ما يقتضى الحكمة لا زائدا عليه ولا ناقصا عنه ولذلك لا يصح أن يوصف به

---

(١) انظر تفصيلا أكثر لمتعلقات القدرة فى روح المعانى ٣٩/٢٥ —٤٠

إلا الله تعالى ، قال ﴿ إنه على ما يشاء قدير ﴾ والمقتدر يقاربه نحو ﴿عند مليك مقتدر ﴾ لكن قد يوصف به بالبشر ، وإذا استعمل في الله فمعناه القدير ، وإذا استعمل في البشر فمعناه المتكلف والمكتسب للقدرة »[1]

يوضح الراغب في هذه العبارة أوجه التلاقي أو التباعد بين الصيغتين والتي تتمثل فيما يلي :

- كل من الصيغتين يدل على الكثرة ، لكنها مفهومة من الصيغة في قدير ، ومن زيادة المبنى في (مقتدر)
- أن صيغة (قدير) خاصة بالله تعالى ، وأما صيغة (مقتدر) فقد يوصف بها الله كما يوصف بها البشر وإذا وصف بها الله سبحانه كانت مساوية في المبالغة لصيغة قدير ، وإذا وصف بها البشر دلت على التكلف واكتساب القدرة .
- أن صيغة (قدير) تشعر بالحكمة مع الدلالة على المبالغة بخلاف (مقتدر) فهي تدل على المبالغة في القدرة ، والحكمة تفهم من خارج الصيغة ، ولذلك اختصت صيغة (قدير) بالله تعالى .

والذي أفهمه من فرق بين الكثرة في الصيغتين أن المبالغة في (قدير) من أصل الصيغة ، وأما الكثرة في (مقتدر) فهي طارئة ، ويدل على هذا الفرق قول الراغب السابق : « والمقتدر يقاربه ، وحمل المبالغة فيها إذا استعملت في جانب الله على المبالغه في (قدير) وهناك فرق بين أن يكون في الشيء معنى الشيء ، وأن يكون الشيء الشيء ، وربما يؤيد هذا الفرق الدقيق أيضا عدم ورود صيغة مقتدر في القرآن الكريم إلا في أربعة مواضع فقط ، ولم يرد من هذه المواضع الأربعة دالا على عموم متعلق القدرة إلا آية واحدة هي قوله سبحانه : ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا ﴾[2]

---

(١) المفردات في غريب القرآن مادة قدر .
(٢) الكهف [٤٥]

أما الآيات الثلاث الباقية فقد كان فيها متعلق القدرة أمرا واحدا ، ولكن المقام هو الذى استدعى المبالغة فى القدرة على نحو استدعائه إياها فى بعض آيات صيغة المبالغة (قدير)

والآيات الثلاث الأخرى هى :

- ﴿ فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ﴾ (١)
- ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾ (٢)
- ﴿ إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾(٣)

وقد دلت الصيغة على المبالغة فى الآيتين الأوليين من هذه الآيات الثلاث بمعونة المقام ؛ لأنه مقام تهديد وانتقام ووردت الصيغة الأولى جمعا لمناسبة الحديث السابق بالجمع عن المكذبين برسول الله ﷺ ، وهم أكثر فى العدد من آل فرعون .

ويوضح الزمخشرى التناسب بين المبالغة فى القدرة والجرم الذى ارتكبوه فيقول : « وصفهم بشدة الشكيمة ثم أتبعه شدة الوعيد بعذاب الدنيا والآخرة»(٤)

ولما كان تكذيب آل فرعون بكل الآيات وهى الآيات التسع التى أرسل بها موسى عليه السلام(٥) كان من المناسب أن يصدر عقابهم وأخذهم من عزيز قوى الأخذ مقتدر عليه حيث لم يكن إمهاله لهم عن عجز ، أو يكون المراد أنه عزيز لا يغالب ومقتدر لا يعجزه شئ . (٦)

---

(١) الزخرف [٤١-٤٢]
(٢) القمر [٤١-٤٢]
(٣) القمر [٥٥]
(٤) الكشاف ٣/٤٩٠ وانظر حاشية الشهاب ٧/ ٤٤٤
(٥) انظر التفسير الكبير ٥٨/٢٩ ويجوز أن يكون المراد كل الآيات لأن تكذيبه بعض الرسل تكذيب للرسل جميعا .
(٦)انظر التفسير الكبير ٥٨/٢٩ وانظر روح المعانى ٩١/٢٧

أما الآية الأخيرة من هذه الآيات (فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) فكان مقامها مقام تكريم للمتقين ، وقد ورد فيها (مليك) على المبالغة فى ملك ، ولذلك كان من المناسب أن تأتى المبالغة أيضا فى (مقتدر) وكان الإبهام والتنكير فى هذا المقام مناسبين لهذه المبالغة ، ولذلك يقول الشهاب : « أبهم العندية والقرب ونكر مليكا ومقتدرا للإشارة إلى أن ملكه وقدرته لا تدرى الأفهام كنههما ، وأن قربهم بمنزلة من السعادة والكرامة بحيث لا عين رأت ولا أذن سمعت مما يجل عن البيان وتكل دونه الأذهان »[1]

ويعلل الفخر الرازى لعلاقة المبالغة فى القدرة هنا بمقام التكريم فى قوله: « لأن القربة من الملوك لذيذة ، وكلما كان الملك أشد اقتدارا كان المتقرب منه أشد التذاذا ، وفيه إشارة إلى مخالفة معنى القرب من معنى القرب من الملوك، فإن الملوك يقربون من يكون ممن يحبونه وممن يرهبونه مخافة أن يعصوا عليه وينحازوا إلى عدوه فيغلبونه ، والله تعالى قال : (مقتدر) لا يقرب أحدا إلا بفضله »[2]

وبهذا رأينا كيف استدعى المقام فى المواطن الأربعة المبالغة فى القدرة ، وكيف أعان المقام على فهم هذه المبالغة منها وإن كان متعلقها فى بعض المواقع محدودا .

هذا ويفرق ابن الأثير بين صيغتى اسم الفاعل والمبالغة من القدرة فى أسماء الله تعالى فيقول : « وفى أسماء الله تعالى القادر والمقتدر والقدير ، فالقادر اسم فاعل من يقدر والقدير فعيل منه وهو للمبالغة والمقتدر مفتعل من اقتدر وهو أبلغ »[3]

ومنطلق ابن الأثير فى هذه التفرقة بين (قدير ومقتدر) مبنى على قاعدة: زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى وهى قاعدة مشهورة احتجوا بها أيضا فى زيادة أبلغية الرحمن على الرحيم ، ونقل ذلك عن الزمخشرى وغيره[4] ولكن

---

(١) حاشية الشهاب ١٢٩/٨ (٢) السابق للفخر الرازى ٧٢/٢٩

(٣) لسان العرب مادة قدر نقلا عن ابن الأثير .

(٤) انظر الكشاف ٤١/١

هذه القاعدة المشهورة غالبية لا مطردة بدليل أن حذرا أبلغ من حاذر مع زيادة بناء اسم الفاعل ، كما أن الشواهد الأربعة التى ذكرت لصيغة (مقتدر) لا تدل على زيادة فى المبالغة عن (قدير) بل لعلها تثبت العكس كما هو واضح مما سبق ، ويؤيد هذا العكس أيضا ما ذكره الراغب الأصفهانى فيما سبق حول الصيغتين والله الموفق .

وبهذا استطعنا بتوفيق الله تعالى أن نتتبع مواقع صفة القدرة فى الفاصلة القرآنية ، سواء أكانت واردة على صيغة اسم الفاعل أو المبالغة وبينا المقام الذى استدعى صيغة دون أخرى ، وكانت رعاية الفاصلة مصاحبة لكل صيغة فى مقامها ، ولم ترد صيغة (قدير) فى غير الفاصلة إلا فى موقع واحد فى سورة الممتحنة ﴿ **والله قدير والله غفور رحيم** ﴾ [1] كما لم ترد صيغة (مقتدر) فى غير الفاصلة ، وأما صيغة اسم الفاعل فقد وردت فى الفاصلة وفى غيرها كما يتضح ذلك مما سبق .

وهكذا من يتتبع صيغ المبالغة الواردة فى أسماء الله تعالى فى الفاصلة القرآنية يجد فيها فروقا وعجائب ودقائق تشير إلى جانب من الإعجاز البلاغى فى هذا الكتاب العزيز ، ولا يتسع المقام هنا لاستقصاء القول فى صيغ أخرى مثل (عليم – حكيم – رحيم ...)وغيرها من الصيغ التى يكثر ورودها فى الفاصلة القرآنية ، ولعل ما ذكرناه فى صيغة (قدير) وما ارتبط بها، وهى من الصيغ التى تكثر فى الفواصل القرآنية يضع أساسا ويفتح بابا ومنهجا لتناول صيغ أخرى ربما نعود إلى الكتابة فيها فى وقت آخر ، وبالله التوفيق .

أما ما ذكره ابن الصائغ عن صيغة المبالغة المنفية فى الفاصلة القرآنية فى قوله سبحانه : ﴿ **ومانتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا** ﴾ [2] فهو يدخل فى إطار مخالفة الأصل من أجل المناسبة على ما ذكره .

---

(١) الممتحنة [٧]

(٢) مريم [٦٤]

ونفى المبالغة هنا قد يبدو فى ظاهره إثبات لأصلها ، مع أن أصلها مستحيل على الله تعالى ، وعلى ذلك يكون المناسب هو اسم الفاعل لا صيغة المبالغة ، ولكن الواقع أن النسيان هنا مجاز عن الترك كما فى قوله سبحانه : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ﴾ [1] وعلى هذا تكون المبالغة منصرفة إلى طول مدة الترك ، وأما أصل الترك فثابت لحكمة معينة ، ولذلك كان عدم التنزل لأن الله لم يأمر به لهذه الحكمة ، ثم لما اقتضت حكمته التنزل تنزلنا

ويجوز أن يكون النسيان على ظاهره ، ويكون نفيه باعتبار كثرة التعلقات؛ لأن علمه تعالى شامل ومحيط بكل شئ وبذلك يبقى النسيان على أصله [2]

وعلى الوجه الأخير يمكن حمل نفى المبالغة فى قوله تعالى : ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾، لأن النفى واقع على أصل الظلم لكل عبيده وهم كثير ، أو أن الصيغة واردة على النسب ، أى ليس بذى ظلم فهو من باب نبال وعطار ، وهناك أوجه أخرى فى هذا المقام [3]

ونختم هذا الحديث عن المبالغة بالمقارنة بين صيغة أخرى من صيغ المبالغة الواردة فى الفاصلة من غير اسماء الله تعالى ، حيث وردت الصفة على الأصل فى موقع ، وعلى المبالغة فى موقع آخر وعلى زيادة المبالغة فى موقع ثالث لاستدعاء المقام ذلك ، وتحقق بكل منها رعاية الفاصلة ، أما هذه الصيغة فهى صيغة فعيل التى وردت مرة لمجرد إثبات الوصف الوارد على وزن (فعيل) ومرة للدلالة على المبالغة بمجيئها على وزن (فعال) ومرة ثالثة للدلالة على زيادة المبالغة بتشديد العين .

أما ورودها لإثبات أصل المعنى فقد جاء ذلك فى قوله سبحانه : ﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شئ عجيب ﴾ [4]

---

(1) طه [١١٦]

(2) انظر روح المعانى ١١٤/١٦—١١٥ وتفسير التحرير والتنوير ١٤٠/١٦—١٤١

(3) انظر البرهان ١٢/٢ه   (4) سورة ق [٢]

ومن المعروف أن صيغة فعيل لا تدل على المبالغة إلا إذا كانت بمعنى فاعل كعليم وسميع ورحيم ، وأما إذا كانت بمعنى مفعول كقتيل وجريح فلا تدل عليها ، وكذلك لا تدل على المبالغة إذا كانت واردة على فعيل دون عدول عن صيغة أخرى ، وإنما تفيد أصل المعنى ، ولذلك وردت دون المبالغة فى الآية القرآنية السابقة ، بينما وردت على المبالغة فى موقع آخر ، وهو قوله سبحانه ﴿ **وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشئ عجاب** ﴾[1] لأنها معدول بها عن عجيب وليس اختلاف الصيغتين فى الفاصلة لرعايتها بادئ ذى بدئ ، ولكن المتأمل فى مدار العجب وموطنه فى الموقعين يجد أن ما كان موضعا للعجب أتت فيه الصيغة دون مبالغة ، وذلك ما نلاحظه فى سورة (ق) ؛ لأن مناط عجبهم ودهشتهم هو كون الرسول ﷺ منهم ، لأنهم كانوا يرون أن الرسول لا يكون بشرا ، وإنما ينبغى أن يكون ملكا لا يأكل الطعام ولا يمشى فى الأسواق ، وقوله سبحانه : ﴿ **فقال الكافرين هذا شئ عجيب** ﴾ تفسير لهذا العجب ، وليس بيانا لسببه «وعطف بالفاء لوقوعه بعده وتفرعه عليه»[2]

أما أساس العجب فى (ص) فهو أن الرسول وإن كان منهم أيضا ، وهذا موطن عجب لكن هناك ما يدعو لزيادة العجب عندهم ، وهو جعله الآلهة إلها واحدا ، ولذلك كان الملائم للفاصلة أن تكون على صيغة المبالغة (عجاب) دون عجيب « أى مبالغ فى العجب ، فإن فعالا بناء مبالغة كرجل طوال وسراع ، ووجه تعجبهم أنه خلاف ما ألفوا عليه آباءهم الذين أجمعوا على تعدد الآلهة وواظبوا على عبادتها ، وقد كان مدارهم فى كل ما يأتون ويذرون التقليد ، فيعدون خلاف ما اعتادوه عجبا بل محالا »[3]

---

(١) سورة ص [٥]

(٢) روح المعانى ١٧٢/٢٦

(٣) روح المعانى ١٦٦/٢٣ وانظر الكشاف ٣٦٠/٤ والتفسير الكبير ١٥٥/٢٦

أما الموقع الثالث لهذه الصيغة الذى اقتضى المقام زيادة المبالغة فهو فى قوله سبحانه على لسان نوح عليه السلام فى حديثه عن قومه : ﴿ ومكروا مكرا كبارا ﴾ [١] والمبالغة هنا فى صيغة (فعّال) المشددة العين ، وذلك أنه لما ازداد مكرهم واشتد عنادهم مع طول المدة التى مكث نوح عليه السلام يدعوهم فيها كان من المناسب ورود هذا المكر ووصفه بهذه الصيغة الزائدة فى المبالغة ، قال المعرى فى اللامع العزيزى : « (فعيل) إذا أريد به المبالغة نقل إلى (فُعال) وإذا أريد به الزيادة شددوا فقالوا (فُعّال) ذلك من عجيب وعُجاب وعُجّاب » [٢]

وعن هذا المكر الذى استدعى مقام المبالغة يقول الزمخشرى : « الماكرون هم الرؤساء ومكرهم احتيالهم فى الدين وكيدهم لنوح وتحريش الناس على أذاه وصدهم عن الميل إليه والاستماع منه، وقولهم لا تذرن آلهتكم إلى عبادة رب نوح » ثم يقول : « والكُبّار أكبر من الكبير ، والكُبّار أكبـ[ـر مـ]ـن الكبار ونحوه طوال وطوّال » [٣]

وبهذا رأينا كيف كان إثبات الصيـ[ـغة] أو تـ[ـركـ]ـب المبالغة فيها منا[سباً] للمقام، ومستدعى للوفاء بالمراد فى كل موقع من الواقع الثـ[ـلا]ثة قبل رعاية الفا[صلـ]ـة ، وهذا ليس غريبا على الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و[لا] من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وهنا نطوى صفحة الحديث عن بعض صيغ المبالغة فى الفاصلة القرآنية ، وننتقل إلى صورة أخرى و[...] من شجاعة العربية ، وبالله التوفيق .

---

(١) نوح [٢٢]

(٢) البرهان ٥١٣/٢-٥١٤

(٣) الكشاف ١٦٤/٤

الصورة التاسعة

إيثار المظهر على المضمر

مما هو معروف فى الدراسات البلاغية أن للمظهر مقامه وللمضمر مقامه، فإذا ورد اللفظ مظهرا فى موضع ثم امتد الحديث عنه بعد ذلك فالمناسب أن يرتبط هذا الحديث بضميره العائد عليه ، ولكننا نلاحظ أحيانا أن هذا المظهر الذى ذكر أولا يعاد ذكره مرة ثانية بلفظه مع إمكان الاستغناء بضميره عنه ، وذلك لا يكون إلا لأسباب واعتبارات معينة تستدعى هذا الإظهار بدلا من الإضمار « لأن هناك فرقا بين أن يدل على الشئ بضميره الذى هو كناية عنه ، وأن يدل عليه بصريح لفظه لما فى هذا اللفظ الصريح من خصوصية معينة تساعد على الوفاء بالغرض المقصود من الكلام « لأن هناك قدرا كبيرا من التأثير يظل الاسم محتفظا به ، ولا يستطيع الضمير حمله نيابة عنه ؛ لأنه يتولد حين يقرع اللفظ السمع بجرسه وارتباطاته المختلفة كل الاختلاف والتى اكتسبها فى قصته الطويلة مع الكلمات والأحداث والمواقف »[1]

وحديثنا هنا عن وقوع المظهر موقع المضمر مرتبط برعاية الفاصلة ، أعنى أن هذا العدول عن الظاهر ساعد على أن تكون فاصلة الآية الكريمة متفقة مع الفواصل الأخرى ، بينما لو استغنى بالضمير عن الظاهر كما هو الأصل فى التعبير لا تتحقق رعاية الفاصلة ، ومن هنا يمكن أن يعلل وقوع المظهر موقع المضمر برعاية الفاصلة ، ولكننا معنيون فى هذا البحث ببيان الأسرار والدواعى التى استدعت مخالفة الكلام لمقتضى الظاهر قبل تحقق المناسبة فى الفواصل ، وهذا ما يعنينا أيضا فى هذه الجزئية من البحث

وأبرز الأغراض التى وقع فيها الظاهر موقع الضمير فى الآيات التى نتعرض لها هنا فى الإطار السابق مايلى :

الإشعار بعلة الحكم : يندرج تحت هذا الغرض الآيات التالية :

(١) انظر خصائص التراكيب ١٩٢-١٩٣ د/ محمد أبو موسى — مكتبة وهبة .



... لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴾[1] وكان مقتضى الظاهر أن يقال : فإن الله عدو لهم، وهذا الظاهر لا تتحقق به رعاية الفواصل كما هو واضح ، كما أنه يأتى قبل ذلك أن إظهار اسم الكافرين فيه تسجيل الكفر عليهم وبيان أنهم استحقوا هذه العداوة بسبب الكفر ، وإن كانت العداوة مذكورة قبل ذلك ، لكنها وردت هنا مقترنة بالكفر فأفاد ذلك أنه سببها إفادة صريحة تساعد على التنفير من الكفر وبيان جرمه[2]

وقد يظهر عنوان الكفر مقترنا باللعنة للإشعار بأنه سببها أيضا كما كان سببا للعداوة فى الآية السابقة كما فى قوله سبحانه : **﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾**[3] وحول وقوع الظاهر هنا يقول الزمخشرى : « وضعا للظاهر موضع المضمر للدلالة على أن اللعنة لحقتهم لكفرهم »[4]

وقد يكون الجرم المراد تسجيله على أصحابه ؛ لأنه السبب فى عدم فلاحهم هو الظلم كما فى قوله سبحانه : **﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون ﴾**[5] وكان الظاهر هنا أن يقال إنهم لا يفلحون ، وإن لوحظ صدر الآية وأبرز فى الفاصلة لقيل : لا يفلح المفترون ، ولكن عدل عن كل ذلك للاهتمام بالتصريح بالظلم لبيان أنه سبب عدم الفلاح ،[6] وقد يكون الجرم المراد تسجيله عليهم لأنه علة الانتقام هو التكذيب كما فى : **﴿ فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾**[7].

وقد ينضم إلى الإشعار بعلة الحكم بيان كمال العناية بالمظهر كما

---

(١) البقرة [٩٨]   (٢) انظر البرهان ٤٩٤/٢

(٣) البقرة [٨٩]   (٤) الكشاف ٢٩٦/١

(٥) الأنعام [٢١]

(٦) انظر البرهان ٤٩٣/٢ ومن الواضح أن رعاية الفاصلة لا تتوقف على الإظهار فى الآية ، ولكنها ذكر ... الاطراد

فى قوله سبحانه : ﴿ والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾[1] ولهذا أوثر إبراز المصلحين بدلا من ضميرهم لبيان أن عدم إضاعة الأجر بسبب صلاحهم الناشئ من تمسكهم بالكتاب وإقامة الصلاة ، كما أن فى هذا الإظهار ما يدل على الاهتمام بأمر الصلاح.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾[2]

وكان مقتضى الظاهر أن يقال : إنا لا نضيع أجرهم ، ولكن فى العدول عن الإضمار إلى هذا الإظهار إبراز لقيمة حسن العمل فى استحقاق الأجر وإن كان ذلك مفهوما من (وعملوا الصالحات) لكن فى هذا الإظهار مع ذلك بيان لكمال العناية بحسن العمل ومدخليته المباشرة فى استحقاق الأجر[3]

وقد يكون الغرض من هذا الإظهار تربية المهابة وإدخال الروعة فى ضمير السامع كما فى قوله سبحانه : ﴿ الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة ﴾ ﴿ القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة ﴾ ولا يخفى ما فى لفظ الحاقة والقارعة من قوة تأثير فى النفس يجعلها تحس الرهبة وتستحضر هول كل من الحاقة والقارعة ، ولذلك أوثر إظهار لفظ كل منهما مرتين دون الاكتفاء به مرة واحدة ليستقر هذا المعنى فى القلب ، وفى ذلك أيضا تفخيم لشأن هذا المظهر واعتناء بأمره

ولهذا التفخيم والاعتناء بشأن المظهر أيضا أوثر فى التعبير على المضمر فى الآيات التالية :

- ﴿ وأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ﴾ ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ﴾[4]
- ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ﴾
- ﴿ قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس ﴾

---

(١) الأعراف [١٧٠]
(٢) الكهف [٣٠]
(٣) انظر المرجع السابق .
(٤) الواقعة [٨ - ٩ ، ٢٧]

ولا يخفى أمر التفخيم والاعتناء فى كل مظهر وقع موقع الضمير فى هذه الآيات الكريمة ، وقوله سبحانه فى آيات سورة الناس : ﴿ **ملك الناس إله الناس** ﴾ عطف بيان على رب الناس ، وأهمية عطف البيان هنا ترجع إلى تحديد المقصود من الرب ؛ لأن الرب قد لا يكون ملكا ، والملك قد لا يكون إلها ، وجمع هذا النظم الكريم بين هذه الصفات الثلاث لله سبحانه : ﴿**رب الناس ملك الناس إله الناس** ﴾ للإشعار بأنه حقيق بالإعاذة ، وفى إضافة كل منها للناس تشريف للمضاف إليه وهم الناس ، ولذلك خصهم بالذكر مع أنه رب كل شئ ، ولما كانت الصفات واردة على طريق عطف البيان لتحديد المراد من الرب والملك بأنه الإله المتفرد بصفاته عن البشر كان إظهار لفظ الناس أوقع من إضماره فى مقام البيان ، كما أن فى هذا الإظهار مع التكرار تشريفا لهم واعتناء بشأنهم ، ولذلك يقول الشهاب عن هذا الإظهار « فإن الإظهار فى مقام الإضمار يدل على التعظيم والتفخيم وإن لم يكن فى لفظ المظهر إشعار بذلك كما صرح به الإمام المرزوقى فى أول شرح الحماسة »[1]

وذهب البعض إلى أنه لا تكرار فى لفظ الناس ؛ لأن المراد من كل لفظ غير المراد من الأول ، وليس هناك ما يمنع من ذكر العام ، وإرادة بعض أفراده ، فالناس المضافون للفظ الرب هم الأجنة والأطفال لحاجتهم للتربية ، والناس المضافون للفظ (ملك) هم الكهول والشبان لأنهم المحتاجون لمن يسوسهم ، والناس المضافون للفظ (إله) هم الشيوخ لأنهم المتعبدون المتوجهون لله .

وترجع دقة هذا الرأى إلى أن تخصيص كل مضاف إليه بما خصص به مستمد من خصوصية المضاف أعنى (رب — ملك — إله) وقد شمل لفظ الناس عليه بتكراره ثلاث مرات جميع الناس فى جميع أطوار حياتهم ، ولكن مع هذه الدقة فهناك ما يعارضها ، وهو قاعدة أن المعرفة إذا كررت معرفة كان المقصود بالثانى عين الأول بخلاف النكرة ، وإن كانت هذه

---

(١) انظر حاشية الشهاب ٨/٤١٨

القاعدة ليست مطردة وقد روعى العموم والخصوص فى ترتيب الصفات الثلاث فى الذكر (رب ـ ملك ـ إله) كما سبق فبدئ بالعام وهو الرب ثم بالخاص وهو الملك ثم بالأخص منه وهو الإله ، وهذا موافق لطبائع الأمور فى دفع المظلمة حيث يرفع الأمر أولا للسيد والمربى كالوالدين فإن لم يقدر على دفعها رفعه للملك والسلطان فإن لم يزل مظلمته أو عجز عنها رفعت إلى ملك الملوك ومن إليه المشتكى والمفزع[1] وقد واكب إظهار لفظ الناس مضافا إلى المولى سبحانه فى المواقع الثلاثة تعريف بذاته سبحانه فى آخر سور القرآن الكريم بكونه ربا للناس ملكا للناس ، إلها للناس ، فهو رب وملك وإله[2] سبحانه جل شأنه لا رب سواه ، ولا معبود بحق إلا هو ، إليه الملجأ والمعاذ ، ومنه العون والتوفيق ، نستغفره ونتوب إليه .

---

(١) انظر روح المعانى ٢٨٦/٣٠ وانظر جوانب أخرى لهذا الترتيب فى صفوة التفاسير ٦٢٦/٣٠ محمد على الصابونى ـ دار الرشيد سوريا ـ حلب .

(٢) انظر التفسير الكبير ١٨١/٣٢

أهم المراجع

١- أسرار البلاغة - عبد القاهر الجرجانى طبعة رشيد رضا
٢- بغية الايضاح - عبد المتعال الصعيدى - مكتبة الاداب ومطبعتها .
٣- البيان والتبيين - الجاحظ .
٤- دراسات تفصيلية شاملة - عبد الهادى العدل - دار الطباعة المحمدية .
٥- دراسة بلاغية فى السجع والفاصلة القرآنية د/ عبد الجواد محمد طبق . دار الأرقم بالزقازيق
٦- دراسات فى علم المعانى - د/ عبد الجواد محمد طبق - مطبعة الأمانة بالقاهرة .
٧- دلائل الاعجاز - عبد القاهر الجرجانى - شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجى .
٨- روح المعانى - الألوسى - مكتبة التراث .
٩- سر الفصاحة - ابن سنان الخفاجى - شرح وتعليق عبد المتعال الصعيدى .
١٠- شروح التلخيص .
١١- الطراز - العلوى - دار الكتب العلمية .
١٢- كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكرى .
١٣- المثل السائر - لابن الأثير - تحقيق د/ بدوى طبانة ود/أحمد الحوفى.
١٤- مجموعة النظم والنثر للحفظ والتسميع - المطبعة الأميرية .

دليل الكتاب

المقدمة:-